سلسلة
دراسات نفسية إسلامية
(١٠)



الإيمان والصحة النفسية

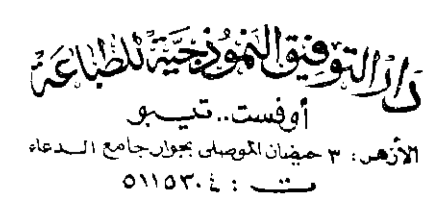
إعداد

الدكتور سيد عبد الحميد مرسي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعـة الأولى

١٤١٥ هـ — ١٩٩٤ م



بسم الله الرحمن الرحيم

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا .. » .

(صدق الله العظيم)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، نبى البشرية والانسانية ، وعلى آله وصحبه أجمعين ..

وبعــــــد ..

لقد شاء العلى القدير أن يكون هذا الكتاب مسك الختام فى سلسلة « الدراسات النفسية الاسلامية » التى أعدها الكاتب وبدأ فى اصدارها منذ حوالى خمسة عشر عاما ..

وموضوع الكتاب أساسا « الايمان والصحة النفسية » هو المحور الأساسى لهذه السلسلة ..

فان قضية « الايمان » ليست أمرا سطحيا ، أو على هامش الوجود ، يجوز اغفاله أو عدم الاهتمــام به . فهو أمر يختص بوجود الانســان ومصيره ، ولذا فقضية الايمان هى أعظم قضية تختص بمصير الانســان . لقد فكر الكثيرون من أولى الألباب ، وانتهى كل منهم الى اثبات العقيدة بطريقته الخاصة ..

فمنهم من استمع الى صوت الفطرة فى أعماقه ، قال تعالى :

﴿ .. **افى الله شك فاطر السموات والأرض** .. ﴾ .

(ابراهيم : ١٠)

﴿ .. **فطرة الله التى فطر الناس عليها** .. ﴾ . (الروم : ٣٠)

ومنهم من اعتمد على مبدأ « السببية » ، الذى يقرر أن كل صنعة لابد لها من صانع ، وكل حركة لابد لها من محرك ، وكل نظام لابد أن يكون وراءه منظم . وهــذا المبدأ ثابت كالبديهيات فى العقول .

ومنهم من ناقش المسألة مناقشة رياضية ـ حسابية ـ فانتهى الى أن الأضمن لحياته ، وما بعد حياته : أن يؤمن بالله وبالآخرة والبعث والجزاء . وقال الفيلسوف الرياضي « باسكال »[1] :

« اما أن تعتقد أن الله موجود أو لا تعتقد ذلك ، فماذا تختار ؟ ان عقلك لعاجز كل العجز أن يختار ، وانها للعبة جارية بينك وبين الطبيعة ، رمى فيها كل منكما بسهمه ، ولابد أن يربح أحد السهمين .. فوازن بين كل ما يمكن أن تربح ، وما يمكن أن تخسر . اذا راهنت بكل ما تملك على ظهور السهم الأول ـ أى على وجود الله ـ فاذا كسبت الرهان ، فقد حصلت على سعادة أبدية . فاذا أخفقت فسوف لا تفقد شيئا مهما .. فلست تخاطر الا بشيء فان ـ ولو كان محقق الوقوع ـ محتمل ومعقول » .

ونحن نزيد على هذا فنقول :

« ان الذى يؤمن بالله والدار الآخرة لا يخاطر بدنياه الفانية ليربح آخرته الباقية .. كلا ، انه بايمانه يربح الحياتين معا ، ويفوز بالحسنيين فى الدنيا والآخرة جميعا »[2] .

وصدق الله العظيم ، خير قائل :

﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة .. ﴾ .
(النساء : ١٣٤)

﴿ .. للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير .. ﴾ .
(النحل : ٣٠)

ان الفرد بغير دين ولا ايمان مجرد ريشة فى مهب الريح لا تستقر على حال ولا تعرف لها وجهة ، ولا تسكن الى قرار مكين . فالفرد بغير دين ولا ايمان مجرد انسان لا قيمة له ولا جذور ، انسان قلق متبرم حائر ، لا يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده . فهو بغير دين ولا ايمان

---

(١) يوسف القرضاوى : الايمان والحياة (ط ٧) القاهرة . مكتبة وهبة ، ١٩٨٠ ، ص ٤
(٢) نفس المرجع السابق .

حيوان شره لا تستطيع الثقافة ولا القانون ــ وحدهما ــ أن يحدا من شراهته ، أو يقلما أظفاره .

فالمجتمع بغير دين ولا ايمان مجتمع غابة ، وان لمعت فيه بوارق الحضارة . فالحياة والبقاء فيه للاشد والأقوى ، لا للأفضل أو للأتقى .. مجتمع تعاسة وشقاء وان زخر بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم .. مجتمع تافه رخيص ، لأن غايات أهله لا تتجاوز شهوات حيوانية ، فهم :

﴿ .. يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .. ﴾ . (محمد : ١٢)

« والعلم المادى » وان امتد رواقه ، واتسعت ميادينه ، لا يستطيع أن يحقق الطمأنينة والسعادة للناس ، لأن العلم يرقى بالجانب المادى الحياة .. فيختصر الشقة البعيدة ، والزمن الطويل ، الى مدة أقصر ، ولذا سمى « عصر السرعة » ، أو « عصر التغلب على المسافات » .

ولكن هل يستطيع أحد أن يسميه عصر « الفضيلة » أو عصر « الطمأنينة » ، أو عصر « السعادة للبشر » ؟

ان العلم هيأ للانسان الحديث وسائل الحياة ، ولكنه لم يهده الى غاياتها . انه زين له ظاهرها ، ولكنه لم يصله بأعماقها . وما أتعس الانسان اذا أغرقته الوسائل فذهل عن الغايات ، واذا شغل بالسطح عن القاع ، وبالقشر عن اللباب !

العلم المادى أعطى الانسان أدوات كثيرة ، ولكنه لم يعطه « قيمة » كبيرة أو « هدفا » رفيعا يحيا له ويموت عليه .

ذلك أن هذه ليست وظيفة العلم وليست من اختصاصه ، وانما ذلك من اختصاص الدين .

ووجود الله تعالى وتفرده بالسلطان والتدبير واستحقاق العبادة ، وبعثه النبيين وصدق ما أخبروا به عن الحياة الآخرة ــ كل هذا قامت الأدلة على صدق ثبوته ، والايمان به واجب لأنه حق ، وقد نيط به صلاح الظاهر والباطن ، ورقى الفرد والمجتمع ، وسعادة الدنيا والآخرة .

ونحن حين تتحدث عن ثمرات الايمان وآثاره فى النفس والحياة ، انما نعنى الايمان القوى الدافق ، الايمان حين يبلغ مداه ، ويشرق على القلوب سناه ، ويخط فى أعماق النفوس مجراه ..

ان عقيدة الاسلام عقيدة تتسع للروح والمادة ، والحق والقوة ، والدين والعلم ، والدنيا والآخرة . انها عقيدة التوحيد التى تغرس فى النفس الكرامة والحرية ، وتجعل الخضوع لغير الله كفرا وفسقا ومذلة وظلما ، وتأبى على الناس أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله .

واذا كان للدين وللايمان هذا الأثر فى كل بلاد الدنيا ، فان أثره عميق ، وضرورته أعظم فى بلادنا الاسلامية والعربية خاصة .

ان مفتاح الشخصية الاسلامية والعربيه على وجه الخصوص هو « الدين » ، هو « الايمان » ، هو « عقيدة الاسلام » .

ومهما نحاول أن نذكى هذه الشخصية ، وأن نفجر طاقاتها المكنونة بغير مفتاحها الأصيل ـ وهو الدين والايمان ـ فاننا نحاول عبثا ، كمن يبنى على الماء أو يكتب فى الهواء .

بعقيدة الاسلام انطلق العرب من جزيرتهم ، يخرجون العالم من الظلمات الى النور ، ويؤدبون بسيوفهم الأكاسرة والقياصرة ، وكل من صعر خده من الجبابرة ، وينقلون الناس من عبادة الخلق الى عبادة الخالق ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور العقائد الزائفة والظلام الى عدل الاسلام .

ولقد فتن أقوام منا بالمذاهب المادية التى قذفنا بها الغرب ، والتى لا تجعل لله ولا للآخرة مكانا فى الحياة ، ولا تعترف بالدين الا باعتباره أداة يمكن استخدامها ـ عند الضرورة ـ لاسترضاء الجماهير المتدينة أو استثارتها لغرض موقوت .

« نحن قوم مؤمنون » ، وهذه قضية بدهية يجب أن يلتقى على حمايتها وتثبيتها ونشرها قلم الكاتب ، ولسان الخطيب ، وفكر الفيلسوف،

ووجدان الشاعر ، وريشة الفنان ، وتقنين المشرع ، وسلطان الحاكم ، ورقابة الشعب .

ان كل ثغرة تفتح فى أى جانب من جوانب حياتنا الثقافية والفنية والعملية لتصوب منها سهام الشك أو الجحود الى صدر الايمان ، تعد خيانة عظمى لأمتنا وخروجا سافرا على مبادئها ، ومروقا من صفوفها ، وانضماما الى ألد أعدائها ، وتعويقا لما تقوم به الجوانب الأخرى من جهاد ايجابى بناء .

اننا لعلى يقين أن كلمة الايمان ستعلو وتنتصر ، وأن كلمة الشك والكفر ستكون هى السفلى ، وصدق الله العظيم ، اذ قال :

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .. ﴾ . (ابراهيم : ٢٤ ــ ٢٦)

ولقد أصبحت العناية بالصحة النفسية للأفراد والعمل على تكامل شخصياتهم موضع اهتمام المسئولين على مختلف المستويات سواء فى الأسرة أو فى المدرسة أو فى المجتمع العام . ويرجع ذلك الى أن تعقد الحياة فى المجتمع الحديث ومواصلة الكفاح فى سبيل العيش تتطلب المزيد من الرعاية النفسية،حتى تهيىء للفرد حياة مستقرة يشعر خلالها بالرضا والاشباع والسعادة والاقبال على الحياة والعمل . ويتميز القرن العشرون بأنه تسوده عوامل الصراع والتطاحن والحرب النفسية لدرجة جعلت الكثير من شعوب العالم تعيش على حافة الهاوية ، وقد دعا ذلك الباحثين فى مجال العلوم السلوكية الى أن يطلقوا على هذا العصر لقبا مميزا هو « عصر القلق » !

ولم يكن الانسان فى يوم من الأيام أشد حاجة الى فهم شخصيته مما هو عليه اليوم ، ذلك أن ثمة صرخة مدوية ترتفع الآن فى كل مكان معلنة أن الانسان قد نمت معرفته بالعالم الطبيعى وتقدمت سيطرته على

ظواهر الطبيعة حتى أصبح على وشك أن يهلك نفسه بنفسه • ولم يعد أمامنا اليوم الا أن تنمى معرفتنا بالطبيعة البشرية حتى نحقق التوازن اللازم فى المعرفة الانسانية المتكاملة • لم يعد أمام الانسان الا أن يفهم ذاته فهما يمكنه من السيطرة عليها ومن ضبطها وتوجيهها •

ويبدأ الانسان بالتفكير فى نفسه عندما يدرك أن قدرته على التوافق قد ضعفت وأن علاقته بالبيئة المحيطة به لم تعد علاقة ود وأمن ، وعندما يشعر بحدة القصور وانعدام التكافؤ بينه وبين العالم المادى والاجتماعى الذى يعيش فيه ، وعندما يشعر بالعزلة والفرقة بينه وبين الآخرين •• عندئذ يرتد الانسان الى نفسه وتتجسم فى أوهامه نقائصه ، ويشعر بحاجة ملحة الى أن يختبر ذاته ويحاسبها ويحاول جهده أن يتفهمها •

لقد عرفت هيئة الصحة العالمية « الصحة » بأنها « حالة السلامة الكاملة فى النواحى الجسمية والعقلية والاجتماعية ، وليست مجرد الخلو من الأمراض أو التشوهات » • وفى اطار هذا المفهوم نجد أنه على الرغم من أن اللياقة البدنية هى احدى المقومات الأساسية للصحة ، الا أنه كى يكون الفرد سليم الصحة ينبغى أن يتمتع بقدرات عقلية كاملة مع قدرته على التوافق الاجتماعى •

يتخذ التوافق مع البيئة طريقا ايجابيا فى تحديد مفهوم الصحة النفسية ، ويتضمن تنمية التوافق بين الحاجات الشخصية والظروف الاجتماعية للفرد • كما يرتبط بقدرة الفرد على التوافق مع نفسه ومع المجتمع الذى يعيش فيه • وهذا يؤدى الى التمتع بحياة خالية من الاضطرابات مليئة بالتحمس • ان شخصا هذا نمطه يعتبر من وجهة نظر الصحة النفسية شخصا سويا ، لأنه يتميز بالقدرة على السيطرة على العوامل التى تؤدى الى الاحباط • ان مثل هذا الشخص يتمتع بقدر كاف من الصحة النفسية ، بحيث يمكنه أن يعيش فى وفاق مع نفسه ومع غيره •

ان الذى يميز الشخصية السوية عن غيرها ليس هو شكل السلوك ، وانما وظيفة هذا السلوك ، أو ما يحققه من أهداف • فالسلوك السوى

الذى يميز الشخصية المتكاملة هو الذى يحقق مواجهة واقعية للمشكلات والصراع وليس هروبا منها •

ان الادراك الصحيح للواقع ــ متضمنا المفهوم الواقعى للذات ــ يعتبر معيارا مفيدا للصحة النفسية • فلكى يكون التوافق مع البيئة ايجابيا فانه ينبغى أن يرتكز الى الادراك الواقعى للبيئة •

قام الكاتب بشرح النقاط السابق ذكرها فى خمسة فصول على النحو التالى :

الفصل الأول : « مفهوم الايمان » ، وقد تناول الموضوعات الآتية : مدخل ، معنى الايمان ، محتوى الايمان ويتضمن : وجود الله تعالى ، والتوحيد ، وكمال الله سبحانه ، والايمان بالنبوات ، والايمان بالآخرة •

والفصل الثانى بعنوان « أثر الايمان فى حياة الفرد » تناول موضوعات : الايمان وكرامة الانسان ، والانسان فى نظر المؤمنين ، ومنزلة الانسان ، والايمان والسعادة وسكينة النفس ، والرضا ، والايمان ومصدر الأمان ، والأمل ، والأمن النفسى ، والثبات فى الشدائد ، والايمان والأخلاق ، وأثر الايمان فى تكوين الضمير ، والبذل والتضحية ، والقوة ، والايمان بالحق ، والرحمة ، والايمان والانتاج ، وتنمية الشخصية المنتجة •

وعنوان الفصل الثالث هو « المفاهيم الأساسية للصحة النفسية » ، حيث ناقش بالتفصيل هذه المفاهيم والآراء والنظريات المختلفة فى هذا المجال •

واختص الفصل الرابع « بتوافق الشخصية » ، حيث تناول بعد المدخل ، أبعاد التوافق ، والتوافق الاجتماعى ، والتوافق المهنى ، وتحقيق التوافق المهنى فى الصناعة ، والتوجيه والارشاد والعلاج النفسى لتحقيق التوافق •

والفصل الأخير « الخاتمة » اختص بمناقشة موضوع « العلم والايمان » والتعقيب على موضوع « سلسلة الدراسات النفسية الاسلامية » .

والله أدعو أن يكون ما جاء بهذه السلسلة علما نافعا لكل من يقرأه ويعود ثوابه على كاتبه ، والله ولى التوفيق .

* * *

القاهرة :

ذو القعدة ١٤١٤ هـ

مايو ١٩٩٤ م

الفصل الأول

مفهوم الايمان

● **مدخل :**

ما هو « الايمان » الذى نعنيه من هذه الدراسة ، ونحاول تجلية أثره فى النفس والحياة ؟

ان الاجابة عن هذا السؤال لا تتضح الا اذا عرفنا مفهوم الايمان وحقيقته ومعناه .. فانه ليس مجرد اعلان المرء بلسانه أنه مؤمن ، فما أكثر المنافقين الذين قالوا بأفواههم آمنا ولم تؤمن قلوبهم :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ﴾ .
(البقرة : ٨ ــ ٩)

وليس الايمان مجرد قيام الانسان بأعمال وشعائر اعتاد أن يقوم بها المؤمنون .. فما أكثر الذين يتظاهرون بالصالحات ، وأعمال الخير ، وشعائر التعبد ، وقلوبهم خراب من الخير والصلاح والاخلاص لله :

﴿ ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ﴾ . (النساء : ١٤٢)

وليس هو مجرد معرفة ذهنية بحقائق الايمان ، فكم من قوم عرفوا حقائق الايمان ، ولم يؤمنوا :

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا .. ﴾ .

(النمل : ١٤)

وحال الكبر أو الحسد أو حب الدنيا بينهم وبين الايمان بما علموه من بعد ما تبين لهم الحق :

﴿ .. وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ .

(البقرة : ١٤٦)

ان الايمان فى حقيقته ليس مجرد عمل كلامى ، أو عمل بدنى . أو عمل ذهنى .. ان الايمان ـ فى حقيقته ـ عمل نفسى يبلغ أغوار النفس ، ويحيط بجوانبها كلها من ادراك وارادة ووجدان .. فلابد من ادراك ذهنى تنكشف به حقائق الوجود على ما هى عليـه فى الواقع ، وهـذا الانكشاف لا يتم الا عن طريق الوحى الالهى المعصوم .

ولابد أن يبلغ هـذا الادراك العقلى حد الجزم الموقن ، واليقين الجازم ، الذى لا يزلزله شك ولا شبهة :

﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا .. ﴾ .

(الحجرات : ١٥)

ولابد أن يصحب هذه المعرفة الجازمة اذعان قلبى ، وانقياد ارادى ، يتمثل فى الخضوع والطاعة لحكم من آمن به مع الرضا والتسليم :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ . (النساء : ٦٥)

﴿ انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ . (النور : ٥١)

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم .. ﴾ . (الأحزاب : ٣٦)

ولابد أن يتبع تلك المعرفة ، وهذا الاذعان ، حرارة وجدانية قلبية ، تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة ، والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية والجهاد فى سبيلها بالمال والنفس . ولهذا نجد القرآن الكريم يصف المؤمنين فيقول :

﴿ انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا .. ﴾ . (الأنفال : ٢ ـ ٤)

والقرآن الكريم يعرض دائما « الايمان » فى أخلاق حية ، وأعمال ناصعة يتميز بها المؤمنون عن الكفرة والمشركين :

﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ . (المؤمنون : ١ ـ ٥)

وقال تعالى فى وصف المؤمنين الصادقين :

﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون ﴾ .

(الحجرات : ١٥)

« فالايمان » هو تصديق القلب بالله ورسوله .. التصديق الذى لا يشوبه شك أو ارتياب .. التصديق المطمئن الثابت الذى لا يتزعزع ولا يضطرب ، والذى ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله .. وهذا الانطلاق الى الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ، هو انطلاق ذاتى من نفس المؤمن ، يريد أن يحقق به الصورة الوضيئة التى فى قلبه ؛ ليراها ممثلة فى واقع الحياة والناس .

هذه العناصر والمقومات التى ذكرناها هى التى تكون « الايمان الحق » ، أو « العقيدة الحقة » ، واذا فقد بعض هذه العناصر فان ما بقى منها لا يستحق أن يسمى « ايمانا » أو « عقيدة » ..

ويمكن أن تسمى « فكرة » أو « نظرية » أو « رأيا » . أما « الايمان الحق » فهو الذى تشرق شمسه على جوانب النفس كلها ، فتنفذ اليها أشعتها حاملة الضوء والحرارة والحياة .. حيث تنفذ هذه العقيدة الى العقل فتقنعه وتطمئنه ، والى القلب فتهزه وتحركه ، والى الارادة فتدفعها وتوجهها . واذا اقتنع العقل ، وتحرك القلب ، واتجهت

الارادة ، استجابت الجوارح واندفعت للعمل ، واستجابت الرعية للراعى المطاع[1] .

● **محتـــوى الايمـــان :**

لا يكفى أن نعرف حـــد الايمان ومفهومه حتى نعرف محتواه .. فلابد أن نعرف أى ايمان نعنى فى دراستنا هـــذه ..

انه الايمـــان « الدينى » ، الذى صحب البشرية منـــذ نشأتها ، ولم يفارقها فى صباها وشبابها وكهولتها ، ولم يزل سـلطانه مهيمنا على الكثير من تصرفاتها وأعمالها .. انه الايمان الذى يتجسد فى خاتمـة العقائد السماوية ، « عقيدة الاسلام » ، كما أوضحها القرآن الكريم ، وهدى الرسول العظيم ، متمثلة فى الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين والكتب السـماوية .

وهـــذه العقيدة هى التى تحل لغز الوجود ، وتفسر للانسان سر الحياة والموت وتجيب عن أسئلته الخالدة : من أين ؟ والى أين ؟ ولم ؟ ان هـــذه العقيدة ليست من مستحدثات الاسلام .. انها العقيدة الخالصة المصفاة ، التى بعث بها أنبياء الله جميعا ، ونزلت بها كتب السماء قاطبة ، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل . انها الحقائق الخالدة التى لا تتغير ولا تتطور ، عن الله ــ سبحانه ــ وعن صلته بهذا العالم ، وعن حقيقة هـــذه الحياة ودور الانسان فيها وعاقبته بعدها .. انها الحقائق التى علمها آدم لبنيه ، وأعلنها نوح فى قومه ، ودعا اليهـا هود وصالح ، عادا وثمودا ، ونادى بها ابراهيم واسماعيل واسحاق وغيرهم من رسل الله ، وأكدها موسى فى توراته ، وعيسى فى انجيله .

كل ما فعله الاسلام ، هو أنه نقى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة ، وصفاها من الأجســـام الغريبة ، التى أدخلتها العصـــور عليها ، فكدرت صفاءها وأفسدت توحيدها بالتثليث واتخاذ الأرباب من دون الله ، وأفسدت

---

(1) يوسف القرضاوى : الايمان والحياة (ط ٧) . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٠) ، ص ١٥ ــ ١٧

تنزيهها بالتشـبيه والتجسيم ، وشـوهت نظرتها الى الكون والحيـاة والانسان ، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم • كما عرض الاسلام هذه العقيدة عرضا يليق بالرسالة التى اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الالهية •• وأن تكون غاية كل البشر ، الى قيام الساعة •

جاءت عقيدة الاسلام فنقت عقيدة التوحيد وكمال الألوهية مما شابها على مر العصور ، ونقت فكرة النبوة والرسـالة مما عراها من سـوء التصـور •• ونقت فكرة الجزاء الأخروى مما دخل عليهـا من أوهام الجاهلين وتحريف المغالين وانتحال المبطلين ودجل المشعوذين •

والعناصر الأساسية لهـذه العقيدة هى : الايمان بالله ، والايمان بالنبوات ، والايمان بالآخرة •• ويمكن أن نجمل فى الايمان : الايمان بالله واليوم الآخر •• والايمان بالله يشمل : الايمان بوجوده ، والايمان بوحدانيته ، والايمان بكماله ، سـبحانه ••

أولا : وجود الله تعـالى :

لقد قامت الأدلة على أن وراء هذا الكون العظيم قوة عليا تحكمه وتدبر شئونه وتتحكم فيه •• سماها أحدهم « العلة الأولى » ، وسماها غيره « العقل الأول » ، وسماها ثالث « المحرك الأول » ، وسماها أحد الفلاسفة « سوبرمان » ، وسماها القرآن العربى المبين وسـائر الكتب السماوية بهذا الاسم الجامع لصفات الكمال والجمال والجلال « الله » •

فهذه القوة العليا ، وبعبارة أخرى : هذا الاله العظيم ، ليس فى مقدور العقل البشرى ادراك كنهه ، ولا معرفة حقيقته • كيف وقد عجز عن معرفة كنه ذاته ونفسه وحقيقة الحياة وكثير من حقائق الكون المـادية من كهرباء ومغناطيسية وغيرها وما عرف الا آثارها ، فكيف يطمع فى معرفة ذات الله العلى الكبير ؟ قال تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل • لا تدركه الأبصـار وهو يدرك الأبصـار ، وهو اللطيف الخبير ﴾ • (الأنعام : ١٠٢ ـ ١٠٣)

هـذا الاله ليس اله فصيلة محـدودة ، ولا اله شـعب خاص ، ولا اله اقليم معين .. وانمـا هو « رب العالمين » ، « رب السـموات والأرض » ، « رب المشرق والمغرب » :

﴿ قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء .. ﴾ .

(الأنعام : ١٦٤)

وقد دلل القرآن الكريم على وجود الله بطرق عديدة :

ــ فينبه العقـول والأذهان الى ما فى الكون من آيات تنطق بأن وراءها صانعا حكيما ، وهذا احدى البدهيات عنـد العقل الذى يؤمن بمبدأ « السـببية » ايمانا طبيعيا لا يحتاج الى تدليـل ، قال تعالى :

﴿ ان فى خلق السـموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ . (البقرة : ١٦٤)

هذا الخلق لابد له من خالق ، وهذا النظام لابد له من منظم :

﴿ أم خلقوا من غـير شيء أم هم الخالقـون . أم خلقوا السـموات والأرض .. ﴾ . (الطور : ٣٥ ــ ٣٦)

ــ ويستثير الفطرة الانسانية السليمة التى بها يدرك المرء ادراكا مباشرا أن له ربا والها قويا عظيما يكلؤه ويرعاه :

﴿ فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليهـا ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(الروم : ٣٠)

واذا اختنقت هذه الفطرة فى ساعات الرخاء واللهو فانها تعود الى الظهور عند الشـدة والبأسـاء . وسرعان ما يذوب الطلاء الكاذب ، وينكشف المعـدن الأصيل فى النفس البشرية ، فتعود الى ربها داعيـة متضرعة :

﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هـذه لنكونن من الشاكرين ﴾ .
(يونس : ٢٢)

وتبدو هذه الفطرة حين يفاجأ الانسان بالسؤال عن مصدر هـذا الكون ومدبره ، فلا يملك الا أن يعلن قائلا : « الله » :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله .. ﴾ .
(العنكبوت : ٦١)

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فانى تصرفون ﴾ .
(يونس : ٣١ ـ ٣٢)

ويستشهد القرآن الكريم بالتاريخ الانسانى على أن الايمان بالله وبرسله كان سـفينة النجاة لأصحابه ، وأن التكذيب به ورسـله كان نذير الهلاك والبوار .. ففى نوح يقول :

﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، انهم كانوا قوما عمين ﴾ .
(الأعراف : ٦٤)

وفى هـود يقول :

﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين ﴾ .
(الأعراف : ٧٢)

وفى صـالح وقـومه يقول :

﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾ .
(النمل : ٥٢)

وفى رسل الله جميعا يقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم محمـدا صلى الله عليه وسلم :

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ .
(الروم : ٤٧)

ثانيا : انما الله اله واحـد :

فهـو تعالى اله واحـد لا شريك له ، وليس له مثـل فى ذاته أو صفاته . قال تعالى :

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحـد ﴾ . (سورة الاخلاص)

﴿ والهكم إلـه واحـد ، لا اله الا هو الرحمن الرحيم ﴾ .
(البقرة : ١٦٣)

وكل ما فى الكون من ابداع ونظام يدل على أن مبـدعه ومدبره واحد .. ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل مدبر ، وأكثر من يد تنظم ، لاختل نظامه ، وصدق الله تعالى :

﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسـدتا ، فسـبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ . (الأنبياء : ٢٢)

﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ﴾ .
(المؤمنون : ٩١)

وهو تعالى واحد فى ربوبيته .. فهو رب السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن ، فخلق كل شيء وقدره تقديرا ، وأعطى كل شيء خلقـه ثم هدى . ولا يستطيع أحد من خلقه أن يدعى أنه الخـالق أو الرازق أو المدبر لذرة فى السماء أو الأرض :

﴿ وما ينبغى لهم وما يستطيعون ﴾ . (الشعراء : ٢١١)

وهو تعالى واحد فى ألوهيته ، فلا يسـتحق العبـادة الا هو ، ولا يجوز التوجه بخوف أو رجاء الا اليه . فلا خشية الا منه ، ولا ذل الا اليه ، ولا طمع الا فى رحمته ، ولا اعتماد الا عليـه ، ولا انقيـاد الا لحكمه .

والبشر جميعا ــ دون استثناء ــ عباد الله ، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

ومن ثم كانت دعوة الاسلام الى الناس كافة والى أهل الكتاب خاصة :

﴿ تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله .. ﴾ .

(آل عمران : ٦٤)

ومحمد ــ نبى الاسلام ــ لم يقل القرآن عنه الا أنه :

﴿ رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ . (آل عمران : ١٤٤)

ولم يقل هو عن نفسه الا أنه « عبد الله ورسوله » ، وجاء فى الحديث النبوى الشريف :

ــ « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ولكن قولوا عبد الله ورسوله » . (رواه البخارى)

والأنبياء جميعا ليسوا ــ فى نظر القرآن ــ الا بشرا مثلنا ؛ اصطفاهم الله لحمل رسالته الى خلقه ، ودعوتهم الى عبادته وتوحيده . ولهذا كان النداء الأول فى رسالة كل واحد منهم :

﴿ ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ﴾ .

(الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥) و (هود : ٥٠ ، ٦١)

﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

(النحل : ٣٦)

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون ﴾ . (الأنبياء : ٢٥)

وكانت « لا اله الا الله » ايذانا بمولد مجتمع جديد ، يغاير مجتمع الجاهلية .. مجتمع متميز بعقيدته ، متميز بنظامه ، فلا عنصرية فيه ولا طبقية ولا اقليمية ، لأنه ينتمى الى الله وحده ، ولا يعرف الا الولاء له سبحانه .. وقد أدرك زعماء الجاهلية ما تنطوى عليه دعوة

« لا اله الا الله » من تقويض عروشهم والقضاء على جبروتهم واعانة المستضعفين عليهم • فلم يألوا جهدا فى حربها ، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجا •

لقد كانت مصيبة البشرية الكبرى أن أناسا منهم جعلوا من أنفسهم أو جعل منهم قوم آخرون آلهة فى الأرض أو أنصاف آلهة ، لهم يخضع الناس ويخشعون ، ولهم يركعون ويسجدون ، ولهم ينقادون ويستسلمون • ولكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين ، فلم يعد عندهم بشر الها ، أو ابن اله •• ولم يعد بشر يسجد لبشر أو ينحنى لبشر أو يقبل الأرض بين يدى بشر •• وهذا أصل الأخوة الانسانية الحقة ، وأصل الحرية والكرامة الحقة ، اذ لا أخوة بين عابد ومعبود ، ولا حرية لانسان أمام مدعى ألوهية ، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله أو يتخذه حكما من دون الله •

قال أبو موسى الأشعرى[1] : انتهينا الى النجاشى وهو جالس فى مجلسه ، وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس فى صفين منتظمين • وقد قال عمرو وعمارة للنجاشى — وهما مندوبا مشركى مكة الى النجاشى — انهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بادرنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك ، فقال جعفر بن أبى طالب : لا نسجد الا لله !•• فرغم أنهم مهاجرون وغرباء لاجئون ، وهم فى أرض هذا الملك وفى حوزته ، أبوا أن يفرطوا فى توحيدهم لحظة واحدة فيسجدوا لغير الله ، وأعلنها جعفر كلمة أصبحت شعارا لكل مسلم « لا نسجد الا لله » •

ثالثا : كمال الله تعالى :

ولابد مع الايمان بوجود الله ووحدانيته من الايمان بأنه تعالى متصف بكل كمال يليق بذاته الكريمة :

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٥

﴿ لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحــد ﴾ .

(الاخلاص : ٣ ــ ٤)

﴿ .. ليس كمثله شيء ، وهو الســميع البصير ﴾ .

(الشورى : ١١)

فهو سبحانه وتعالى العليم الذى لا يخفى عليه شيء :

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين ﴾ . (الأنعام : ٥٩)

وهــو العزيز الفعال لمــا يريد ، الذى لا يغلبــه شيء ، ولا يقهر ارادته شيء :

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير ﴾ .

(آل عمران : ٢٦)

وهو القــدير الذى لا يعجزه شيء .. يجيب المضــطر اذا دعاه ، ويكشف الســوء ، ويحيى العظــام وهى رميم ، ويعيــد الخلق كمــا بدأهم أول مرة :

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ . (الملك : ١)

وهو الحكيم الذى لا يخلق شيئا عبثا ، ولا يترك شــيئا سدى ، ولا يفعل فعلا أو يشرع شرعا الا لحكم ، عرفهــا من عرفها وجهلها من جهلها . وهــذا ما شــهد به الملائكة فى الملأ الأعلى :

﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم ﴾ .

(البقرة : ٣٢)

وما شهد به أنبياء الله وأولياؤه ، وأولوا الألباب من عباده :

﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هــذا باطلا سبحانك .. ﴾ .

(آل عمران : ١٩١)

وهو الرحيم الذى سبقت رحمته غضبه ، ووسعت رحمته كل شيء ، كما وسـع علمه كل شيء . وقد حكى القرآن الكريم دعاء الملائكة :

﴿ .. ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما .. ﴾ . (غافر : ٧)

وقال :

﴿ .. عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شيء .. ﴾ .
(الأعراف : ١٥٦)

وقد بدأت سور القرآن بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » للدلالة على سعة رحمته وتقوية الرجاء فى قلوب عبـاده ، وان تورطوا فى الذنوب والآثام . قال تعالى :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، أن الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم ﴾ . (الزمر : ٥٣)

فالاله فى الاسلام ليس بمعزل عن هذا الكون بما فيه ومن فيه ، كاله « أرسطو » ، الذى أسماه « المحرك الأول » أو « العلة الأولى » ، ووصفه بصـفات لا فاعليـة لها ولا تأثير .. ان هـذا الاله المعزول عن الكون ، الذى عرفه الفكر اليونانى القديم ، لا يعرفه الاسلام .. وانما يعرف الها :

﴿ خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى . الله لا اله الا هو ، له الأسماء الحسنى ﴾ .
(طـه : ٤ ــ ٨)

﴿ الله لا اله الا هـو الحى القيـوم ، لا تأخـذه سـنة ولا نوم . له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما ، وهو العلى العظيم ﴾ .
(البقرة : ٢٥٥)

الاله فى الاسلام هو خالق كل شىء ، ورازق كل حى ، ومدبر كل أمر ، أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا ، ووسع كل شىء رحمة .. خلق فسوى ، وقدر فهدى ، يسمع ويرى ، ويعلم السر والنجوى :

﴿ .. ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة .. ﴾ . (المجادلة : ٧)

له الخلق والأمر ، وبيده ملكوت كل شىء ، يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويرزق من يشاء بغير حساب .. له ما فى السموات والأرض ملكا وملكا . لا يملك أحد مثقال ذرة فى السموات والأرض . فالشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، والأرض وما عليها ممهدة بقدرته ومسيرة بمشيئته ووفق حكمته .

هو الذى يرسل الرياح لتثير سحابا ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ثم يجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله . وهو الذى سخر الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه ؛ وهو الذى جعل الأرض ذلولا ليمشى الناس فى مناكبها ويأكلوا من رزقه ..

فكل من فى السموات والأرض خلقه وعباده .. الملائكة فى السموات ، والجن والانس فى الأرض ، كلهم فى قبضة قدرته ، وطوع مشيئته : الملائكة جنده المطيعون بفطرتهم :

﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ . (الأنبياء : ٢٧)

﴿ .. لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .
(التحريم : ٦)

والجن والانس ـ وان أعطاهم الحرية والاختيار ـ لا يخرجون

عن مشـيئته وسلطانه ، لا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة ولا نشورا ، ومن تمرد منهم على العبـودية له اليوم فسـوف يعترف بها غـدا :

﴿ ان كل من فى السـموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ .

(مريم : ٩٣ ـ ٩٥)

الكون كله ـ عاليه ودانيه ـ صامته وناطقه ـ خاضع لأمر الله . منقاد لقانون الله ، شاهد بوحدانيته وعظمته ، ناطق بآيات علمه وحكمته ، دائم التسـبيح بحمده :

﴿ تسبح له السموات السـبع والأرض ومن فيهن ، وان من شيء ألا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا ﴾ .

(الاسراء : ٤٤)

ان تسبيح الكون لله ، وسجوده له سبحانه ، حقيقة كبيرة ، عميت عنهـا أعين ، وصـمت عنها آذان ، ولكنها تجلت للذين ينظرون بأعين بصائرهم ويسمعون بآذان قلوبهم ، فاذا هم يرون الكون كله محرابا ، والعوالم كلها سـاجدة خاشعة ، ترتل آيات التسبيح والثناء على الخالق سـبحانه ، الرحمن الرحيم ، العزيز الحكيم :

﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ .

(الرعد : ١٥)

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس .. ﴾ .

(الحج : ١٨)

﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ﴾ .

(الحديد : ١ ـ ٢)

رابعا : الايمــان بالنبــوات :

ان الايمان بالنبوة ليس بالأمر العجيب بعـد الايمان بكمال الله وحكمته ورحمته ورعايته للكون وتدبيره للعالم ، وتكريمه للانسان . بل هذا الايمان فرع من ذلك ولابد ، فما كان الله ليخلق الانســان ويسخر له ما فى الكون جميعا ، ثم يتركه يتخبط على غير هدى .. بل كان من تمام الحكمة أن يهديه سبيل الآخرة كما هداه سبيل الحياة الدنيا ، وأن يهيىء له زاده الروحى كما هيأ له زاده المـادى ، وأن ينزل الوحى من السماء ليحيى به القلوب والعقول ، كما أنزل من السماء ماء لتحيا به الأرض بعد موتها .

ولهذا استنكر رسل الله من قومهم أن يعجبوا لأن الله أرسل عنه رسولا يبلغهم بأمره ونهيه ، فيقول نوح :

﴿ .. يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ .
(الأعراف : ٦١ ـ ٦٣)

ويقول هود لقومه ما يقرب من هذا القول .

ويقول القرآن الكريم ردا على المشركين الجاحدين برسالة محمـد عليه السلام :

﴿ اكان للناس عجبا ان أوحينا الى رجل منهم ان انذر الناس وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون ان هذا لساحر مبين ﴾ . (يونس : ٢)

والهـداية بالوحى هى أعلى مراتب الهـداية التى منحهـا الله للانســان[1] ..

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٠ ـ ٣١

١ ـ **فهناك الهداية الفطرية الكونية** : وهذه الهداية ليست قاصرة على الانسان ، بل تشمل أيضا الحيوان وسائر الكائنات ، وهى التى عبر عنها بالوحى فى شـأن النحل :

« وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون » . (النحل : ٦٨)

بل هى منبثة فى أجزاء الكون كله : فى النبات الذى يمتص غذاءه من عناصر الأرض بنسب محدودة وقـدر معلوم ، وفى الكواكب التى يسـير كل منها فى مداره الذى لا يتعـداه ، وفـق قانون لا يتخطاه :

« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » . (يس : ٤٠)

فهى هداية عامة للمخلوقات ، ولهذا ذكر لنا القرآن الكريم جواب موسى عليه السـلام لفرعون الذى قال :

« فمن ربكما يا موسى . قال ربنـا الذى أعطى كل شىء خلقـه ثم هدى » . (طـه : ٤٩ ـ ٥٠)

وقال تعـالى :

« سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى » . (الأعلى : ١ ـ ٣)

٢ ـ **والمرتبـة الثانيـة للهـداية ـ مرتبة الحـواس الظـاهرة** : كالحواس الخمس ، والباطنة كالاحساس مثل الجوع والعطش والانفعال مثل الفرح والحزن ، وهـذه المرتبـة أرقى من الأولى ، اذ فيها قـدر من الادراك .

٣ ـ **والمرتبة الثالثـة : هـداية العقـل بملكاته وقواه المختلفـة** : وهـذه أرقى مرتبة من الحواس ، وان كان كثيرا ما يعتمد على الحس فى الحكم والاستنباط ، وبذلك يتعرض للخطأ ، كما يتعرض له فى ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج . والعمليات العليا للعقل من الخصـائص التى انفرد بها الانسان عن سائر الكائنات .

٤ ـ **والمرتبة الرابعة : هى هداية الوحى** : وهى التى تصحح خطأ العقل ، وتنفى وهم الحواس ، وترسم الطريق الى ما لا سبيل للعقل أن يصل اليه وحده ، وترفع الخلاف فيما لا يمكن أن تتفق عليه العقول :

﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ . (البقرة : ٢١٣)

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط .. ﴾ . (الحديد : ٢٥)

﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .. ﴾ . (النساء : ١٦٥)

والايمان بالنبوة والرسالة يتضمن فى ثناياه معانى عديدة نلخصها فيما يأتى :

١ ـ فمعناه الايمان بحكمة الله البالغة ، ورحمته الواسعة .. فحكمة الحكيم ورحمة الرحيم هما اللتان اقتضتا ألا يترك الناس سدى ، وألا يعذبوا قبل البلاغ والتبشير والانذار ، وألا يتركوا للخلاف يأكلهم دون حكم يرجعون اليه :

﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ﴾ . (القيامة : ٣٦)

﴿ .. وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ . (الاسراء : ١٥)

﴿ .. فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ . (البقرة : ٢١٣)

٢ ـ ومعناه الايمان بوحدة الدين عند الله ، وأن دين الله فى جميع الأماكن والأزمان واحد لا يتغير ، وان تغيرت المناهج والشرائع باختلاف العصور :

﴿ قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون ﴾ . (البقرة : ١٣٦)

ويصور رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم موقفه من الأنبياء قبله ، أنه ليس الا اللبنة الأخيرة فى هذا الصرح الكبير ، فيقول :

« مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة .. فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

٣ — ومعناه الايمان بمثل عليا انسانية واقعية ، وقدوات بشرية ممتازة ، استطاعت أن تجعل من مكارم الأخلاق وصالح الأعمال وفضائل النفوس ، حقائق واقعة وشخوصا مرئية الناس ، وليست مجرد أفكار أو أمانى أو نظريات . وجمهور الناس ليسوا فلاسفة يؤمنون بالمجردات ، وانما يتأثرون وينفعلون ويؤمنون بما يشاهدون وما يحسون . ولهذا جعل الله الرسل الى الناس بشرا مثلهم ، لا ملائكة من غير جنسهم ، لأن الانسان لا يأنس الا لمثله ولا يقتدى الا بمثله . وقد استبعد المشركون أن يكون الرسول بشرا ، وقالوا منذ عهد نوح :

﴿ .. ولو شاء الله لأنزل ملائكة .. ﴾ . (المؤمنون : ٢٤)

وقالوا فى عهد محمد عليه السلام :

﴿ .. أبعث الله بشرا رسولا ﴾ . (الاسراء : ٩٤)

فرد الله عليهم بقوله :

﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ . (الاسراء : ٩٥)

فالأنبياء ليسوا فى نظر القرآن آلهة ، ولا أنصاف آلهة ، ولا أبناء ملائكة ، انهم بشر مثلنا .. من الله عليهم بنعمة الوحى ، ليبلغوا رسالة الله للناس :

﴿ قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن ناتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ . (ابراهيم : ١١)

خامسا : الايمــان بالآخـــرة :

اتفقت كلمة البشر على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البــدن ، وأنها لا تموت موت فناء ــ أى زوال مطلق ــ وانما الموت المحتوم هو ضرب من الخفــاء ، وان اختلفت منازعهم فى تصــوير ذلك البقاء ، وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه .. هذا الشــعور العام بحياة بعد هذه الحيــاة ، والمنبعث من جميــع الأنفس ، قــديما وحديثا ، لا يمكن أن يعتبر ضلالا عقليا أو نزعة وهمية ، وانما هو من الالهامات التى اختص بها هذا النوع . فكما ألهم الانسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هــذه الحياة الدنيا ، كذلك ألهمت العقول ، وشعرت النفوس ، أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان فى الوجود . بل الانسان ينزع هذا الجسد ، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر ، وان لم يدرك كنهه ..

ولكن كيف يسيغ العقل أن ينفض ســوق هذه الحياة وقــد نهب فيها من نهب ، وسرق فيها من سرق ، وبغى فيها من بغى .. ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه . بل اســتتر واختفى ، فأفلت ونجا ، أو تمكن من اخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت ؟

وفى الجانب الآخر ، كم أحسن قوم ، وضحوا وجاهدوا ، ولم ينالوا جزاء ما قدموا ، اما لأنهم كانوا جنودا مجهولين ، أو لأن الحسـد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم بدل أن يعترفوا بفضلهم ، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمرة ما عملوا من خير . وكم من قوم دعوا الى الحق ، واستمسكوا به ، ودافعوا عنه ، فوقف الظالمون فى طريقهم ، وأوذوا واضطهدوا ، وسقطوا صرعى فى ســبيل الحــق ، وأعــداؤهم الطغاة فى أمن وعافية بل فى ترف ونعيم .

ان العقل الذى يؤمن بعــدالة الاله الواحــد ، يطلب أن توجــد دار أخرى يجزى فيها المحسن باحسانه ، والمسىء باســاءته . وهــذا ما تنطق به الحكمــة الســارية فى كل ذرة من الســموات والأرض :

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين ﴾ .
(الدخان : ٣٨ — ٤٠)

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ . (ص : ٢٧ — ٢٨)

﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ . (النجم : ٣١)

أما بعث الأحياء بعد الموت فليس بعزيز على من خلقهم أول مرة :

﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾ . (الروم : ٢٧)

بهذا الخلق الأول يستدل القرآن على امكان البعث ، كما يستدل عليه بمظاهر قدرة الخالق سبحانه فى عالم النبات :

﴿ يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ .
(الحج : ٥ — ٧)

ويستدل القرآن الكريم على امكان البعث بخلق الأجرام العظيمه فى هذا الكون ، وهى أكبر من خلق الناس وأعظم :

﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى ، وهو الخلاق العليم ﴾ . (يس : ٨١)

« أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بلى ، انه على كل شىء قدير » .

(الأحقاف : ٣٣)

وبعد أن يبعث الناس من قبورهم يكون الحساب الدقيق ، والميزان العادل :

« اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، ان الله سريع الحساب » .

(غافر : ١٧)

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

(الأنبياء : ٤٧)

وهنالك ينقسم العباد الى شقى وسعيد :

« فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ، ان ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ، عطاء غير مجذوذ » .

(هود : ١٠٦ ـ ١٠٨)

* * *

مزايا العقيدة الاسلامية

للعقيدة الاسلامية مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد ، فهى تتميز بما يأتى :

١ ــ أنها عقيدة واضحة :

فهى عقيدة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض ، وتتلخص فى أن وراء هذا العالم البديع المنسق المحكم ربا واحدا خلقه ونظمه ، وقدر كل شىء فيه تقديرا ، وهذا الاله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد :

﴿ .. بل له ما فى السموات والأرض ، كل له قانتون ﴾ .

(البقرة : ١١٦)

وهذه عقيدة واضحة مقبولة .. فالعقل يطلب دائما الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ، ويريد أن يرجع الأشياء دائما الى سبب واحد . فليس فى عقيدة التوحيد ما فى عقائد التثليث ونحوها من الغموض والتعقيد الذى يعتمد على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين « اعتقد وأنت أعمى » .

٢ ــ أنها عقيدة الفطرة :

فهى عقيدة ليست غريبة على الفطرة أو متناقضة معها ، بل هى منطبقة عليها تمام الانطباق . وهذا هو صريح القرآن الكريم :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(الروم : ٣٠)

وكذا صريح الحديث النبوى الشريف : « كل مولود يولد على الفطرة ــ أى على الاسلام ــ وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . (متفق عليه) ، فدل على أن الاسلام هو فطرة الله ، فلا يحتاج الى تأثير من الوالدين[1] .

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٧

٣ ـ أنها عقيدة ثابتة :

فهى عقيدة ثابتة محددة ، لا تقبل الزيادة أو النقصان ، ولا التحريف أو التبديل • فليس لحاكم من الحكام ، أو مجمع من المجامع العلمية أو غيرها ، أن يضيف اليها أو يحور فيها ، وكل اضافة أو تحوير مردودة على صاحبها • والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد ــ أى مردود عليه » (متفق عليه) •

والقرآن الكريم يقول مستنكرا :

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله .. ﴾ •

(الشورى : ٢١)

٤ ـ أنها عقيدة مبرهنة :

فهى لا تكتفى فى تقرير قضاياها بالالزام المجرد والتكليف الصارم ، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى : « اعتقد وأنت أعمى » أو « أغمض عينيك ثم اتبعنى » ، بل يقول الكتاب الكريم :

﴿ .. قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ﴾ • (البقرة : ١١١)

وكذلك لا تكتفى بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليهما أساسا من أجل الاعتقاد ، بل تتبع قضاياها بالحجة الدامغة ، والبرهان الناصع ، والتحليل الواضح المقنع ، الذى يملك زمام العقول ، ويأخذ طريقه الى القلوب .. فنرى القرآن الكريم فى قضية الألوهية ، يقيم الأدلة من الكون الذى نعيش فيه ومن النفس ومن الأحداث التاريخية ، على وجود الله سبحانه ، وعلى وحدانيته وعظمته وكماله .. وفى قضية البعث ، يدلل على امكانه بخلق الانسان أول مرة ، وخلق السموات والأرض ، واحياء الأرض بعد موتها • ويدلل على حكمته بالعدالة الالهية فى اثابة المحسن ، وعقوبة المسىء :

﴿ .. ليجزى الذين اساءوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى ﴾ •

(النجم : ٣١)

٥ ـ عقيدة وسـط :

(أ) فهى عقيدة وسط لا تجد فيها افراطا ولا تفريطا :

فهى وسط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل اليه حواسهم ، وبين الذين يحاولون أن يثبتوا للعالم أكثر من اله أو يحلون روح الاله فى الملوك والحكام أو فى بعض الحيوانات .. فقد رفضت الانكار الملحد ، كما رفضت التعديد الجاهل ، والاشراك الغافل ، وأثبتت للعالم الها واحدا ، لا اله الا هو :

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ، ان كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل فلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله ، قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ، ان كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل فانى تسحرون ﴾ .

(المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٩)

(ب) وهى عقيدة وسط فى صفات الاله :

فليس فيها الغلو فى التجريد ، الذى يجعل صفات الاله مجرد أسلوب لا تعطى معنى ، ولا توحى بخوف أو رجاء ، كما فعلت الفلسفة اليونانية .. ويقابل هذا أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذى وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية ، حيث جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس ، ووصفته بالتحيز والمحاباة والقسوة ، وغير ذلك مما لا يتفق مع عظمته وجلاله سبحانه ..

ولكن عقيدة الاسلام تقرر تنزيه الخالق ـ سبحانه ـ عن مشابهة مخلوقاته ، قال تعالى :

﴿ ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير ﴾ . (الشورى : ١١)

﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ . (الاخلاص : ٤)

ومع هذا تصفه ـ تفصيلا ـ بصفات ايجابية فعالة :

﴿ الله لا اله الا هو ، الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه ، يعلم ما بين

أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما ، وهو العلى العظيم ﴾ .
(البقرة : ٢٥٥)

﴿ ان بطش ربك لشديد . انه هو يبدئ ويعيد . وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد . فعال لما يريد ﴾ (البروج : ١٢ – ١٦)

وهى مع هذا تفتح الباب للنظر فى الكون والتفكر فيه ، قال تعالى:

﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ . (يونس : ١٠١)

﴿ أو لم يتفكروا فى أنفسهم .. ﴾ . (الروم : ٨)

﴿ وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ﴾ .
(الذاريات ٢٠ – ٢١)

وهى وسط فى علاقتها بالعقائد الأخرى ، فلا تقبل الذوبان فى غيرها ، بل تدعو فى قوة الى الثبات عليها والاستمساك بها :

﴿ فتوكل على الله ، انك على الحق المبين ﴾ . (النمل : ٧٩)

﴿ فاستمسك بالذى أوحى اليك ، انك على صراط مستقيم ﴾ .
(الزخرف : ٤٣)

ولكنها لا تتعصب ضد غيرها من العقائد السماوية ، قال تعالى :

﴿ .. الله ربنا وربكم ، لنا اعمالنا ولكم اعمالكم .. ﴾ .
(الشورى : ١٥)

بل يتسع صدرها لما يخالفها ، قال تعالى :

﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ . (الكافرون : ٦)

﴿ .. لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وانا برىء مما تعملون ﴾ . (يونس : ٤١)

والعقيدة الاسلامية تهيب بأصحابها أن يدعوا اليها ، قال تعالى :

﴿ ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ﴾ . (فصلت : ٣٣)

ولكنها لا ترضى باكراه أحد على اعتناقها ، قال تعالى :

﴿ لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى .. ﴾ .

(البقرة : ٢٥٦)

ولا تقبل التهاون فى هوادة من يحاربونها ويضعون العراقيل فى سبيلها ، وان كانوا من ذوى القربى :

﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم .. ﴾ .

(المجادلة : ٢٢)

ولكنها لا تقبض يد البر والمعونة عمن يخالفها ولا يعتدى على أهلها ، قال تعالى :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين ﴾ .

(الممتحنة : ٨)

ولقد رفضت عقيدة الاسلام الظن فى أصول العقيدة ، فضلا عن الشك أو الوهم ، قال تعالى :

﴿ وما يتبع أكثرهم الا ظنا ، ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ .

(يونس : ٣٦)

﴿ وما لهم به من علم ، ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ . (النجم : ٢٨)

ومع هذا تسامحت فى الخواطر التى لا يسلم منها العقل البشرى ، بل اعتبرتها أحيانا دليل يقظة العقل ، ومظنة الطمأنينة وعلم اليقين . قال بعض الصحابة[1] : « انا نجد فى أنفسنا ما لو أن تصير حمما — فحما محترقا — أهون من أن نتكلم به » — يعلنون خطرات ترد عليهم

(١) المرجع السابق : ص ٤٢

فى قضايا الألوهية ــ فقال النبى فى صراحة وقوة « أو قد وجدتموه ؟ ذاك صريح الايمان » .

انها وسوسة الشيطان سرعان ما يطردها الهام الملك فى قلب المؤمن . أنها طيف يلوح ثم يختفى ، وهاجس يهجس ثم يزول باسلام الوجه لله والاعتصام بهداه وتلاوة آياته :

﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم ﴾ .
(آل عمران : ١٠١)

﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، والى الله عاقبة الأمور ﴾ . (لقمان : ٢٢)

وهى وسط فى أمر النبوة ، فلم ترفع الأنبياء الى مقام الألوهية ، فيتجه الناس اليهم بالعبادة أو الاستعانة مع الله ، كما اعتقد أهل الملل فى أنبيائهم ولم تنزل بهم الى منزلة السفلة من الناس ، كما رأيها فى وصف أسفار العهد القديم للأنبياء .. انما الأنبياء فى عقيدة الاسلام بشر أصفياء ، علم الله طيب معادنهم وحسن استعدادهم ، فأنزل وحيه عليهم :

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ . (الأنعام : ١٢٤)

وجعلهم أسوة لأتباعهم وعصمهم من قبائح الذنوب ودنىء الأعمال ، حتى يتوجه اليهم وعيد الله :

﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون ﴾ . (البقرة : ٤٤)

وهى عقيدة وسط فى قضية الارادة الانسانية ، قضية الجبر والاختيار ، تلك القضية التى حار العقل البشرى فى الوصول الى رأى فيها ، وتنازع فيها الفلاسفة والعلماء فى مجالات علم النفس والتربية .

عقيدة الاسلام فى هذا هى العقيدة الوسط المطابقة للفطرة السليمة والواقع المشاهد .. فالانسان فى دائرة أعماله الاختيارية ــ حر مسئول

عن نفسه وعمله ــ وله أن يفعل وأن يترك ، أن يقدم وأن يحجم ــ كما تشهد بذلك بديهته واحساسه ، وكما تشهد نصوص القرآن الكريم :

﴿ فمن شـاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ . (الكهف : ٢٩)

﴿ ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ﴾ .
(المزمل : ١٩)

﴿ من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ﴾ . (الجاثية : ١٥)

﴿ لا تكلف نفس الا وسعها ﴾ . (البقرة : ٢٣٣)

الى غير ذلك من مئات الآيات التى تقرر حرية الانسـان ومسئوليته عن عمله .

ولم يكتف القرآن بهـذا القدر الايجابى ، ولكنه حمل بقوة على الجبريين الذين يلقون بشركهم وأوزارهم على كاهل القـدر ، محتجين بمشـيئة الله ، فقال تعالى :

﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون ﴾ .
(الأنعام : ١٤٨)

﴿ وقال الذين أشركوا لو شـاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسـل الا البلاغ المبين ﴾ . (النحل : ٣٥)

﴿ واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، ان أنتم الا فى ضلال مبين ﴾ .
(يس : ٤٧)

ولكن الانسـان ــ كما هو الواقع ــ ليس مطلق الارادة ، كامل الاختيار ، بحيث يفعل كل ما يشاء ، وينفذ كل ما يريد ، ولو فعل لكان

الها •• ولن يستطيع أحد ـ مهما بلغ من الانتصار للحرية الانسانية ـ أن ينكر هـذه المحدودية لارادة البشر ، فقد حكموا فيه الوراثة أو البيئة أو كليهما •• هـذه الحقيقة المتفق عليها قررها الاسلام فى صورة أشرف وأكرم للانسان ، فهو حر الاختيار فى دائرة ما رسم الله للوجود من سنن ، يجريها بعلمه وحكمته ومشيئته على أجزاء الكون كله ، ومنها هذا الانسان ، فهو حر لأن الله أراد له الحرية ، أو هو يشاء لأن الله هو الذى قدر له أن يشاء :

﴿ وما تشاءون الا أن يشاء الله ﴾ • (الانسان : ٣٠)

فالقرآن ـ بجانب ما يقرره من حرية الارادة الانسانية ـ يذكر الجانب الآخر ، جانب الارادة الالهية النافذة ، والقدرة الالهية القاهرة :

﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ﴾ • (يونس : ٩٩)

﴿ ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا • الا أن يشاء الله ﴾ •
(الكهف : ٢٣ ، ٢٤)

﴿ ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ • (الاسراء : ٣٠)

﴿ يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ • (فاطر : ٨)

﴿ •• قل كل من عند الله ﴾ • (النساء : ٧٨)

والقرآن قد أدى للحقيقة حقها من كل جوانبها ، فلم يغمط الألوهية حقها ، كما لم يعد بالانسان قدره ، وكان بشموله واتساع نظرته كتاب العالم كله وكتاب الزمن كله ••

فالقرآن موجه الى الانسانية المتطورة ، السائرة فى تطورها نحو الكمال والفكر ونحو النظرة الموحدة •

* * *

الفصل الثانى

أثر الايمان فى حياة الفرد

هل نستطيع أن نحدد أهم ما يريده الفرد لنفسه ، وما ينشده فى حياته ؟ وما الذى تتطلع اليه نفسه ، ويسعى جاهدا لتحقيقه من الأهداف الكبيرة والغايات بعيدة المدى ؟

اننا نستطيع أن نحدد ذلك اذا نظرنا الى أنفسنا والى البشر من حولنا ، واستقراء أحوال البشر فى تاريخهم القريب والبعيد .. نستطيع أن نحدد ذلك اذا نظرنا الى الفرد كانسان سوى ، أى الانسان السليم وليس المختل المضطرب المشوش .

ان الفرد يريد أن يشعر بانسانيته ، ويحيا بخصائصها . يريد أن يحس بكرامته وذاتيته وأن له قيمة فى هـذا الوجود ، وأن لوجوده غاية ولحياته رسالة ، وأنه مخلوق متميز عن الكائنات الأخرى ، وأنه لم يخلق فى هـذه الأرض عبثا ، ولا أعطى العقل وعلم البيان اعتباطا .

فالفرد ينشـد الكرامة ، وينشـد معها القوة تجاه الطبيعة وتجاه الأحداث ، القوة أمام طغيان الغير وأمام شهوات النفس ، على حد سواء ، القوة على تحقيق الغايات وأداء الواجبات : القوة التى تعوض الفرد عن ضعفه الجسدى وعجزه الخلقى وقصوره الذاتى ، ازاء الأقدار ، وازاء

الموت ، وازاء المجتمع بقواه الكبيرة المتعددة المتنوعة .

وهو ـ مع هـذا ـ ينشد شـيئا آخر ، يلهث الناس جميعا فى البحث عنه : انه ينشد السعادة ، ينشدها فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .. يريد أن يعيش حياته ناعما بسكينة النفس وطمأنينة القلب يريد أن يتمتع بالأمن الداخلى يغمر جوانحه ، وبالرضا الذاتى يملأ عليه اطار روحه ،

وبالأمل المشرق يضيء له آفاق حياته ، وبالحب الكبير يغمر بالنور والضياء كل حناياه وكل جوانب دنياه .

هـذه هى أهم وأعظم ما ينشده الانسان السوى لنفسه ولكل من يحب من أهله وعشيرته ومن الناس .

أما الذين يريدون أن يعيشوا كالذئاب ، تعدو وتسطو وتتسلط على غيرها بمنطق القوة والسيطرة ، فليسوا مقياسا لكل البشر .. ومع هـذا لا يبعد أن يفيق أحدهم أو يصحو ، ليفتش عن نفسه : أين هى ؟ وعن ذاته : ما هو ؟ ويبحث مع البشر الأسوياء عن الكرامة والقوة . عن السعادة والسكينة ، عن المعانى الانسانية الرفيعة ، التى بدونها لا يجد الانسان ذاته ولا يتذوق لحياته طعما ، ولا يشعر لوجوده بمعنى أو قيمة .

فهل للايمان أثر فى تحقيق هـذه المعانى الكبيرة ، والأهداف العميقة فى حياة الفرد ؟ هـذا ما سنحاول الاجابة عنه فى الفقرات التالية باذن الله .

١ ــ الايمان وكرامة الانسان :

قال تعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . (الاسراء : ٧٠)

ان الانسان فى نظر المؤمنين مخلوق كريم على الله ، خلقه ربه فى أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وميزه بالعلم والارادة ، وجعله خليفته فى الأرض ، ومحور النشاط فى الكون ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ؛ فكل ما فى الكون له ولخدمته ــ أما هو فجعله تعالى لنفسه .

يقول الله تعالى فى بعض الآثار الالهية : « ابن آدم ، خلقتك لنفسى ، وخلقت كل شيء لك ، فبحقى عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له .

ابن آدم ، خلقتك لنفسى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب .
ابن آدم ، اطلبنى تجدنى ، فان وجدتنى وجدت كل شىء ، وان فتنى فاتك كل شىء . وأنا أحب اليك من كل شىء »[1] .

حقا ان الانسان شىء ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه . ولكنه من حيث روحه وكيانه المعنوى شىء كبير ، وهل الانسان فى الحقيقة الا ذلك الروح وذلك الكيان المعنوى ؟

حقا ان الانسان من حيث عمره القصير على الأرض ذرة فى صحراء الأزمنة الجيولوجية البعيدة الضاربة فى أغوار القدم . ولكن المؤمنين يوقنون أن الموت ليس نهاية الانسان ، انه محطة انتقال الى الأبد الذى لا نهاية له ، الى دار الخلود .. الى حيث يقال للمؤمنين :

﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ . (الزمر : ٧٣)

واذا كانت هذه كرامة الانسان فى نظر الدين عامة ، فله فى الاسلام خاصة مكان أى مكان . تحدث القرآن عن الانسان فى مئات من آياته . وحسبنا أن أول فوج من آيات الوحى الالهى نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم كانت خمس آيات لم تغفل شأن الانسان وعلاقته بربه ــ علاقة الخلق والتكريم ، علاقة الهداية والتعليم ، واختارت الآيات لفظ « الرب » لما يشعر به من التربية والترقية فى مدارج الكمال، هذه الآيات الأولى فى القرآن هى قوله تعالى :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم ﴾ (العلق : ١ ــ ٥)

وفى آيات كثيرة من سور شتى ، أوضح القرآن قرب الانسان من الله وقرب الله من الانسان ، ذلك القرب الذى حطم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان ، الذين جعلوا من أنفسهم « حجابا » على « أبواب » رحمة الله الواسعة ، والله يعلم انهم كاذبون . قال تعالى :

﴿ واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ﴾ (البقرة : ١٨٦)

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٣

● الانسان فى نظر المؤمنين :

ان الانسان فى نظر المؤمنين مخلوق كريم على الله ، خلقه ربه فى أحسن تقويم ، ونفخ فيـــه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وميزه بالعلم والارادة ، وجعله خليفته فى الأرض ، ومحور النشـــاط فى الكون . وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنه ، فكل ما فى الكون له ولخدمته ، أما هو فجعله تعالى لنفسه .

وفى آيات كثيرة من سور شتى ، بين القرآن قرب الانسان من الله وقرب الله من الانسان قال تعالى :

﴿ ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ .
(البقرة : ١١٥)

﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ﴾ . (ق : ١٦)

﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا .. ﴾ (المجادلة : ٧)

ويؤكد رســـول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى فى أحاديثـــه عن ربه :

« أنا عند حسن ظن عبدى بى وأنا معـــه اذا ذكرنى : اذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى . وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وان تقرب الى شبرا تقربت اليـــه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ، وان أتانى يمشى أتيته هرولة » . (رواه البخارى)

... هذه مكانة الانسان عند الله .

● مكانة الانسان فى الملأ الأعلى :

أما مكانته فى الملأ الأعلى ــ عند العوالم الروحية العلوية ــ فهى مكانة اشرأبت اليها أعناق الملائكة المقربين ، وتطاولت اليها نفوســـهم

فما أوتوها . فان الذى اختاره الله لهذه المكانة ــ خلافة الله فى الأرض ــ هو الانســان :

﴿ واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا اتجعل فيها من يفســد فيها ويســفك الدماء ونحن نســبح بحمدك ونقدس لك ، قال : انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأســماء كلها ثم عرضــهم على الملائكة فقال انبئونى بأســماء هؤلاء ان كنتم صــادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم انبئهم بأســمائهم ، فلما أنبأهم بأســمائهم قال : ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

(البقرة : ٣٠ ــ ٣٣)

وقد أراد الله أن يكرم هذا النوع من المخلوقات ويحتفى به ، ويظهر مكانه فى تلك العوالم الروحيــة ، فأمر الملائكة أن تؤدى التحيــة لهذا الكائن الجديد . وتستقبله بانحناءة اجلال واكبار . قال تعالى :

﴿ اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ســاجدين . فســجد الملائكة كلهم أجمعــون . الا ابليس .. ﴾ .

(ص : ٧١ ــ ٧٤)

لقد تمرد ابليس على أمر ربه بالتحية لهذا الانسان ، ودفعه الحسد والغرور أن أبى واستكبر وكان من الكافرين . واتخذ من الانســان موقف التحدى والعداء ، فماذا كانت عاقبة هذا العدوان المبين ؟ كانت كما ذكر القرآن الكريم :

﴿ فاخرج منها فانك رجيم . وان عليك لعنتى الى يوم الدين ﴾ .

(ص : ٧٧ ــ ٧٨)

وتلك هى مكانة الانسان فى العوالم الروحية .

● مكانة الانسان فى هذا العالم المــادى :

أما مركز الانسان فى هذا الكون المــادى ، فهو مركز الســيد المتصرف الذى سخر كل ما فى هــذا العالم لنفعه ولاصــلاح أمره ، قال تعالى :

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ .

(ابراهيم : ٣٢ ـ ٣٤)

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ . (الاسراء : ٧٠)

﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه . ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

(الجاثية : ١٢ ، ١٣)

﴿ الم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ . (لقمان : ٢٠)

وتلك هى مكانة الانسان فى هذا الكون وصلته بما فيه :

وما الذى بوأ الانسان هذه المكانة السامقة وفى الكون أجرام أضخم منه وأكبر ؟

انه سر القبس الذى هو فيه من نور الله ، والنفخة التى فيه من روح الله . تلك النفخة التى جعلته مستعدا للخلافة فى الأرض ، مستعدا لحمل الأمانة الكبرى .. أمانة التكليف والمسئولية ، تلك التى صورها القرآن تصويرا أدبيا رائعا حين قال :

﴿ انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ﴾ . (الأحزاب : ٧٢)

هذا الاستعداد فى الانسان هو الذى جعل مصيره بيده ـ بعد أن يسر الله له سبل الهداية :

﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ﴾ . (القيامة : ١٤)

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شـــاء فليكفر ﴾ . (الكهف : ٢٩)

﴿ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ .

(الشمس : ٩ ، ١٠)

﴿ ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وان أسأتم فلها ﴾ .

(الاسراء : ٧)

لقد سما الاسلام بالانسان فاعترف به كله ، روحه وجسده وعقله وقلبه ، ارادته ووجدانه ، غرائزه الهابطة وأشواقه الصاعدة .. لم يضع فى عنقه غلا ، ولا فى رجله قيـــدا ، ولم يحرم عليـــه طيبا ، ولم يغلق فى وجهه باب خير ، ولم يدعه للمتاجرين بالدين يتلاعبون به ، بل خاطبه خطابا مباشرا :

﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك. فى أى صـــورة ما شاء ركبك ﴾ . (الانفطار : ٦ - ٨)

﴿ يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه ﴾ .

(الانشقاق : ٦)

هذه صورة سريعة واضحة التقاسيم لمكانة الانســـان كما رســـمها القرآن الكريم ، وقد أشاد بهذه المكانة الانسانية كل أئمة الاســـلام وعلمائه فى مختلف البيئات والاختصاصات .

يقول الفقيه أبو بكر بن العربى : « ليس لله تعالى خلق أحســـن من الانسان ، فان الله تعالى خلقه حيا عالمـــا ، قادرا ، متكلما ، ســـميعا بصيرا ، مدبرا ، حكيما »[1] .

ويقول الامام ابن القيم[2] : « اعلم ان الله سبحانه وتعالى اختص نوع الانسان من بين خلقه بأن كرمه وفضـــله وشرفه ، وخلقه لنفســـه

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٧

(٢) ابن القيم : مدارج السالكين - جـ ١ - مطبعة السنة المحمدية ، ص ٢١٠

وخلق له كل شيء ، وخصه من معرفته ومحبته وقربه واكرامه بما لم يعطه غيره ، وسخر له فى سماواته وأرضه وما بينهما ، حتى ملائكته ــ الذين هم أقل قربة ــ استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته .. وأنزل اليه وعليه كتبه ، وأرسله وأرسل اليه ، وخاطبه وكلمه منه واليه .. فللانسان شأن ليس لسائر المخلوقات » .

● **عزة الايمان بعد عزة الانسانية :**

هذه هى معانى الكرامة والعزة التى تغرسها العقيدة فى قلب المؤمن باعتباره « انسانا » ، ولكنه بوصفه « مؤمنا » يشعر بمعان أعمق ، وعزة أشمخ ، ويسمو به ايمانه الى سماء عالية لا يطار لها على جناح ولا يسعى اليها على قدم .

وهو بوصفه عضوا فى أمة الايمان ــ يشعر بكرامة أكبر وعزة أخرى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .. ﴾ . (آل عمران : ١١٠)

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس .. ﴾ .
(البقرة : ١٤٣)

﴿ هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ .
(الحج : ٧٨)

يشعر المؤمن بالعزة التى سجلها الله فى كتابه للمؤمنين مقرونة بالعزة لنفسه ولرسوله :

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .. ﴾ . (المنافقون : ٨)

ويشعر بأنه كتب له الكرامة والحرية التى بها يعلو ولا يعلى عليه ، ويسود ولا يساد :

﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ .
(النساء : ١٤١)

ويشعر أنه فى ولاية الله البر الكريم ، ولاية المعونة والنصرة ، والرعاية والهداية :

﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ .

(محمد : ١١)

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات ﴾ .

(البقرة : ٢٥٧)

يشعر المؤمن أنه فى معية الله الذى يكلؤه دوما بعينه التى لا تنام ، ويحرسه فى كنفه الذى لا يرام ، ويمده بنصره الذى لا يقهر :

﴿ .. وأن الله مع المؤمنين ﴾ . (الأنفال : ١٩)

﴿ .. وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ . (الروم : ٤٧)

﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين ﴾

(يونس : ١٠٣)

ويشعر المؤمن أنه فى حماية الله القوى القدير ، يذود عنه ، ويرد عن صدره سهام الكائدين والمعتدين :

﴿ ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ .

(الحج : ٣٨)

والقرآن يجعل المؤمنين مقياسا لصلاح الأعمال أو فسادها ، فحكمهم عند الله معتبر ، ورؤيتهم للأعمال مقرونة برؤية الله ورسوله :

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون .. ﴾ .

(التوبة : ١٠٥)

واذا كانت هذه الآية توحى بأن رضا المؤمنين من رضا الله ، فان مقتهم أيضا من مقت الله سبحانه :

﴿ .. كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا .. ﴾ . (غافر : ٣٥)

ان هذه المعانى الكبيرة ، والمشاعر الرفيعة ، اذا سرت فى كيـان فرد جعلت منه انسانا عزيزا كريما ، كبير النفس ، وطيد الآمال ، انسانا لا يحنى رأسه لمخلوق ، ولا يطأطىء رقبته لجبروت أو طغيان أو جاه ، شعاره هذه الكلمة : « سيد فى الكون ، عبد الله وحده » .

لا عجب بعد هذا ، اذا رأينا عبدا أسـود كبلال بن رباح ، حين يشرب قلبه الايمان ، يتيه على « السادة » المتكبرين فخرا ، ويرفع رأسه عاليا ، فقد صار بالايمان أرفع عند الله ذكرا وأسمى مقـاما ، ينظر الى « أمية بن خلف » و « أبى جهل » وغيرهما من زعماء قريش وصناديد مكة ، نظرة البصير للأعمى ، نظرة السائر فى النور الى المتخبط فى الدجى:

﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ . (الأنعام : ١٢٢)

﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سـويا على صراط مسـتقيم ﴾ . (الملك : ٢٢)

● منزلة الانســان :

فالعقيدة الاسلامية قد حددت منزلة الانسان فى هذا الكون منـذ قال تعالى للملائكة :

﴿ انى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ . (البقرة : ٣٠)

كما ذكرنا من قبل ، فهو نوع منفرد من مخلوقات الله ليس بجماد ولا نبات ولا بحيوان ، ولا بملاك ولا بشيطان . انه مخلوق مكرم فريد مسـئول ، لا يقوم وحده فى هـذا العالم ، بل يقوم بارادة رب أوجده وقدره . اله خلقه فى أحسن تقويم ، وعلمه البيان ، ووهب له السـمع والبصر والفؤاد ، ليس الانسان عبدا ولا مقهورا لشىء فى هذا الكون ، الا انه عبد الله وحـده .

هذا فى عقيدة الاسلام ، أما النظرة المـادية فلم تنظر للانسـان على أنه مخلوق كريم أوجده خالق عظيم . كلا ، بل هو نبات (شيطانى) برز من العدم الى الوجود وحده ، يعيش وحده ، ويموت وحده ، وبموته تختم روايته كلها .

ان هذه النظرة المـادية للانسان أنتجت شعورين مختلفين :

الأول : شعور الانسان بالتفاهة والضياع ونظرته الى نفسه نظرة حيوانية بحتة .

والثاني : شعور الغرور والكبر ، ذلك الشعور الذى ينتهى بالانسان الى حد تأليه نفسه حين يسقط وجود الاله الحق من اعتباره ، ويتصرف وكأنه اله لا يسأل عما يفعل .

● غاية الانسـان :

ان غاية الانسان ومهمته فى الحياة قد أوضحتها عقيدة الاسلام . فالانسان لم يخلق عبثا ، ولم يترك سـدى ، وانما خلق لغاية وحكمة . لم يخلق لنفسه ، ولم يخلق ليكون عبدا لعنصر من عناصر الكون ، ولم يخلق ليتمتع كما تتمتع الأنعام ، ولم يخلق ليعيش هذه السنين التى تقصر أو تطول ، ثم يبلعه التراب ويأكله الدود ويطويه العدم .

انه خلق ليعرف الله ويعبده ، ويكون خليفة فى أرضـه .. خلق ليحمل الأمانة الكبرى فى هـذه الحيـاة القصـيرة : أمانة التكليف والمسئولية ، فيصهره الابتلاء وتصقله التكاليف ، وبذلك ينضج ويعـد لحياة أخرى هى حياة الخلود والبقاء والأبد الذى لا ينقطع .

انه لنبأ عظيم حقا أن يكون هذا الانسان لم يخلق لنفسه ، وانما خلق للحياة الخالدة الباقية ، خلق للأبد !

لقال المـاديون : « ان الانسان يعيش لنفسه ومتاع دنياه » .

أما المؤمنون فقالوا : « انما يعيش الانسان لربه الأعلى ، ولحياته الباقية الأخرى » .

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق ﴾ . (المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦)

ما أعظم الفرق بين الذى يعيش لنفسه والذى يعيش لربه ، بين من

يعيش لدنياه المحدودة ومن يعيش لوجود غير محدود بزمان ولا مكان ! وحسبنا قول القرآن الكريم :

﴿ **والذين كفروا يتمتعون وياكلون كما تاكل الانعام والنار مثوى لهم** ﴾
(محمد : ١٢)

٢ - الايمان والسعادة :

السعادة هى جنة الأحلام التى ينشدها كل انسان - من الفيلسوف فى قمة تفكيره وتجريده ، الى العامى فى قاع سذاجته وبساطته ، ومن الملك فى قصره المنيف ، الى الصعلوك فى كوخه الصغير . ولا نحسب أحدا يبحث عن الشقاء لنفسه ، أو يرضى بتعاستها .

ولكن السؤال الذى حير الناس من قديم هو : أين السعادة ؟

لقد طلبها الأكثرون فى غير موضعها ، فعادوا صفر اليدين ، مجهودى البدن ، خائبى الرجاء !

أجل جرب الناس فى شتى العصور ألوان المتع المادية ، وصنوف الشهوات الحسية ، فما وجدوها - وحدها - تحقق السعادة أبدا ، وربما زادتهم - مع كل جديد منها - هما جديدا .

● **هل السعادة فى النعيم المادى ؟**

لقد ظن ذلك قوم ، فحسبوا السعادة فى الغنى ، وفى رخاء العيش، ووفرة النعيم ، ورفاهية الحياة ، ولكن البلاد التى ارتفع فيها مستوى المعيشة ، وتيسرت فيها لأبنائها مطالب الحياة المادية وكماليات عديدة ، لا تزال تشكو من تعاسة الحياة ، وتحس بالضيق والانقباض ، وتبحث عن طريق آخر للسعادة .

ان ما يخص الفرد فى السويد من الدخل القومى يساوى حوالى ٥٠ جنيها شهريا . ووصل نظام الحكم الاشتراكى هناك الى ما يقارب محو الفروق تماما بين الطبقات ، يفرض الضرائب التصاعدية وايجاد مختلف التأمينات الصحية والاجتماعية ، التى لا تجدها دول أخرى .

والتعليم فى جميع مراحله بالمجان مع تقديم اعانات للطلاب . وتقدم الدولة هناك قروضا ميسرة للشباب فى بداية حياتهم الزوجية لتأثيث المنازل .

ومع هذه الضمانات كلها ، فقد اتضح أن الناس هناك يحيون حياة قلقة مضطربة ، كلها ضيق وتوتر وشكوى وسخط ، وتبرم ويأس . ونتيجة هذا أن يهرب الناس من هذه الحياة الشقية النكدة ، عن طريق « الانتحار » الذى يلجأ اليه الألوف من الناس ، تخلصا مما يعانونه من عذاب نفسى أليم .

وينطبق نفس القول على أمريكا ، وهى أغنى بلاد العالم ، فالحياة فى أكبر مدنها غطاء جميل لحالة من التعاسة والشقاء .

فكثرة المال ليست هى السعادة ، ولا العنصر الأول فى تحقيقها ، بل ربما كانت كثرة المال أحيانا وبالا على صاحبها فى الدنيا قبل الآخرة — ولذا قال الله تعالى فى شأن قوم من المنافقين :

﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا اولادهم ، انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ﴾ . (التوبة : ٥٥)

وفى الحديث النبوى الشريف ما يفيد هذا المعنى : روى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة . ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته فى الدنيا الا ما قدر له » .

والفيلسوف البريطانى المعاصر « برتراندراسل »[1] — رغم نظرته المادية — يقرر أن الانسان فى صراعه مع الطبيعة قد انتصر بواسطة العلم . أما فى صراعه مع نفسه ، فلم يحرز نصرا ، ولم يجده سلاح العلم ، ويعترف بأن الدين لم يزل هو صاحب هذا الميدان .

---

(١) المرجع السابق : ص ٧٢

والواقع أنه يوجد الآن فى ميدان من ميادين العلم من الظواهر ما يؤجج شعلة ذلك الضلال ، ونعنى به تعظيم شأن الفكر ، ومع ذلك كان علماء النفس هم الذين توصلوا الى أن الاعتماد المطلق على التفكير فحسب كفيل بهدم سعادة الانسان وان لم يقوض دعائم نجاحه ، ثم أن اماطة اللثام عن هذا الكشف لم تتم الا من خلال تجارب العلماء واختباراتهم العلمية التى أجروها على الآلاف .. بقى أن نقول : ان الوصول الى هذه المكتشفات قد تم بالنسبة لعلاقتها بطرق التعليم والدين ، والشخصية ، وفلسفة الحياة عموما[1] .

● **السعادة فى داخل الانسان :**

السعادة اذن ليست فى وفرة المال ، ولا سطوة الجاه ، ولا كثرة الولد ، ولا نيل المنفعة ، ولا فى العلم المادى . فالسعادة شىء معنوى لا يرى بالعين ، ولا يقاس بالكم ، ولا يشترى بالمال أيا كان نوعه وقيمته . السعادة شىء يشعر به الانسان بين جوانحه .. صفاء نفس ، وطمأنينة قلب ، وانشراح صدر ، وراحة ضمير . وهى شىء ينبع من داخل الانسان ولا يستورد من خارجه . فسعادة الانسان فى ايمانه ، وايمانه فى قلبه ، وقلب الانسان لا سلطان لأحد عليه غير ربه .

هذه هى السعادة الحقة ، السعادة التى لا يملك بشر أن يعطيها ، ولا يملك أن ينتزعها ممن أوتيها .

السعادة التى شعر بنشوتها أحد المؤمنين الصالحين فقال : « اننا نعيش فى سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف » .

والذين رزقوا هذه النعمة يسخرون من الأحداث وان برقت ورعدت ، ويبتسمون للحياة وان هى كشرت عن نابها ويفلسفون الألم وهو يستحيل عندهم الى نعمة تستحق الشكر ، على حين هو عند غيرهم مصيبة تستوجب الصراخ والشكوى ، كأنما عندهم غدد روحية خاصة مهمتها أن تفرز مادة معينة تتحول بها كوارث الحياة الى نعم .

---

(١) المرجع السابق : ص ٧٣

● **القدر المــادى اللازم لتحقيق السعادة :**

لا نجحد أن للجانب المــادى مكانا فى تحقيق السعادة . كيف ؟ وقد قال رســول الاسلام صلى الله عليه وسلم : « من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح » . (رواه أحمد).

بيد أنه ليس المكان الأول ولا الأفسح ، والمدار فيه على الكيف لا على الكم ، فحسب الانسان أن يسلم من المنغصات المــادية التى يضيق بها الصـــدر ، وأن يمنح الأمن والعافية ، ويتيسر له القوت فى غير حرج ولا اعنات . وما أصدق وأروع الحديث النبوى الشريف : « من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قــوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » . (رواه البخارى)

واذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية والقلب الانسانى ، ان الايمان بالله وبالدار الآخرة هو ماؤها وغذاؤها وضياؤها .. فلقد فجر الايمان فى قلب الانسان ينابيع السعادة ، ولا يمكن أن تتحقق السعادة بغيرها . تلك هى ينابيع السكينة ، والأمن والأمان ، والأمل ، والرضا ، والحب .. وسنخص كلا منها بالحديث على الصفحات التالية :

● **ســكينة النفس :**

﴿ هو الذى أنزل الســكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ﴾ . (الفتح : ٤)

ان سكينة النفس ــ بلا ريب ــ هى الينبوع الأول للســعادة ، ولكن كيف الســبيل اليها اذا كانت شيئا لا يثمره الذكاء أو الصــحة أو القوة أو المــال والشهرة أو غير ذلك من نعم الحياة المــادية .

اننا نجيب مطمئنين : أن للسكينة مصدرا واحدا أساســيا ، هــو الايمان بالله واليوم الآخر ، الايمان الصادق العميق الذى لا يكدره شك أو يفســده نفاق .

وهذا ما يشهد به الواقع المــاثل أمامنا ، وما أيده التاريخ الحافل ، وما يلمسه كل انسان بصير منصف فى نفسه وفيمن حوله .

لقـد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقا وضـيقا واضـطرابا هم المحرومون من نعمة الايمان متعة اليقين •

ان للسكينة مصدرا واحدا ــ دون سـواه ــ هو الايمـان بالله واليوم الآخر ، ذلك الايمان الصادق العميق ، ان هذه السـكينة ثمرة من ثمار دوحة الايمان ، وشجرة التوحيد الطيبة التى تؤتى أكلها كل حين باذن ربها •• فهى نعمة من السـماء ونفحة غالية ينزلها الله على قلوب المؤمنين من البشر ليثبتوا ويرضوا اذا اضطرب غيرهم ، ويصبروا اذا جزع الناس •

هذه السكينة هى التى غمرت قلب رسول الله صلى الله عليـه وسلم يوم الهجرة ، فلم يعره هم أو حزن ، ولم يستبد به خوف أو وجل ، ولم يخالج صدره شـك أو قلق :

﴿ فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصـاحبه : لا تحزن ان الله معنا ﴾ •   (التوبة : ٤٠)

لقد غلبت على صاحبه الصديق مشاعر الحزن والاشفاق ، لا على نفسه وحياته ، بل على الرسول ، وعلى مصير الرسالة ، حتى قال والأعداء محدقون بالغار : يا رسـول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ! فيقول الرسول مثبتا فؤاده : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟

هذه السكينة روح من الله ، ونور ، يسكن اليه الخائف ، ويطمئن عنده القلق ، ويقوى به الضعيف ، ويهتدى به الحيران •• هذه السكينة نافذة على الجنـة يفتحهـا الله على المؤمنين من عبـاده ، فيذيقهم بعض ما قدموا من خير ، ويريهم نموذجا صغيرا لمـا ينتظرهم من نعيم ، فينعموا من هذه النسمات بالروح والريحان والسلام والأمان •

● أسباب السكينة لدى المؤمن :

قد تتساءل : لمـاذا كان المؤمن أولى الناس بسكينة النفس وطمأنينة القلب ؟ ولمـاذا لا يجد الانسان السكينة فى العلم والثقافة والفلسـفة وفيما أنتجه التقدم العلمى من وسائل يسرت العيش ؟

والجواب عن ذلك يحتاج الى شيء من التفصيل ، لبيان الأسباب والسنن النفسية التى جعلت المؤمن ــ دون غيره ــ أحق الناس بالسكينة والاطمئنان .. واليك البيان :

أولا ــ استجابة المؤمن لنداء الفطرة متسقة كل الاتساق :

ان أول أسباب السكينة لدى المؤمن أنه قد هدى الى فطرته التى فطره الله عليها ، وهى فطرة متسقة كل الاتساق مع فطرة الوجود الكبير كله . فعاش المؤمن مع فطرته فى سلام ووئام .

ان فى فطرة الانسان فراغا لا يملؤه علم ولا ثقافة ولا فلسفة ، وانما يملؤها الايمان بالله جل وعلا .

وستظل الفطرة الانسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ ، حتى تجد الله ، وتؤمن به ، وتتوجه اليه . فهنالك تستريح من تعب ، وترتوى من ظمأ ، وتأمن من خوف . هناك تحس بالهداية بعد الحيرة والاستقرار بعد التخبط ، والاطمئنان بعد القلق . فاذا لم يجد الانسان ربه ــ وهو أقرب اليه من حبل الوريد ــ فما أشقى حياته ، وما أتعس حظه ، وما أخيب سعيه !

ثانيا ــ فى القلب شعث لا يلمه الا الاقبال على الله :

وفيه وحشة لا يزيلها الا الأنس بالله . وفيه حزن لا يذهبه الا السرور بمعرفته ، وصدق معاملته . وفيه قلق لا يسكنه الا الفرار اليه .

وفيه نيران وحسرات لا يطفئها الا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ، ومعانقة الصبر على ذلك لحين لقائه . هذا كلام نابع من الفطرة البشرية الأصيلة التى لا تجد سكينتها الا فى الاهتداء الى الله والايمان به ، والالتجاء اليه .. انها الفطرة التى لم يملك مشركو العرب فى جاهليتهم أن ينكروها مكابرة وعنادا .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ . (العنكبوت : ٦١)

وقد يتراكم على هذه الفطرة صدأ الشبهات أو غبار الشهوات • وقد تنحرف أو تتدنس باتباع الظن أو اتباع الهوى أو الطاعة العمياء للسادة والكبراء • وقد يصاب الانسان بداء الغرور فيظن نفسه شيئا يقوم وحده ، ويستغنى عن الله !!

بيد أن هذه الفطرة الأصيلة تذبل ولا تموت ، وتكمن ولا تزول • فاذا أصاب الانسان من شدائد الحياة ما لا قبل له به ، ولا يد له ولا للناس فى دفعه ، فسرعان ما تزول القشرة السطحية المضللة وتبرز الفطرة العميقة الكامنة • وينطلق الصوت المحبوس ، داعيا ربه ، منيبا اليه ، قال تعالى :

﴿ واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه ﴾ •

(الاسراء : ٦٧)

هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون فى تاريخ الأمم والأديان والحضارات ، وقد وجدوا الانسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بالله ، حتى قال أحد كبار المؤرخين : « لقد وجدت فى التاريخ مدن بلا قصور ولا مصانع ولا حصون ، ولكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد »[1] •

والانحراف الكبير الذى أصاب البشرية فى تاريخها الطويل ، لم يكن بانكار وجود الله والعبودية له ، وانما كان بتوجيه العبادة لغيره أو اشراك آلهة أخرى معه من مخلوقات الأرض أو السماء •

ولهذا كانت مهمة رسل الله كافة فى جميع العصور ، هى تحويل الناس من عبادة المخلوقات الى عبادة الخالق ، وكان نداؤهم الأول الى قومهم :

﴿ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ • (النحل : ٣٦)

﴿ اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ﴾ • (هود : ٦١)

(جاءت على لسان نوح وهود وصالح وشعيب فى سور شتى)

---

(١) المرجع السابق : ص ٨٠

ومن هنا عنى القرآن الكريم فى الدرجة الأولى بالدعوة الى توحيد الله ، وافراده بالعبادة ، والاستعانة والتوكل والانابة ، لا باثبات وجوده سبحانه ، فان هذا الوجود ـ على وجه عام مسلم به .

ان الذى يعنينا هنا هو أن الانسان لا يستطيع أن يعيش من غير ايمان ، ولا أن يحيا بغير اله يعبده ويعظمه ويقدسه ويخافه ويرجوه ، ويتوكل عليـه .

ثالثا ـ اهتداء المؤمن الى سر وجوده :

ان فى أعماق كل انسان أصواتا خفية تناديه وأسئلة تلح عليـه منتظرة الجواب الذى تطمئن به النفس . ما العالم ؟ ما الانسان ؟ من أين جاءا ؟ ومن صنعهما ؟ كيف بدءا ؟ ما هدفهما ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ أى مستقبل ينتظرنا بعـد هذه الحياة ؟ هل يوجد شىء بعد هذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتنا بهذا الخلود ؟

هذه الأسئلة التى ألحت على الانسان منذ خلق ، وستظل تلح عليه الى أن تطوى صفحة الحياة لم تجد ـ ولن تجد ـ لها أجوبة شـافية الا فى الدين . فالدين وحده هو الذى يحل عقدة الوجـود الكبرى ، وهو المرجع الوحيد الذى يستطيع أن يجيبنا عن تلك الأسـئلة بما يرضى الفطرة ، ويشفى الصـدور .

والاسلام ـ خاصـة ـ خير دين أجاب عن هـذه الأسـئلة اجابة شافية ، ترضى الفطرة النيرة والعقل السليم . ولقد أعلن القرآن الكريم أن هذا الدين هو الفطرة الأصيلة ذاتها :

« فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها » .
(الروم : ٣٠)

تقول الفطرة والعقل : ان الناس لم يخلقوا من غير شىء ، ولم يخلقوا هم أنفسهم ، ولم يخلقوا ذرة فى الأرض أو السماء ، قال تعالى :

« أم خلقـوا من غير شىء أم هم الخالقـون . أم خلقوا السموات والأرض .. » . (الطور : ٣٥ ، ٣٦)

وتقول الفطرة والعقل : لابد ــ اذن ــ من خالق لهذا الانســان العجيب ، ولهذا الكون العريض • ولابد أن يكون هذا الخالق واســع العلم ، بالغ الحكمة ، نافذ المشــيئة ، عظيم القــدرة • قال تعــالى :

﴿ ذلكم الله ربكم ، خالق كل شىء،لا اله الا هو ، فانى تؤفكون• كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون • الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين ﴾ • (غافر : ٦٢ ــ ٦٤)

وتقول الفطرة والعقل : « ان هذا الخالق الحكيم لابد أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون ، ووضع الانسان فيه غاية وحكمــة ، وتعالت حكمته أن يكون خلق هذا كله عبثا • يقول القرآن :

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين • وما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ • (الدخان : ٣٨ ، ٣٩)

وهذا الحق الذى به خلقت الســموات والأرض هو ما يستشــفه العقل وتحس به الفطرة ــ وان يكن احساسا غامضا ــ أن لهذا الانسان فى الوجود رسالة ، وأن وراء هذه الحياة ــ حياة الابتلاء والفنــاء ــ حياة أخرى ، هى الغاية واليها المنتهى ، يجزى فيها المحسن باحســانه والمسىء باساءته ، حتى لا يســتوى الخبيث والطيب ، والبر والفاجر ، وهذا ما تقتضيه الحكمة • ويقول القرآن الكريم :

﴿ وما خلقنــا الســماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار • أم نجعــل الذين آمنــوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ •

(ص : ٢٧ ، ٢٨)

﴿ افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ﴾

(**المؤمنون** : ١١٥)

ويوضح القرآن الغاية من خلق الســموات والأرض عامة ، ومن خلق الجن والانس خاصــة :

« الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما » .
(الطلاق : ١٢)

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » . (الذاريات : ٥٦ ، ٥٧)

بهذه الأجوبة القرآنية اهتدى المؤمن الى سر وجوده ، ووجود العالم كله . لقد عرف الله فعرف به كل شيء وحل به كل لغز ، واهتدى به الى كل خير . فالعالم مملكة الله سبحانه ، وكل ما فيه من آثار رحمته ، والانسان خليفة الله فى أرضه ، خلق لعبادة الله ، وتحمل الأمانة ، والحياة هبة من الله ، والموت قدر من الله ، والدنيا مزرعة لطاعة الله ، والآخرة موعد الحصاد والجزاء من الله . والسعيد من اهتدى بهدى الله ، والشقى من أعرض عن ذكر الله . والانسان مسئول فى هذه الدار الفانية ، ليصقل ويعد لخلود فى تلك الدار الباقية ، والموت هو القنطرة التى تصل ما بين الدارين .

وتتضمن سكينة النفس ما يأتى :

(أ) نجاة المؤمن من الحيرة والشك :

فبهذا الايمان البسيط العميق الذى جاء به الوحى ، وأيده العقل ، واقتضته الفطرة ، وشهد له كل سطر ، بل كل كلمة فى كتاب الوجود المفتوح ـ سلم المؤمن من الشك والاضطراب ، واستراح من البلبلة والحيرة ، الذهنية والنفسية ، التى يتجرع منها الجاحدون المرتابون .

بهذا الايمان الواضح المريح ، استطاع المؤمن أن يحل ألغاز الوجود الكبرى ، حين عرف مبدأ الوجود كله ومنتهاه ، وغايته وهدفه ، فانحلت عقد الشك من نفسه ، وزالت علامات الاستفهام الكبيرة من حياته .

لقد عرف أن له ربا ــ هو رب كل شيء ــ هو الذى خلقه فسواه ، وكرمه وفضله ، وجعله فى الأرض خليفة ، وكفل له رزقه ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، فاطمأن الى ربه ، ولاذ بجواره ، واعتصم بحبله ، فأوى بهذا الايمان الى ركن شديد ، ولاذ بقرار مكين ، واستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

وعرف أن هذه الحياة القصيرة التى يعيشها الناس ممزوجة الخير بالشر ، والعدل بالظلم ، والحق بالباطل ، واللذة بالألم ، ليست هى الغاية ، ولا اليها المنتهى . انما هى مزرعة لحياة أخرى هى خير وأبقى ، تجزى فيها كل نفس بما كسبت ، وتخلد فيما عملت . فاستراح المؤمن بذلك من التساؤل العريض عن الحياة والموت ، وما سرهما ؟ واستراح المؤمن من ذلك حين علم وأيقن أنه خلق للخلود الأبدى ، وانما ينقله الموت من طور الى طور ، أو من دار الى دار .

وعرف المؤمن انه لم يخلق فى هذه الحياة عبثا ، ولم يترك سدى فبعث الله اليه رسله بالبينات ، هداة ومعلمين ومبشرين ومنذرين ، ليهتدى الناس الى الحق ، ويعرفوا ما يرضى الله فيتبعوه ، وما يسخطه فيتقوه ، وليقيموا بين الناس موازين القسط ، وليكونوا أمثلة رفيعة ــ تحس وترى ــ يتخذها الناس أسوة لصالح الاعمال ومكارم الأخلاق .

وعرف المؤمن أنه ليس غريبا على الكون الكبير من حوله ، ولا معزولا عنه ، انه بايمانه لم يعد وحده ، وان الكون كله معه ، ففطرة هذا الكون هى الايمان ، هى التسبيح والسجود للرب الأعلى . الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى :

﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا ﴾ .

(الاسراء : ٤٤)

(ب) وضوح الطريق والغاية عند المؤمن :

يعيش غير المؤمن فى الدنيا تتوزعه هموم كثيرة ، وتتنازعه غايات

شتى ، فهو فى صراع دائم داخل نفســه ، كما أنه فى حيرة بين غرائزه الكثيرة ..

وقد استراح المؤمن من هذا كله ، وحصر الغايات كلها فى غاية واحدة عليها يحرص واليها يسعى ، وهى رضــوان الله تعالى ، ولا يبالى معه برضى الناس أو ســخطهم .

كما جعل المؤمن همومه هما واحدا ، هو سلوك الطريق الموصــل الى مرضاته تعالى والذى يســأل الله فى كل صلاة عدة مرات أن يهديه اليه ، ويوفقه لســلوكه :

﴿ اهدنا الصراط المســتقيم ﴾ . (الفاتحة : ٦)

وهو طريق واحد لا عوج فيه ولا التواء :

﴿ وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن ســبيله ﴾ . (الأنعام : ١٥٣)

(ج) أنس المؤمن بالوجــود كله :

والمؤمن يعيش موصــولا بالوجــود كله ، ويحيــا فى أنس به ، وشــعور عميــق بالتناســق معه والارتبــاط به . فليس هذا الكون عدوا له ، ولا غريبا عنه ، انه مجال تفكيره واعتبــاره ، ومسرح نظره وتأملاته ، ومظهر نعم الله وآثار رحمته .

هذا الكون الكبير كله يخضع لنواميس الله كما يخضــع المؤمن ، ويسبح بحمد الله كما يســبح المؤمن .. والمؤمن ينظر اليه نظرته الى دليل يهديه الى ربه .. بهذه النظرة الودود الرحبة للوجود ، تتســع نفس المؤمن ، وتتسع حياته ، وتتسع دائرة الوجود الذى يعيش فيه .

فليس هناك أوسع من صدر المؤمن وقلبــه الذى وســع العالمين ، المنظور وغير المنظور ، عالم الشهادة وعالم الغيب ، ووســع الحياتين : الدنيا والآخرة ، حياة الفناء ، وحياة الخلود ، ووسع الوجودين : الوجود الأزلى الأبدى ، ووجود الله جل جلاله .

هذه حقيقة ثابتة ، وسنة ماضية ، منذ أهبط الله آدم وزوجته الى الأرض ثم قال لهما :

﴿ فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ﴾ . (طه : ١٢٣ ـ ١٢٤)

النفس المؤمنة نفس رحبة واسعة ، كيف لا وهى تعيش فى وجود سعته السموات والأرض ، والدنيا والآخرة ، والأزل والأبد ؟

سئل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قوله تعالى :

﴿ افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ﴾ .

(الزمر : ٢٢)

فقال : « ان النور اذا دخل فى القلب اتسع وانفسح »[١] .

فالقلب يتسع وينفسح وينشرح بنور الايمان واليقين ، كما يضيق وينكمش بظلمة الالحاد والشك والنفاق :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾ . (الأنعام : ١٢٥)

ان المؤمن يعيش فى سعة من نفسه وقلبه ، ولو لم يكن فى سعة من عيشه ، فطبيعة الايمان توسع النفس والقلب والحياة ، لأنه يصل صاحبه بالوجود كله ، ظاهره وباطنه ، علويه وسفليه ، وما يبصر منه وما لا يبصر . ماضيه وحاضره ومستقبله . يصله بالسموات والأرض ومن فيهن . يصله بالملائكة وحملة العرش والقوى الروحية من جنود الله التى لا يعلمها الا هو . يصله بحملة النور الالهى ، وأصحاب الرسالات السماوية من لدن آدم أبى البشر الى محمد صلى الله عليه وسلم ، يصله بالصديقين والشهداء والصالحين من كل أمة ، ومن كل

---

(١) المرجع السابق : ص ١٠٠

عصر .. يصله بالآخرة والبعث والحساب والجنة والنار . وباختصار ، يصله بالوجود ورب الوجود والأول والآخر ، والظاهر والباطن .

فالنفس المؤمنة نفس رحبة واسعة ، وكيف لا وهى تعيش فى وجود سعته السموات والأرض ، والعرش والكرسى ، والدنيا والآخرة ، والأزل والأبد ؟

النفس المؤمنة رحبة واسعة ، لأنها تعيش فى نور يهديها سبيلها ويكشف لها من حولها . ومن شأن النور أن يوسع الدائرة التى يحيا فيها الانسان ، على عكس الظلام ، فان الذى تكتنفه الظلمة لا يرى ما حوله ولا من حوله ، بل لا يرى نفسه . فاذا قوى هذا النور ، وانتشرت أشعته العريضة ، أضاء له دائرة أوسع ، وعلى قدر قوة هذا النور ، وقوة الابصار عند الانسان ، تكون سعة الدائرة التى يدركها البصير .

(د) المؤمن يعيش فى معية الله :

فالمؤمن لا يعتريه ذلك المرض النفسى الوبيل ، الذى يفتك بالمحرومين من الايمان ، ذلك هو مرض الشعور بالوحدة المقلقة ، فيحس صاحبه أن الدنيا مقفلة عليه ، وأنه يعيش وحيدا فريدا منعزلا عما حوله وعن الآخرين ، كأنه بقية غرقى سفينة ابتلعها اليم ، ورمت به الأمواج فى جزيرة صغيرة موحشة يسكنها وحده ، لا يرى الا زرقة البحر وزرقة السماء ، ولا يسمع الا صفير الرياح وهدير الأمواج .

وقد اتفق المختصون على أن هذا المرض من أخطر الأمراض النفسية ، لما يجلبه على صاحبه من شعور بالعزلة وفقدان للثقة بمن يتعاملون معه . فأينما التفت لا يجد غير نفسه .. فهل يستطيع مثل

هذا الانسان أن يعمل وأن ينتج ، أو أن يظل محتفظا بوعيه وقدرته على التركيز والفهم ؟

لم يدخر علماء النفس وسعا فى البحث عن علاج ناجع لهذا المرض ، فأجروا تجارب عديدة ، وحاولوا محاولات جادة ، حتى انتهى رأى المنصفين منهم الى أن العلاج الأمثل لهذا المرض هو اللجوء الى الدين ، والاعتصام بعروة الايمان الوثقى ، حتى يشعر المريض بمعية الله والأنس به ... فهذا الايمان القوى هو خير دواء لعلاج هذا المرض الخطير ، كما أنه خير وقاية من شره .

قال أحد علماء النفس : « مهما بلغ شعورك بوحدة نفسك فاعلم أنك لست بمفردك أبدا . فاذا كنت على جانب من الطريق فسر وأنت على يقين من أن الله يسير على الجانب الآخر »[1] .

واعتقاد المسلم أكبر من هذا وأعمق . انه يؤمن أن الله معه حيثما كان ، وليس على الجانب الآخر من الطريق . ان الله سبحانه يقول فى الحديث القدسى : « أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه اذا ذكرنى »[2] . ويقول فى كتابه العزيز :

﴿ فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم اعمالكم ﴾ . (محمد : ٣٥)

ان شعور المؤمن بأن يد الله فى يده ، وأن عنايته تسير بجانبه ، وأنه ملحوظ بعينه التى لا تنام ، وأنه معه حيث كان ، يطرد عنه شبح الوحدة المخيف ، ويزيح عن نفسه كابوسها المزعج .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٠٢

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٢

كيف يشعر بالوحدة من يقرأ فى كتاب ربه :

﴿ ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، ان الله واسع عليم ﴾ . (البقرة : ١١٥)

﴿ وهو معكم أين ما كنتم ، والله بما تعملون بصير ﴾ .

(الحديد : ٤)

انه لا يشعر الا بما شعر به موسى — عليه السلام — حين قال لبنى اسرائيل :

﴿ ان معى ربى سيهدين ﴾ . (الشعراء : ٦٢)

وما شعر به محمد — صلى الله عليه وسلم — فى الغار حين قال لصاحبه :

﴿ لا تحزن ان الله معنا ﴾ . (التوبة : ٤٠)

ان شعور المؤمن بمعية الله وصحبته دائما يجعله فى أنس دائم بربه ، ونعيم موصول بقربه ، يحس دائما بالنور يغمر قلبه ، ولو أنه فى ظلمة الليل البهيم ، ويشعر بالأنس يملأ عليه حياته وان كان فى وحشة من الخلطاء والمعاشرين .

(هـ) المؤمن يعيش فى صحبة النبيين والصديقين :

المؤمن لا يشعر أنه فى عزلة عن اخوانه المؤمنين . انهم — ان لم يكونوا معه فى عمله أو مسجده أو داره — يعيشون دائما فى وجدانه وضميره ويحيون فى فكره .. فهو اذا صلى — ولو منفردا — تحدث باسمهم قائلا :

﴿ اياك نعبد واياك نستعين ﴾ . (الفاتحة : ٥)

واذا دعا دعا باسمهم قائلا :

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ . (الفاتحة : ٦)

واذا ذكر نفسه ذكرهم قائلا : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » . (التشهد) .

وانه الأوسع مدى من أن يعيش مع مؤمنى عصره وحدهم ، بل انه ليتخطى الأجيال ويخترق العصور والمسافات ويحيا مع المؤمنين وان باعدت بينه وبينهم السنون والأعوام ويقول ما قال الصالحون .

﴿ ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ﴾ .

(الحشر : ١٠)

والمؤمن يشعر أنه يعيش بايمانه وعمله الصالح مع أنبياء الله ورسله المقربين ، ومع كل صديق وشهيد وصالح من كل أمة وفى كل عصر :

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن اولئك رفيقا ﴾ .

(النساء : ٦٩)

وأى انسان أسعد ممن يرافق هؤلاء ويرافقونه ؟ انها ليست مرافقة جسد وصورة ، ولكنها مرافقة روح ووجدان ، وفكر وقلب ، وكفى أنه « معهم » . ولا يحسبن امرؤ من الناس أن مرافقة هؤلاء للمؤمن شيء هين ضئيل ، أو أمر خيالى ، فانه لفرق كبير بين انسان تاريخه هو تاريخ شخصه أو أسرته ، فهو قريب القاع ، سطحى الجذور ، وانسان تاريخه هو تاريخ الايمان والهدى من عهد آدم ، تاريخه هو تاريخ النبيين أولى العزم ، ومن غيرهم من أصحاب الرسالات منذ بعث الله رسولا وأنزل كتابا .

فهو يستلهم هذا التاريخ المؤمن الحافل بالأحداث وما عرض له من مشكلات ، ويجد فيه الأسوة والهداية كما يجد فيه السلوى والعزاء ، والأنس والود ، ومن كل ذلك يأخذ الزاد لفكره ، والنور لقلبه ، والمدد لارادته .

● الصلاة والدعاء من بواعث السكينة :

ومن أسباب السكينة النفسية التى ينعم بها المؤمنون ما يناجى به المؤمن ربه كل يوم من صلاة ودعاء .

فالصلاة لحظات ارتقاء روحي يفرغ المرء فيها من شـواغله الدنيويه ليقف بين يدى ربه ومولاه ، ويثنى عليه بما هو أهله ، ويفضى اليه بذات نفسه داعيا متضرعا . وفى الاتصال بالله العلى الكبير قوة للنفس ، ومدد للعزيمة ، وطمأنينة للروح .

لهذا جعل الله الصلاة سلاحا للمؤمن يستعين بها فى معركة الحياة ويواجه بها كوارثها وآلامها ، قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصـلاة ، ان الله مع الصـابرين ﴾ . (البقرة : ١٥٣)

فالصلاة تشعرك بأنك لست منفردا بحل مشـكلاتك وهمومك . فما أقل من يسعهم احتمال أثقل الأحمال وأعسر المشـكلات منفردين ، وكثيرا ما تكون مشكلاتنا ماسة أشد المساس بذواتنا فنأبى أن نذكرها لأقرب الناس الينا ، ولكننا يسعنا أن نذكرها للخالق عز وجل فى الصلاة والدعاء .

أى سكينة يشعر بها المؤمن حين يلجأ الى ربه وقت الشدة ، فيدعوه بما دعا به محمد ــ عليه السلام ــ من قبل :

« اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والانجيل والقرآن ، وأعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ، فليس دونك شيء ، اقض عنى الدين ، واغننى من الفقر » . (رواه مسلم)

٤ ــ الرضـا :

« ان الله عز وجل بقسطه جعل الفرح والروح فى الرضا واليقين ، وجعل الغم والحزن فى السخط والشك » . (حديث شريف)[١] .

---

(١) الايمان والحياة : مرجع سابق : ص ١٠٩

وفى هذا الحديث الشريف كشف عن حقيقة نفسية باهرة ، فكما أن سنة الله قد ربطت الشبع والرى بالطعام والشراب فى عالم المادة ، فان سنته تعالى فى عالم النفس والروح قد ربطت الفرح والروح — وبعبارة أخرى يطمئن الى يومه وحاضره ، وبيقينه بالله والآخرة ، يطمئن الى غده ومستقبله . ومن غير المؤمن فى رضاه عن يومه ، ويقينه بغده ، كما ربطت سنة الله الغم والحزن بالسخط والشك .

فالساخطون والشاكون لا يذوقون للسرور طعما ، فان حياتهم كلها سواد ممتد ، وظلام متصل ، وليل حالك لا يعقبه نهار ولا يرتقب له فجر صادق . وقد ربط الحديث النبوى الكريم بين السخط والشك وهما متلازمان .. فلا سخط من غير شك ، ولا شك من غير سخط .

ان المؤمن قد تصيبه الكآبة ، وقد يعتريه الحزن ، ولهذا قال الله تعالى لرسوله الكريم :

﴿ ولا تحزن عليهم .. ﴾ . (النمل : ٧٠)

﴿ ولا يحزنك قولهم .. ﴾ . (يونس : ٦٥)

ولكن حزن المؤمن لغيره أكثر من حزنه لنفسه ، واذا حزن لنفسه فلآخرته قبل دنياه ، واذا حزن لدنياه ، فهو حزن عارض موقوت كغمام الصيف ، سرعان ما ينقشع اذا هبت عليه ريح الايمان . حتى النفوس المنقبضة والطبائع المتشائمة ينشر الايمان عليها من ضيائه واشراقه . فيبدد كثيرا من ظلامها ويخفف كثيرا من انقباضها ويطارد أسباب السخط والتشاؤم من وجودها .

أما المرتاب فى الله والآخرة ، فهو يعيش فى مأتم مستمر ومناحة دائمة . لأنه يعيش فى سخط دائم وغضب مستمر .. ساخط على الناس ساخط على نفسه ، ساخط على الزمان والدنيا بأسرها ، ساخط على كل شىء .. فينوح على دنياه ، ويولول على وجوده .

ان شعور الانسان بالرضا من أول أسباب السكينة النفسية التى هى سر السعادة .

وفى الحديث النبوى الشريف :

« ومن سعادة المرء استخارته ربه ، ورضاه بما قضى . ومن شقاء المرء تركه الاستخارة وعدم رضاه بعد القضاء » .

(رواه البزار وأحمد والترمذى)

فكل أمر مقدور يكتنفه أمران : الاستخارة قبل وقوعه ، والرضا بعد وقوعه ، والسعيد من جمع بينهما . وذلك هو المؤمن . والشقى من حرمهما . المؤمن يسأل الله قبل اقدامه على أمر من الأمور أن يهديه الى أرشد الأعمال وأهدى السبل ، ومن الأدعية التى علمها لنا الرسول الكريم :

« اللهم ان كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فيسره لى ، وبارك لى فيه . وان كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاصرفه عنى ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به » . (رواه البخارى)

والمؤمن وحده هو الذى يغمره الاحساس بالرضا بعد كل قدر من أقدار الله..فالمؤمن هو الذى يحس تلك الحالةالنفسية التى تجعله مستريح الفؤاد ، منشرح الصدر ، غير متبرم ولا ضجر ، أو ساخط على نفسه وعلى الحياة . ومنشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص فى نفسه ، وعن الوجود العام من حوله . ومبعث هذا وذلك رضاه عن مصدر الوجود كله ، وينبوع هذا الرضا هو الايمان بالله رب العالمين .

الرضا نعمة روحية جزيلة ، هيهات أن يصل اليها جاحد بالله ، أو مرتاب فى جزاء الآخرة ، انما يصل اليها من قوى ايمانه بالله وحسن اتصاله به وقد خاطب رسوله عليه الصلاة والسلام بقوله :

﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ .

(طه : ١٣٠)

وامتن عليه بقوله :

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضي ﴾ . (الضحي : ٥)

وقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسـولا » . (رواه أحمد ومسلم)

وأثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله :

﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ . (البينة : ٨)

(أ) المؤمن راض عن نفسـه وعن ربه :

المؤمن راض عن نفسه ، أعنى عن وجوده ومكانه فى المكون ، لأنه يعلم أنه ليس ذرة ضائعة ، ولا كما مهملا ، ولا شيئا تافها ، بل هو قبس من نور الله ، ونفخة من روح الله ، وخليفة فى أرض الله .

وهو راض عن ربه ، لأنه آمن بكماله سبحانه وجمـاله ، وأيقن بعدله ورحمته ، واطمأن الى علمه وحكمته .. أحاط سبحانه بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا ، ووسع كل شىء رحمة ، فلم يخلق شيئا لهوا ولم يترك شـيئا سدى ، له الملك ، وله الحمـد ، نعمـه عليـه لا تعد ، وفضله عليه لا يحد ، فما به من نعمة فمن الله ، وما أصـابه من حسـنة فمن الله ، وما أصابه من سـيئة فمن نفسه ، يردد دائما هذا الثناء الذى ردده من قبل أبونا ابراهيم خليل الرحمن :

﴿ الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسـقين . واذا مرضت فهو يشـفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى اطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ . (الشعراء : ٧٨ — ٨٢)

المؤمن موقن تمام اليقين أن تدبير الله أفضل من تدبيره لنفسـه . ورحمته تعالى به أعظم من رحمـة أبويه به . ينظر فى الأنفس والآفاق فيرى آثار بره تعالى ورحمته ، فيناجى ربه :

﴿ بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير ﴾ . (آل عمران : ٢٦)

فالخير بيديه ، والشر ليس اليه ، وما يظنه الناس شرا فى الوجود ليس هو شرا فى الحقيقة . واذا كان لابد من تسميته شرا ، فانما هو

شر جزئى خاص مغمور فى جانب الخير الكلى العام • وهذا الشر الجزئى ، أو الشر الموهوم ، اقتضاء التكافل بين أجزاء الوجود •

(ب) المؤمن راض عن الكون والحياة :

تتيجة لما سبق ، فالمؤمن راض عن الحياة والكون من حوله ، لأنه يعتقد أن هذا الكون الفسيح من صنع الله الذى أتقن كل شىء :

﴿ الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾ • (طه : ٥٠)

وكل ذرة فى الأرض أو السماء تدل على حكمة حكيم وتقدير عزيز عليم ، ورعاية رب كريم رحيم •

والمؤمن — كما قال الامام الغزالى : « يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب ، أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم ، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور ، وأطلعهم على أسرار الملكوت ، وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات ، حتى اطلعوا به على الخير والشر ، والنفع والضر ، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت ، بما أعطوا من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم من التعاون والتظاهر عليه ، أن يزاد فيما دبر الله سبحانه ، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر ، عمن بلى به ، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع ، عمن أنعم الله به عليه • بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض — ان رجعوا فيها البصر ، وطولوا فيها النظر — ما رأوا فيها من تفاوت ، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل ، وسرور وحزن ، وقدرة وعجز ، وايمان وشك ، وطاعة ومعصية •• فكله عدل محض لا جور فيه ، وحق كامل لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغى ، وليس فى الامكان أصلا أحسن منه ولا أفضل ولا أكمل • ولو كان ادخره — مع القدرة —

ولم يتفضل به لكان بخلا يناقض الجود ، وظلما يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الالهية »[1] .

فما عرفه المؤمن من حكمة الله فى خلقه ، وأسراره فى كونه ، فبها ونعمت . وما خفى عليه وكله الى عالمه ، وقال فى تواضع أولى الألباب :

﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك** ﴾ . (آل عمران : ١٩١)

لهذا نرى المؤمن راضيا عما قدر الله له ، وما قضى الله فيه .

(ج) المؤمن عميق الاحساس بنعم الله عليه :

ان مما يسخط الناس على أنفسهم وعلى حياتهم ، ويحرمهم لذة الرضا ، أنهم قليلو الاحساس بما يتمتعون به من نعم غامرة ، ربما فقدت قيمتها بألفها ، أو بسهولة الحصول عليها ، وهم يقولون دائما : ينقصنا كذا وكذا ونريد كذا وكذا ، ولا يقولون : عندنا كذا وكذا .

ولكن المؤمن عميق الاحساس بما لله عليه من فضل عميم ، واحسان عظيم ، ونعم تحيط به عن يمينه وعن شماله ، ومن بين يديه ، ومن خلفه . انه يشعر بنعمة الله عليه منذ كان فى المهد صبيا : بل منذ كان فى بطن أمه جنينا . كان صبيا وليدا لا سن له تقطع ، ولا يد له تبطش ، ولا قدم له تسعى ، فأجرى الله له عرقين رقيقين فى صدر أمه ، يجريان لبنا خالصا ، كامل الغذاء ، وألقى الله محبته فى قلب أبويه ، فلا يطيب لهما طعام ولا شراب ، ولا يهنأ لهما عيش حتى يكفياه ما أهمه ويدفعا عنه كل سوء .

المؤمن يشعر بنعمة الله عليه فى كل شىء حوله ، ويرى فى كل ذرة فى الأرض أو فى السماء منحة من الله له ، تيسر له معيشته . وتعينه على القيام برسالته فى الحياة . انه يرى نعمة الله فى هبة

---

(١) أبو حامد الغزالى : احياء علوم الدين « كتاب التوكل » — القاهرة : الحلبى — ص ٢٢٢

الريح ، وسير السحاب وتفجر الأنهار ، وبزوغ الشمس ، وطلوع الفجر ، وضياء النهار ، وظلام الليل وتسخير الدواب ، وانبات النبات .. ولنقرأ فى مثل هذا قول الله تعالى :

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ . (لقمان : ٢٠)

﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . (الجاثية : ١٢ ، ١٣)

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ . (يس : ٣٣ ـ ٣٦)

﴿ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .
(القصص : ٧١ ـ ٧٢)

﴿ .. وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الله لغفور رحيم ﴾ .
(النحل : ١٨)

وهكذا يرى المؤمن ـ بتوجيه كتاب الله ـ آثار رحمة الله ونعمته فى كل شيء حوله . أما نعمة الله عليه فى شخصه هو فما أعظمها وما أغزرها !

فأولها : نعمة الخلق ، ولولا مشيئته وفضله لبقى الفرد فى ظلمة العدم ، ولم يكن شيئا مذكورا :

﴿ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ .
(الانسان : ١ ، ٢)

وثانيها : نعمة الانسانية .. فقد شاء الله سبحانه أن يخلقه بشرا سويا ، ويستخلفه فى الأرض ، ويفضله على كثير من خلقه :

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ . (الاسراء : ٧٠)

ويتبع ذلك حسن الصورة الحسية المعنوية :

﴿ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ﴾ . (التين : ٤)

﴿ وصوركم فاحسن صوركم ﴾ . (التغابن : ٣)

وثالثها : نعمة الادراك والعلم :

﴿ اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم ﴾ (العلق : ٢ ــ ٥)

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، لعلكم تشكرون ﴾ . (النحل : ٧٨)

وهذه الميزات الثلاث هى أدوات العلم ومداركه .

ورابعها : نعمة البيان النطقى والخطى :

﴿ الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان ﴾ . (الرحمن : ١ ــ ٤)

﴿ الذى علم بالقلم ﴾ . (العلق : ٤)

﴿ ن ، والقلم وما يسطرون ﴾ . (القلم : ١)

وخامسها : نعمة الرزق :

﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض .. ﴾ . (فاطر : ٣)

﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ، قل الله .. ﴾ . (سبأ : ٢٤)

وسادسها : وهذا خاص بالمؤمن ــ نعمة الايمان والهداية الى صراط الله المستقيم :

﴿ .. ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة ﴾ . (الحجرات : ٧ ، ٨)

﴿ يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين ﴾ . (الحجرات : ١٧)

وسابعها : نعمة الأخوة والمحبة :

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا ﴾ . (آل عمران : ١٠٣)

﴿ وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم ﴾ . (الأنفال : ٦٣)

ولقد كان محمد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أشد الناس احساسا بنعمة الله وفضله فى كل شئونه . ولذا نراه اذا تناول طعامه ــ وان كان من خشن الخبز وجاف الشعير ــ تناوله تناول الراضى الشاكر ، ويقول فى ختام الطعام : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » واذا شرب الماء القراح قال : « الحمد لله الذى جعله عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا » . واذا ركب دابة قال ما علمه الله اياه :

﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وانا الى ربنا لمنقلبون ﴾ . (الزخرف : ١٣ ، ١٤)

واذا استيقظ من نومه قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعد أن أماتنا واليه النشور » .

واذا تم له أمر على ما كان يبغى ويريد قال : « الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات » .

واذا خاب له رجاء أو حدث له ما يكره قال : « الحمـد لله على كل حال » .

واذا استقبل وجه الصباح قال « اللهم انى أصبحت منك فى نعمة وعافية وستر . فأتم على نعمتك وعافيتك وسترك فى الدنيا والآخرة . اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك .. فلك الحمد ولك الشكر »[1] .

فهذا هو شعور المؤمن دائما وشعور الذاكر لنعمة الله ، الشاكر لفضل الله :

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله .. ﴾ . (النحل : ٥٣)

﴿ .. وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها .. ﴾ . (ابراهيم : ٣٤)

ولا عجب ان كانت أول آية فى كتـاب الله الكريم ــ بعـد البسملة ــ آية تشعر المؤمنين أبدا بنعمة الله واحسـانه وتوجههم الى حمده وشكره ، تلك هى آية فاتحة الكتاب :

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ . (الفاتحة : ٢)

ولا غرو ان جعل الاسلام تلاوتها فريضة يومية يكررها المسلم كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة فى صلواته الخمس .

(د) المؤمن راض بما قدر الله عليه :

المؤمن كما يغمره الشعور بنعمة الله عليـه فى كل حين وفى كل حال ، لا يفقد هذا الشعور وان أصـابته البأسـاء والضراء : وهزته زلازل الحياة .

انه راض بما قضى الله له ، وما قدر عليه ، ايمانا بأن الله تعالى لا يفعل شـيئا عبثا ، ولا يقضى أمرا يريد به عسرا لعباده ، وأنه ــ

---

(١) الايمان والحياة « مرجع سابق » ، ص ١١٧

سبحانه — أرحم بهم من الوالدين بأولادهم : وأن الخير مطوى فى جوف ما نظنه شرا وما نكرهه بطبيعتنا البشرية :

﴿ .. فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ .
(النساء : ١٩)

ولقد لمس كثير ممن خالط المسلمين من الغربيين أثر هذا الجانب الاعتقادى — جانب الرضا بالقضاء — فى نفس المسلم ، واستقباله لكوارث الحياة وآلامها ، بنفس لا تتضعضع ، وقلب لا يتحطم .

(هـ) المؤمن راض بما قسم له من رزق :

والمؤمن راض بما قسم له من رزق ، وما قدر له من مواهب ، وما وهب له من حظ لأنه مؤمن بعدل الله فيما قسم من أرزاق ، وبحكمته فيما وزع من مواهب ، وبفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ . وهذا هو معنى « القناعة » التى حث عليها الدين ، وأشاد بها الحكماء والصالحون .

فالحق أن القناعة تعنى أساسا بأمرين :

أولهما : أن الانسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا ، لا يكاد يشبع منها أو يرتوى ، وقد صور ذلك الحديث النبوى الكريم :

« لو كان لابن آدم واديان من ذهب ، لابتغى ثالثا . ولا يملأ عين ابن آدم الا التراب » . (البخارى)

وكان لابد للدين أن يهديه الى الاعتدال فى السعى للغنى والاجمال فى طلب الرزق ، وبذلك يضمن التوازن فى نفسه وفى حياته ، ويمنحه السكينة التى هى سر السعادة ، ويجنبه الافراط والغلو الذى يرهق النفس والبدن ، ومن ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب : فان نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها ، وان أبطأ عليها . فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . خذوا ما حل ، ودعوا ما حرم » . (رواه ابن ماجه)

ولو ترك الانسان يستسلم لنزعات حرصه وطمعه ، لأصبح خطرا على نفسه وجماعته ، فكان لابد من توجيه طموحه الى قيم أرفع ، ومعان أخلد : ورزق أبقى ، وذلك هو وظيفة الدين معه ، قال تعالى :

﴿ ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيــه ، ورزق ربك خير وأبقى ﴾ . (طه : ١٣١)

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنــده حسن المــآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ﴾ . (آل عمران : ١٤ ، ١٥)

وظيفة الايمان هنا أن يحد من سورة الحرص والطمع ، والطغيان والشراهة والجشع على النفس البشرية ، فلا تستبد بها وتجعلها تحيــا فى قلق دائم ، لا تكتفى بقليــل ، ولا تشبع من كثير ، لا يطفىء غلة ظمئها ما عندها فتمتد عينها الى ما عند غيرها : ولا يشــبعها الحلال فيسيل لعابها الى الحرام . مثل هذه النفس لا ترضى ولا تستريح .

وظيفة الايمان أن يوجه النفس الى القيم المعنوية الخالدة ، والى الدار الآخرة الباقية ، والى الله الحى الذى لا يموت . ويعلم المؤمن أن الغنى ـــ ان كان ينشد الغنى ـــ ليس فى وفرة المــال وكثرة المتاع ، وانما هو فى داخل النفس أولا ، وبذلك ورد الحديث النبوى الشريف:

« ليس الغنى عن كثرة العرض ، انمــا الغنى غنى النفس » .

(متفق عليــه)

وثانى ما تعنيه القنــاعة : أن يرضى الانســان بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره ، وفى حدود ما قدر له يجب أن يكون نشــاطه وطموحه ، فلا يعيش متمنيا ما لا يتيسر له ، متطلعا الى ما وهب لغيره ولم يوهب له ، كما حدث فى عهــد الرسول عليه الســلام حين تمنى النساء أن يكون لهن ما للرجال ، فأنزل الله :

﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، ان الله كان بكل شيء عليما ﴾ . (النساء : ٣٢)

وفى حال العسر وضيق الرزق التى تحل بالأفراد ، ولا تخلو منها حياة الناس ، وفى الأزمات التى تحل بالأمم نتيجة حرب أو كارثة أو نحوها .. هؤلاء فى حاجة أن يعلموا ويوقنوا أن السعادة ليست فى وفرة أعراض الحياة ، ولكنها فى داخل النفس . وأولى ما يقال لهم : « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » .

اذن .. من القناعة الا تكون جشعا شرها ، ولا متطلعا الى ما ليس لك ، ولا فى طاقة مثلك . وبذلك تستروح نسمات الحياة الطيبة التى جعلها الله جزاء للمؤمنين العاملين فى الدنيا :

﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة .. ﴾ . (النحل : ٩٧)

وقد فسر على بن أبى طالب كرم الله وجهه الحياة الطيبة بالقناعة[١].

ان القناعة بالقليل من الرزق ليست مصدر ضعف ، كما يتوهم قصار النظر من الناس ، بل انها مصدر قوة لأصحاب المبادىء ، وحملة الرسالات المكافحين ، الذين يتعرضون للاضطهاد والمصادرة والحرمان . فترى أحدهم يخوض المعركة ضد الباطل والظلم ، صلب العود ، متين البنيان ، ثابت القدم ، لأنه يعلم من نفسه أن القليل يكفيه من الطعام وما خشن من اللباس ، وشظف من العيش .

وما حكى عن المسيح عليه السلام أنه كان يقول : « لباسى الصوف ، وطعامى الشعير ، وسراجى القمر ، ودابتى رجلاى ، ووسادتى ذراعى .. أبيت وليس لى شيء ، وأصبح وليس لى شيء ، وليس على وجه الأرض أغنى منى »[٢] .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٢٢

(٢) المرجع السابق : ص ١٢٥

وصاحب المبدأ والرسالات اذا تمكنت هذه القناعة من نفسه لم يعد يبالى أو يخاف .

ان رضا الانسان عن السير العام للكون والحياة ، لا يستلزم الرضا عن كل ما يراه على مسرح الحياة من شذوذ وانحراف جزئى مصدره هذا الانسان المكلف المختار .. فان رضا الانسان عن السيارات وركوبها ، ليس معناه الرضا عما تسببه من حوادث ، وما يرتكبه سائقوها من مخالفات لقواعد المرور وآداب الطريق .

لقد رضى المؤمن عن نظام الله فى الكون . ومن هذا النظام ما منح الله من عقل واختيار للانسان على أساسهما يتحمل المسئولية ، ويكون أهلا للزجر والتأديب والتقويم .

فالمؤمن راض عن نظام الوجود ، ساخط على انحراف الانسان الذى لم يقم بشكر الله على نعمة العقل والارادة التى منحها ، بل سخر نعمة الله فى غير ما خلقت له .

٥ ـ الأمن النفسى :

﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ . (الأنعام : ٨٢)

كما لا يتحسر المؤمن على الماضى باكيا حزينا ، ولا يلقى الحاضر جزوعا ساخطا ، نراه لا يواجه المستقبل خائفا وجلا ، ولا يعيش فى فزع منه ، ورهبة من غموضه ، وتوجس من جبروته ، كأنه عدو شرير متربص ، بل يعيش آمن النفس .. ان ايمانه مصدر أمنه ، والأمن من ثمرات الطمأنينة والسكينة بل هو نوع منها ، انه طمأنينة تتعلق بالمستقبل ، بكل ما يتوقعه الانسان ويخاف منه ، ولا سعادة بدون هذا الأمن النفسى .

ولا عجب أن جعل الله الجنة دار أمن وسلام كاملين ، فأهلها فى الغرفات آمنون ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وتتلقاهم الملائكة منذ اللحظة الأولى :

﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾ . (الحجر : ٤٦)

● **نموذج للخوف والاضطراب :**

« اننى أعيش فى خوف دائم ، فى رعب من الناس والأشياء ، ورعب من نفسى ، لا الثروة أعطتنى الطمأنينة ، ولا المركز الممتاز أعطانيها ، ولا الصحة ولا الرجولة ، ولا الحب .. ضقت بكل شىء ، بعد أن جربت كل شىء . اننى أكره نفسى ، وأخاف من نفسى . ألا ترى الأشباح من حولى ؟ ألا تحس بالخوف يفتح فمه لكى يلتهمنى ؟ » .

« مم هذا ؟ الهموم ؟ ليست لى هموم . ان همى الأكبر هو هذه الدنيا .. المال عندى ، والمركز والجاه ، والصحة ، والجمال والحب .. كل شىء بين يدى ، كل شىء ملكى ، لماذا أنا خائف اذن ؟ » .

« ربما كنت خائفا لأنه لا يوجد شىء أخاف منه ، ربما كنت خائفا لأن كل شىء بين يدى . ان الامتلاء كالجوع ، كلاهما يخيف !. كل ما يسعى الناس اليه ويفكرون فيه ميسر لى . ليس لى ما يشغلنى أو يتعبنى الحصول عليه .. حياتى فضاء .. لا هموم لى . اذن لابد أن أخاف ، لأننى لا أجد ما أخاف منه ، لابد أن أخاف من المجهول الذى لا أعرفه .. » .

« اننى تائه فى الحياة لأننى بلغت قمة الحياة .. ان الحياة الآن هى عدوى .. ليس ما فى الحياة ، فكله ملكته .. اننى أشعر أنها تسخر منى ، وتقف فى وجهى كالغول .. عرفت الآن مم أخاف .. انى أخاف من الحياة ذاتها » .

● **نموذج للأمن والاستقرار :**

لقد عرضنا نموذجا واضح الظلال لنفسية أولئك المحرومين من حلاوة الايمان ، وبرد اليقين . وهو يصور لنا ما يعانيه هؤلاء من خوف ورعب وقلق وتعب نفسى لم يخفف وطأته عليهم وفرة المال والجاه ونعيم الدنيا كله .

وتقرأ فى مقابل هذا نموذجا رسمه القرآن لأم مؤمنة أوحى الله اليها

أن تلقى بولدهـا فى عرض البحر ، ووعـدها برده اليها ، فاسـتجابت لايمانها ، وصدقت بكلمات ربها ووعده ، وقذفت بولدها فى التابوت ، ثم فى اليم ، ليلقيه اليم بالسـاحل ، ليأخذه عدوه المتربص ، كل هـذا وقلب الأم مطمئن بالايمان . نقرأ هذا فى قول الله سـبحانه وتعالى :

« واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه ، فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنـودهما كانوا خاطئين » . (القصص : ٧ ، ٨)

واستجابت الأم وصدقها الله وعده :

« فرددناه الى امه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حـق ولكن اكثرهم لا يعلمون » . (القصص : ١٣)

● الايمان مصـدر الأمان :

ان الناس يخافون من أشياء كثيرة ، وأمور شتى ، ولكن المؤمن أغلق أبواب الخوف كلها ، فلم يعد يخاف الا الله وحـده ، يخافه أن يكون فرط فى حقـه ، أو اعتدى على خلقه ، أما الناس فلا يخافهم ، لأنهم لا يملكون له ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

دعا أبو الأنبياء ابراهيم الى توحيـد الله ، وتحطيم الأصـنام ، فخوفه قومه من آلهتهم التى دعا الى نبـذها ، فقال ابراهيم متعجبا :

« وكيف أخاف ما اشركتم ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فاى الفريقين احق بالامن ، ان كنتم تعلمون » .

(الأنعام : ٨١)

وقد عقب الله على ذلك حاكما بين الفريقين فقال :

« الذين آمنوا ولم يلبسـوا ايمانهم بظلم أولئـك لهم الأمن وهم مهتدون » . (الأنعام : ٨٢)

وفسر النبى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ الظلم فى هذه الآية بالشرك :

﴿ ان الشرك لظلم عظيم ﴾ . (لقمان : ١٣)

فبين لنا أن الايمان والتوحيد هما أعظم أسباب الأمن والطمأنينة ، وبالتالى يكون الجحود بالله أو الشرك به ، أعظم أسباب الاضطراب والرعب . وصدق الله تعالى اذ قال :

﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ﴾ . (آل عمران : ١٥١)

● المؤمن آمن على رزقه :

هو آمن على رزقه أن يفوت ، فان الأرزاق فى ضمان الله الذى لا يخلف وعده ، ولا يضيع عبده . وقد خلق الأرض مهادا وفراشا وبساطا ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، وجعل فيها معايش ، ووعد عباده فيها بكفالة الأرزاق .. وعد كريم لا يبخل ، قدير لا يعجز ، حكيم لا يعبث :

﴿ .. وكان وعد ربى حقا ﴾ . (الكهف : ٩٨)

﴿ وعد الله ، لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ . (الروم : ٦)

﴿ ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ . (الذاريات : ٥٨)

﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون ﴾ . (الذاريات : ٢٢ ، ٢٣)

﴿ وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها .. ﴾ . (هود : ٦)

﴿ وكاين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم .. ﴾ . (العنكبوت : ٦٠)

بهذه الضمانات يعيش المؤمن حياته آمنـا على رزقه ، مطمئنا الى أن الله لن يهلكه جوعا •• فهو ـ سبحانه ـ الذى يطعم الطير فى الفضاء ، والسباع فى الفلوات ، والأسماك فى البحار ، والديدان فى الصخور •

ولقد كان المؤمن يذهب الى ميدان الجهاد حاملا رأسه على كفه ، متمنيا الموت فى سبيل عقيدته ، ومن خلفه ذرية ضعاف ، ولكنه كان يوقن أنه يتركهم فى رعاية رب كريم ، لن يتخلى عنهم •

● **المؤمن لا يخاف الموت :**

فهو لا يعيش فى خوف من الموت ، وجزع من مرارة كأسـه • انه زائر لابد من لقائه ، وقادم لا ريب فيه ، والخوف لا يرده ، والجزع لا يثنيه :

﴿ **قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ••** ﴾ •

(الجمعة : ٨)

﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ••** ﴾ •

(النساء : ٧٨)

ويهـون الموت على المؤمن أنه سبيل النـاس قبله من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فلا عليه اذا اقتفى أثرهم ، وسـار فى دربهم •• ان الموت خطب قد عظم حتى هان وخشن حتى لان :

﴿ **انك ميت وانهم ميتون** ﴾ • (الزمر : ٣٠)

﴿ **كل نفس ذائقة الموت ، وانما توفون اجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وادخل الجنـة فقد فاز ، وما الحيـاة الدنيا الا متاع الغرور** ﴾ • (آل عمران : ١٨٥)

﴿ **•• قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا** ﴾

(النساء : ٧٧)

فالموت ليس عدما محضا ، ولا فناء صرفا ، انه انتقال من حياة الى حياة ، ومن طور الى طور . فالموت انطلاق من قفص الجسد وغلافه ، ثم عودة اليه فى نشأة أخرى يوم البعث والنشور .

قيل لأعرابى اشتد مرضه : « انك ستموت - فقال : والى أين يذهب بى بعد الموت ؟ قالوا : الى الله ، فقال ويحكم ، وكيف أخاف الذهاب الى من لا أرى الخير الا من عنده ؟

وصدق الله تعالى القائل :

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم » . (فصلت : ٣٠ - ٣٢)

٦ - الأمل :

من مصادر الأمن والسكينة لدى المؤمن : ما يغمر جوانحه من أمل .. ذلك الشعاع الذى يلوح للانسان فى دياجير الحياة فيضىء له الظلمات ، وينير له المعالم ، ويهديه السبيل . ذلك هو الأمل ، الذى به تنمو شجرة الحياة ، ويرتفع صرح العمران ، ويذوق المرء طعم السعادة : ويحس ببهجة الحياة .

فالأمل اذن هو اكسير الحياة ، ودافع نشاطها ، ومخفف ويلاتها ، وباعث الهمة والسرور فيها .

والأمل - قبل ذلك كله - شىء حلو المذاق ، جميل المحيا فى ذاته ، تحقق أو لم يتحقق .

وضد الأمل اليأس .. وهو انطفاء جذوة الأمل فى الصدر ، وانقطاع خيط الرجاء فى القلب ، فهو العقبة الكئود والمعوق القاهر الذى يحطم فى النفس بواعث العمل ، ويوهى فى الجسد دواعى القوة .

فاذا يئس المريض من الشفاء كره الدواء والطبيب وكل ما يمت لهما بصلة • وضاق بالحيـاة ، ولم يعد يجديه علاج ، الا أن يعـود الأمل اليه •

ذلك هو اليأس •• سم بطيء لروح الانسان ، واعصـار مدمر لنشاطه • وتلك حال اليائسين أبد الدهر : لا انتاج للحياة ، ولا احساس بمعنى الحياة •

وليس بعجيب أن تجد هذا الصنف من الناس بوفرة بين الجاحدين بالله وضعاف الايمان به ، لأنهم عاشـوا بأنفسـهم فحسب ، وقطعوا الصلة بالكون ورب الكون ، فلا غرو أن نجـد هؤلاء المـارقين أكثر البشر يأسا ، كما نجد اليائسين أكثر الناس ، فهناك ارتباط بين اليأس والكفر فكلاهمـا سبب للآخر وثمرة له •• اليأس يلد الكفر والكفر يلد اليأس :

﴿ •• انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ﴾ •

(يوسف : ٨٧)

﴿ •• ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون ﴾ • (الحجر : ٥٦)

● **الايمان يلد الأمل :**

وفي الجانب الآخر نجد الايمان والأمل متلازمين • فالمؤمن أوسع الناس أملا ، وأكثرهم تفاؤلا واستبشارا ، وأبعدهم عن التشاؤم والتبرم والضجر • فالايمان معناه الاعتقاد بقوة عليا تدبر هذا الكون لا يخفى عليها شيء ، ولا تعجز عن شيء ، والاعتقاد بقوة غير محدودة ، ورحمة غير متناهية ، وكرم غير محـدود •• الاعتقاد باله قدير رحيم ، يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ، يمنح الجزيل ، ويغفر الذنوب ، ويقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات • اله هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وأبر بخلقه من أنفسهم •

اله يجزي الحسـنة بعشر أمثالها الى سـبعمائة ضعف أو يزيد ،

ويجزى السيئة بمثلها أو يعفو . انه يدعـو المعرض عنه من قريب ، ويتلقى المقبل عليه من بعيد ، ويقول فى الحديث القدسى : « أنا عنـد ظن عبدى بى ، وأنا معـه اذا ذكرنى ، ان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خـير منهم ، وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ، وان آتانى يمشى أتيته هرولة » . (رواه البخارى)

انه يداول الأيام بين الناس . فيبدل من بعد الخوف أمنا ، ومن بعد الضعف قوة ، ويجعل من كل ضيق فرجا ، ومن كل هم مخرجا ، ومع كل عسر يسرا .

المؤمن الذى يعتصم بهـذا الاله البر الرحيم ، العزيز الكريم ، الغفور الودود ، ذى العرش المجيد ، الفعال لمـا يريد ــ يعيش على أمل لا حد له ، ورجاء لا تنفصم عراه . انه دائما متفائل ، ينظر الى الحياة بوجه ضاحك ، ويستقبل أحـداثها بثغر باسـم ، ولا يعرف العبوس ..

فهو اذا حارب كان واثقا بالنصر ، لأنه مع الله فالله معه :

﴿ انهم لهم المنصورون . وان جندنا لهم الغالبون ﴾ .

(الصافات : ١٧٢ ، ١٧٣)

واذا مرض لم ينقطع أمله فى العافية :

﴿ الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسـقين . واذا مرضت فهو يشـفين ﴾ . (الشعراء : ٧٨ ــ ٨٠)

واذا اقترف ذنبا لم ييأس من المغفرة . ومهما يكن ذنبه عظيما فان عفو الله أعظم :

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم ﴾ . (الزمر : ٥٣)

وهـو اذا أعسر لم يزل يؤمل فى اليسر :

﴿ فان مع العسر يسرا . أن مع العسر يسرا ﴾ . (الشرح : ٥ ، ٦)

وهو اذا انتابته كارثة من كوارث الزمن كان على رجاء من الله أن يأجره فى مصيبته ويخلفه خيرا منها :

﴿ الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون ﴾ .

(البقرة : ١٥٦ ، ١٥٧)

وهو اذا رأى الباطل يقوم فى غفلة الحق أيقن أن الباطل الى زوال ، وان الحق الى ظهور وانتصار :

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق .. ﴾ .

(الأنبياء : ١٨)

﴿ .. فأما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .. ﴾ .

(الرعد : ١٧)

وهو اذا أدركته الشيخوخة ، واشتعل رأسه شيبا ، لم ينفك يرجو حياة أخرى فيها شباب بلا هرم ، وحياة بلا موت ، وسعادة بلا شقاء :

﴿ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب ، انه كان وعده ماتيا . لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ، ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ .

(مريم : ٦١ ، ٦٢)

ان المكروب يتجه الى الله — سبحانه — يسأله الصبر والرضا ، والخلف من كل فائت ، والعوض عن كل مفقود .. ويتجه اليه المظلوم آملا يوما قريبا ينتصر فيه على ظالمه ، فليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب . ويتجه اليه المحروم ليرزقه ، فلا يخيب رجاءه ..

طلب ابراهيم أبو الأنبياء — عليه السلام — من ربه أن يرزقه الولد ، وهو شيخ كبير ، قائلا :

﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ . (الصافات : ١٠٠)

فاستجاب الله له . وقد أثنى على ربه فقال :

﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ، ان ربى لسميع الدعاء ﴾ . (ابراهيم : ٣٩)

ويعقوب بعد أن طالت غيبة ولده يوسف عنه ، وبعدت مسافة الزمن بينهما ، وكان جديرا أن يفقد الأمل فى لقائه ، ثم فجع بحجز شقيقه من بعده فى حادثة صواع الملك ، لكنه مع هذا لم يتسرب الى فؤاده اليأس ، بل قال :

﴿ .. فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ، انه هو العليم الحكيم ﴾ . (يوسف : ٨٣)

وحين أبدى أسفه على ابنه يوسف قال له أبناؤه :

﴿ تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال انما اشكوا بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .
(يوسف : ٨٥ ، ٨٦)

ثم ألقى الى أبنائه بحقيقة ما فى نفسه من أمل حلو تعززه الثقة بالله أن يجمع شمله بأبنائه فقال :

﴿ يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ﴾ . (يوسف : ٨٧)

وزكريا اذ نادى ربه نداء خفيا :

﴿ قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا . وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا ﴾ .
(مريم : ٤ ـ ٦)

فاستجابت له السماء :

﴿ يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ﴾

(مريم : ٧)

﴿ وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ . (الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤)

ويونس وقد ابتلعه الحوت :

﴿ فنادى فى الظلمات أن لا اله الا انت سبحانك أنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ .
(الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨)

ومحمد يلجأ الى غار ثور فى هجرته مع صاحبه الصديق ، ويقتفى المشركون أثر قدميه ، ويقول قائدهم : لم يعد محمد هذا الموضع .. فاما صعد الى السماء من هنا ، واما هبط الى الأرض من هنا .. ويشتد خوف الصديق على صاحب الدعوة وخاتم النبيين ويبكى ويقول : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . فيقول له النبى : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، وكانت العاقبة ما ذكره القرآن الكريم :

﴿ الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم ﴾ . (التوبة : ٤٠)

هذه وقائع عرفها التاريخ الذى لا شك فيه ، وهى لا تخرج على الأسباب المعتادة للناس ، غير أن المؤمنين يوقنون أن الأسباب المعتادة لا تحد قدرة الله المطلقة . وليس ثباتها واجبا عقليا لا يقبل الانفكاك ، ولو جمد العلماء والمخترعون على ما اعتاده الناس ، وما تعارفوا عليه فى عصرهم ، ما تقدم العلم خطوة ، وما وصلنا الى عصر الذرة والفضاء .

● ضرورة الأمل فى الحياة :

الأمل لابد منه لتقدم العلوم . فلو وقف عباقرة العلم والاختراع عند مقررات زمنهم ولم ينظروا أبعد من مواقع أقدامهم ، ولم يمدهم

الأمل بروحه فى كشف المجهول ، واكتساب الجديد من الحقائق والمعارف ، ما خطا العلم خطواته الرائعة الى الأمام ووصل بالانسان الى القمر والفضاء .

والأمل لابد منه لنجاح الرسالات والنهضات ، واذا فقد المصلح أمله فقد دخل المعركة بلا سلاح يقاتل به ، فأنى يرتقب له الانتصار والفلاح ؟

واذا استصحب الأمل فان الصعب سيهون ، والبعيد سيدنو ، والأيام تقرب البعيد .

والمثل الأعلى للمسلمين سيدنا رسول الله صلوات الله عليه :

فقد ظل فى مكة ثلاثة عشر عاما يدعو قومه الى الاسلام فيتلقون دعوته بالاستهزاء ، وقرآنه باللغو فيه ، وحججه بالأكاذيب ، وآياته بالتعنت والعناد ، وأصحابه بالأذى والعذاب . فما لانت له قناة ، ولا انطفأ فى صدره أمل .

ولما اشتد أذى المشركين لأصحابه ، أمرهم بالهجرة الى الحبشة ، وقال لهم فى ثقة ويقين : « تفرقوا فى الأرض وأن الله سيجمعكم »[1] .

وفى الهجرة من مكة ، والنبى خارج من بلده خروج المطارد المضطهد الذى يغير الطريق ، ويأوى الى الغار ، ويسير بالليل ، ويختفى بالنهار .. ويذهب الرسول الكريم الى المدينة المنورة . ويبدأ فى كفاح دام مرير مع طواغيت الشرك ، وأعوان الضلال . وتسير الحرب ـ كما هى سنة الله ـ سجالا ، حتى تأتى « غزوة الأحزاب » ، فيتألب الشرك الوثنى بكل عناصره ، والغدر اليهودى بكل تاريخه . ويشتد الأمر على النبى وأصحابه : قريش وغطفان ومن معهما من خارج المدينة ، واليهود والمنافقون من الداخل . موقف عصيب صوره القرآن بقوله :

---

(١) المرجع السابق : ص ١٤٣

﴿ اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ . (الاحزاب : ١٠ ، ١١)

فى هذه الساعات الرهيبة التى يذوى فيها عود الامل ، ويخبو شعاع الرجاء ، ولا يفكر المرء الا فى الخلاص والنجاة .. فى هذه اللحظات والنبى يسهم مع أصحابه فى حفر الخندق حول المدينة ليصدوا بحفره الغزاة ، ويعوقوا الطامعين العتاة ــ يحدث النبى أصحابه عن الغد المأمول ، والمستقبل المرجو حين يفتح الله عليهم بلاد كسرى بفارس ، وبلاد قيصر بالشام ، وبلاد اليمن بالجزيرة ، حديث الواثق الذى أثار أرباب النفاق فقالوا فى ضيق وحنق : ان محمدا يعدنا كنوز كسرى وقيصر . وأحدنا لا يأمن أن يذهب الى الخلاء وحده ! أو كما يقول القرآن الكريم :

﴿ واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ﴾ . (الاحزاب : ١٢)

ماذا تسمى هذا الشعاع الذى يبزغ فى دياجير الأحداث من القلوب الكبيرة ، فينير الطريق ويبدد الظلام ؟ انه الأمل ، وان شئت فهو الايمان بنصر الله :

﴿ ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . (الروم : ٥ ، ٦)

٥ ــ الثبات فى الشدائد :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجبا لأمر المؤمن ، ان أمره كله خير ــ وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ــ ان أصابته سراء شكر ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » . (رواه مسلم)

الأمل والأمن ، والرضا والحب ، والسكينة النفسية ، ثمار شهية لغراس العقيدة فى نفس المؤمن ، وذخائر لا تنفد لامداده فى معركة

الحياة ، وانها لمعركة طويلة الأمد ، كثيرة التكاليف ، محفوفة بالأخطار والمشقات .. ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا ، وطبيعة البشر فيها ، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه ، وشدائد تحل بساحته .

واذا كان هذا سنة الله فى الحياة عامة ، وفى الناس كافة ، فان أصحاب الرسالات خاصة أشد تعرضا لنكبات الدنيا وويلاتها .. انهم يدعون الى الله فيحاربهم دعاة الطاغوت ، وينادون بالحق فيقاومهم أنصار الباطل ، ويهدون الى الخير فيعاديهم أنصار الشر ، ويأمرون بالمعروف فيخاصمهم أهل المنكر .. وبهذا يحيون فى دوامة من المحن ، وسلسلة من المؤامرات والفتن ، سنة الله الذى خلق آدم وابليس ، وموسى وفرعون ، ومحمدا وأبا جهل . قال تعالى :

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا .. ﴾ . (الأنعام : ١١٢)

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين .. ﴾ .

(الفرقان : ٣١)

هذا شأن الأنبياء ، وشأن ورثتهم ، والسائرين على دربهم ، والداعين بدعوتهم ، مع الطغاة الصادين عن سبيل الله :

﴿ وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ .

(البروج : ٨)

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أشد بلاء فقال : « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه . فان كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وان كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » .
(رواه الترمذى)

والمؤمنون هم أصبر الناس على البلاء ، وأثبتهم فى الشدائد ،

وأرضاهم نفسا في الملمات .. فلقد عرفوا قصر عمر الدنيا بالنسبة لعمر الخلود ، فلم يطمعوا أن تكون دنياهم جنة قبل جنة الخلود :

﴿ .. قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى .. ﴾ .
(النساء : ٧٧)

﴿ .. وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴾ (آل عمران : ١٨٥)

وعرفوا سنة الله في « الانسان » الذى ابتلى بنعمة حرية الارادة ، والاستخلاف في الأرض . فلم يطمعوا أن يكونوا ملائكة أولى أجنحة :

﴿ انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه .. ﴾ .
(الانسان : ٢)

﴿ لقد خلقنا الانسان في كبد ﴾ . (البلد : ٤)

وعرفوا من سنن أنبيائهم ورسلهم أنهم أشد الناس بلاء في الحياة الدنيا ، وأقل الناس استمتاعا بزخرفها ، فلم يطمعوا أن يكونوا خيرا منهم ، ولهم فيهم أسوة حسنة :

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا ان نصر الله قريب ﴾ . (البقرة : ٢١٤)

وعرفوا أن ما ينزل بهم من مصائب ليس ضربات عمياء ، ولا خبط عشواء ، ولكنه وفق قدر معلوم ، وقضاء مرسوم ، وحكمة أزلية ، فآمنوا بأنه ما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم :

﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ، ان ذلك على الله يسير ﴾ . (الحديد : ٢٢)

وعرفوا أن من صفاته تعالى أن يقدر ويلطف ، ويبتلي ويخفف :

﴿ .. ان ربى لطيف لما يشاء ، انه هو العليم الحكيم ﴾ .
(يوسف : ١٠٠)

وعرفوا من لطف ربهم أن هذه الشدائد دروس قيمة لهم ، وتجارب نافعة لدينهم ودنياهم ، تنضج نفوسهم ، وتصقل ايمانهم ، وتذهب صدأ قلوبهم •

والمؤمن ينظر بعين بصيرته فيحمد الله على أمرين :

أولهما : دفع ما كان يمكن أن يحدث من بلاء أكبر •

وثانيهما : بقاء ما كان يمكن أن يزول من نعمة غامرة وفضل جزيل • فهو ينظر الى النعمة الموجودة قبل أن ينظر الى النعمة المفقودة ، وينظر الى البلاء المتوقع بجانب نظره الى البلاء الواقع ••

هذا بلا شك يحدث كثيرا من الارتياح والرضا ، فالبلاء المتوقع كثير وقد دفع عنه ، والنعم الموجودة كثيرة وقد بقيت له •

ورجاء مثوبة الله تعالى على ما يبتلى به الانسان فى دنياه نعمة روحية أخرى تهون على الانسان البلاء • وهذه المثوبة تتمثل فى تكفير السيئات ، وما أكثرها !! وزيادة الحسنات ، وما أحوج الانسان اليها !! وفى الحديث الصحيح :

« ما يصيب المسلم من هم ولا غم ولا نصب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه »(١) •

٦ ـ الايمان والأخلاق :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا » • (رواه الترمذى)

اذا تأملنا فى عالم الحيوان وجدنا غريزته تهديه الى تنظيم حياته وتدبير أمره ، منفردا ومجتمعا ، كما نشاهد ذلك فى جماعة النمل ، وكيف تعمل فى تعاون واتساق لجمع أقواتها ، وادخارها فى جحورها الى فصل الشتاء ، حيث لا تستطيع الاستمرار فى طلب الرزق • ويتضح ذلك أيضا بجلاء فى مملكة النحل ، التى تقوم دولتها على ملكة وعاملات

---

(١) الايمان والحياة « مرجع سابق » : ص ١٦٦

وذكور ــ يقوم كل منها بدوره فى الجماعة فى دقة وتعاون واتساق .
وتلك آية من آيات الله للمتفكرين فى هذا النظام الدقيق الذى هــداها الله اليه أو أوحى اليها به ــ وفق تعبير القرآن الكريم :

﴿ وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ . (النحل : ٦٨ ، ٦٩)

ذلك شأن الغريزة فى الحيوان .

أما الانسان فغرائزه متعددة متنوعة ، معقدة ومركبة غير بسيطة .. فمنها الفردى الذى يدفع الى الأنانية والأثرة ، والاجتماعى الذى يغرى بالتعاون والايثار . ومنها ما يهبط الى حضيض المــادة ، ومنها ما يسمو به الى أفق الروح . ذلك أن الانســان ذاته مخلوق مركب ، فهو جسد وروح ، وشهوة وعقل ، وملاك وشــيطان . ولا يســتخدم علم النفس الحديث لفظ « الغرائز » بالنسبة للانسان ، ويستخدم لفظ « الفطرة »..
ترى ما الذى يضع للانسان القواعــد الأخلاقية الســليمة الصحيحة ؟ وما الذى يحدد للانسان سلوكه المستقيم ، ويرسم له سلوكه المستقيم ؟ ويرسم له طريقا موصلا الى غاية لا عوج فيه ؟ ويدفعه الى السير فى هذا الطريق القويم ؟

هل هو القانون ؟ أم هى الفلســفة الأخلاقيــة ؟ أم هو الدين ؟.. سنحاول أن نلقى بعض الضوء على كل من هذه الثلاثة ..

● القانون وحده لا يكفى لضبط السلوك الانسانى :

القانون أمر لابد منه لتنظيم شــئون الجماعة وتحديد علاقاتها ، ولكنه لا يصلح وحده ضابطا لسلوك البشر ، لأن سلطانه على الظاهر وليس على الباطن ، ودائرته فى العلاقات العامة لا فى الشئون الخاصة ، ومهمته أن يعاقب المسىء دون أن يســتطيع مكافأة المحسن . غير أن التحايل على القوانين ميسور ، وتطويع نصوصها للأهواء مســتطاع ،

والهرب من عقوبتها ليس بالشيء العسير . واذا كان القانون عاجزا عن أن يكون زاجرا عن الشر ورادعاً عن الجريمة والفساد ، فانه الأعجز عن أن يكون دافعا الى خير أو باعثا على حق أو حافزا على عمل صالح .

ومهما افترضنا فى القانون الانسانى من مطابقة العدل والحق ، فانه على كل حال ليس له قوة ذاتية وانما قوته فى « الحكومة » القائمة على رعايته وتنفيذه .

● الفلسفة الأخلاقية لا تغنى :

وأما الفلسفة الأخلاقية فلا يمكنها توجيه الجماهير الغفيرة من الناس . انها لا تستطيع الا توجيه أفراد محدودين ، وبتأثير محدود لا ينفذ الى الأعماق كما ينفذ الى الدين .. ثم أى فلسفة أخلاقية تلك التى يتبعها الناس ، وكل فيلسوف له مذهب وكل مذهب له مقياس ؟ أهى فلسفة المنفعة التى نادى بها « وليم جيمس » وغيره ، أم فلسفة اللذة التى نادى بها « أبيقور » ، أم فلسفة القوة التى نادى بها « نيتشه » أم فلسفة الواجب التى دعا اليها « كنت » ؟

ما الجزاء الذى يناله المرء على استمساكه بفضائل أخلاقية معينة ؟ أهو جزاء يقنع العقل ويرضى النفس ، أم هو سراب ؟

● الأخلاق لا الفلسفة الأخلاقية :

ورفضنا للفلسفة الأخلاقية ليس رفضا للأخلاق نفسها .. فالأخلاق ملاك الفرد الفاضل ، وقوام المجتمع الراقى ، يبقى ويستقر ما بقيت ، ويذهب ويتلاشى ان ذهبت ، بل لا حياة له بغيرها .

وللأخلاق فى نظر الدين عامة ، والاسلام خاصة ، محل رفيع ، ومكان فسيح . والقرآن الكريم أثنى على خير الرسل محمد عليه السلام بقوله :

﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ . (القلم : ٤)

ويلخص النبى رسالته فيقول : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (رواه البخارى)

وقد جاء فى الحديث النبوى الشريف : « أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا » . (رواه الترمذى)

وقال أيضا : « البر حسن الخلق » . (رواه مسلم)

وقال : « ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن » . (رواه الترمذى)

ذلك هو شأن الأخلاق فى الدين وفى المجتمع .. وهى فى الدين ركن ركين ، وهى فى المجتمع أساس مكين .

● **لا اخلاق من غير دين :**

ان الدين لا يقف عند حد الدعوة الى مكارم الأخلاق وتمجيدها . بل انه هو الذى يرسى قواعدها ويحدد معالمها ، ويضبط مقاييسها الكلية ، ويضع الأمثلة للكثير من جزئيات السلوك ، ثم يغرى بالاستقامة ، ويحذر من الانحراف ، ويضع المثوبة والعقوبة على كلا السلوكين نصب العين .

وبدون الدين لا يمكن أن تكون هناك أخلاق ، وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون !.

فالدين هو المصدر الفذ المعصوم الذى يعرف منه حسن الأخلاق من قبيحها . والدين هو الذى يربط الانسان بمثل أعلى يرنو اليه ، ويعمل له . والدين هو الذى يحد من أنانية الفرد وسيطرة عاداته ويخضعها لأهدافه ومثله ، ويربى فيه الضمير الحى الذى على أساسه يرتفع صرح الأخلاق .

● **الايمان والمثل الأعلى :**

ما هو هم الانسان الذى لا دين له ولا عقيدة ؟ وما غايته من وجوده ؟ وما رسالته فى الحياة ؟

انه لا هم له ولا غاية ولا رسالة الا أن يدور فى فلك نفسه ،

ويتبع هواها ويحقق رغائبها العاجلة ، ويسير خلف دوافعها أيا كانت ، وفقا لمزاجه وتكوينه الخاص ..

فان كان مزاجه من النوع « العصبى » جعل همه العلو فى الأرض والاستكبار على النـاس ، واظهـار السـلطة والتحكم فى الرقاب ، والاختيال بفعاله . ولم يهمه فى سـبيل ذلك أن يبنى قصرا من جماجم البشر ، وأن يزخرفه بدماء الأبرياء .

وان كان يغلب عليه الجانب « الشـيطانى » دبر المكائد ، وفرق بين الأحبة ، وزين الاثم ، وأغرى بالفاحشة ، وأوقع العداوة والبغضـاء بين الناس . وكان ممن حق عليهم قول الله تعالى :

﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ .

(الرعد : ٢٥)

وهكذا يدور كل واحد من هؤلاء حيث تدور نفسه ، وينقاد لأمر هواه ، والهوى يعمى ويصم ، والهوى اله معبود :

﴿ .. ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله .. ﴾ .

(القصص : ٥٠)

أما المؤمن فانه يعيش لرسالة كبيرة ، ويعمل لهدف رفيع ، ويحيـا فى ظل مثل عليا ، يعيش لها ويموت عليها هى : القربى الى الله ، والسعى الى مرضاته . وفى سبيل ذلك يكبح جماح نفسه ، ويقمع طغيان هواه ، ويضغط على غرائزه وشهواته ، احتسابا لله وايثارا لمـا عنده ، وابتغاء مرضاته ، وايمانا بحسن الثواب لديه ، وقد وضع نصب عينيه قول ربه جل شـأنه :

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المـآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا

عنـد ربهم جنـات تجرى من تحتها الأنهـار خالدين فيها وازواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عـذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسـحار ﴾ . (آل عمران : ١٤ : ١٧)

فهذه هى الثمرات الأخلاقية للايمان ، وهذه هى صـفات المؤمن التقى الذى آثر ما عند الله على شهوات الحياة .. خشية من الله وحرص على رضـاه ومغفرته ، وصبر وصـدق وقنـوت وانفـاق ، بلا ادعاء ولا غرور ، بل شعور بالتقصير ، يجعله يستغفر الله على كل حال .

ان المثل الأعلى للمؤمن أن يقترب من الله فى علاه ، ويحصل على مثوبته ورضاه . وهذا يجعل حياته كلها موصولة الأسباب بالله ، ويجعله يحيا دائما وهو يرجو الله والدار الآخرة ، ويجعل أكبر همـه أن يتخلق بالصفات التى يرضى عنها الله سـبحانه ، وينأى بنفسـه عن مشـابهة الأنعام والشياطين .

● **أثر الايمان فى تكوين الضـمير :**

الايمان ــ بلا ريب ــ هو أعظم مدد للضمير ، وأقوى « مولد » يغذيه ويمده « بالتيار » الذى يمنحه القوة والحركة .. فعقيدة المؤمن فى الله أولا ، وعقيدته فى الحساب والجزاء ثانيا ، تجعل ضميره فى حياة دائما وفى صحو أبدا .

انه يعتقد أن الله معه حيث كان ، لا يخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية :

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيـامة ، ان الله بكل شىء عليم ﴾ . (المجادلة : ٧)

﴿ وما تكون فى شـأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شـهودا اذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة

في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين ﴾ .
(يونس : ٦١)

وقد كان المشركون يأتمرون برسول الله صلى الله عليه وسلم فينزل الوحى من الله يفضح سترهم ، ويكشف أمرهم فقال بعضهم لبعض : غضوا أصواتكم حتى لا يسمعنا اله محمد ، فنزل قول الله تعالى :

﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به ، انه عليم بذات الصدور . الا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير ﴾ .
(الملك : ١٣ ، ١٤)

ويعتقد المؤمن لذلك أنه محاسب يوم القيامة على عمله ، مجزى به ان خيرا أو شرا ، فما تقدم من عمل لم يذهب بذهاب أيامه ، بل كتبه « قلم التسجيل » الالهى ، الذى يحصى له وعليه الصغيرة والكبيرة :

﴿ اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ﴾ .
(ق : ١٧ ، ١٨)

﴿ وان عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾ .
(الانفطار : ١٠ — ١٢)

﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ، ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ .
(الزخرف : ٨٠)

٦ — البذل والتضحية :

فى الانسان بلا شك نزعة اجتماعية غيرية فطرية ، ولكنها لا تقاوم نزعته الذاتية لو تركت وشأنها . ومن هنا نرى الانسان حريصا على أن يجمع لنفسه من أسباب النعمة ما استطاع ، وحريصا على الاستئثار به دون غيره ، حتى أنه ليشيب ويهرم ، ويشب معه الحرص والشح ، ولذا وصفه خالقه بقوله :

﴿ .. وكان الانسان قتورا ﴾ . (الاسراء : ١٠٠)

﴿ .. وأحضرت الأنفس الشح .. ﴾ . (النساء : ١٢٨)

وصور رسول الله صلى الله عليه وسلم حرص الانسان على الدنيا وطمعه فى متاعها فقال : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا »[1] .

واذا ترك الانسان لهذه الأنانية تسيطر على نفسه ، وتحكم سلوكه ، وتوجه علاقاته بالناس ، فلن تجد فيه الا انسانا جشعا شحيحا ، كل همه أن ينتفع ولا ينفع أحدا ، وأن يأخذ ولا يعطى ، يريد أن يربح ، ولا يريد أن يعمل ، ضنين بكل ما عنده ، شره الى ما عند غيره .

والانسان اذا ترك ونزعته الفردية ، فانه يؤثر ــ غالبا ــ السلامة ولا يرضى بتعريض نفسه لخطر أو أذى ، من أجل فكرة أو رسالة أو مصلحة كبرى . ولو سرت هذه الروح ، روح طلب السلامة ، لوقفت عجلة الرقى وأفلت شمس الحضارة ، وانطمست معالم الحق ، وغاضت ينابيع الخير .. فان رسالات النبيين ، وأفكار المصلحين ، لم تعل كلمتها الا ببذل النفس والمال والتضحية بكل غال وعزيز فى سبيل الوطن والأهل والعشيرة .

والمجتمع الذى يريد أن يبنى مجدا ، ويشيد حضارة ، وينهض برسالة ، فى حاجة الى جهود مضاعفة للبناء والرقى والنهوض . فى حاجة الى عقول لا تسأم التفكير ، والى سواعد لا تشكو التعب ، والى عزائم لا تشكو الملل والفتور ، فى حاجة الى الانسان الذى يعطى قبل أن يأخذ ، ويؤدى الواجب قبل أن يطلب الحق ، والانسان الذى تقر عينه بفراق الأهل من أجل الأمة ، ويطيب نفسا ببذل المال عند الحاجة ، وبذل الروح عند الضرورة ، ويضحى بمصلحته الخاصة فى سبيل المصلحة العامة ، ويرضى بالتقشف والحرمان ، اذا كان فيه انتصار لحق أو خير .

فليت شعرى أين يوجد هذا الانسان ؟ ومن أى مدرسة يتخرج ؟..

---

(١) الايمان والحياة « مرجع سابق » : ص ٢٢١

لعمرى ان المدرسة الفذة التى تخرج هذا الصنف من الناس هى مدرسة « الايمان » .

الايمان هو الذى يهون على الانسان شهواته ومطالب دنياه . فاذا هو يكتفى بما يسد رمقه من الطعام ، وما يستر العورة من اللباس . واذا هو يرضى بالقليل من المال ، والمتواضع من المسكن . بل يهون عليه ماله فينفقه فى سبيل الله ، وسكنه فيهجره ، وأهله فيرحل عنهم ، بل يهون عليه حياته نفسها ، فاذا هو يضع رأسه على كفه ، ويخوض المعامع ، رابط الجأش راضى النفس ، مطمئن الضمير . فاذا أدركه الموت فى ميدان الجهاد ، استقبله بارتياح وسرور ، لأنه يوقن أن وراءه الجنة :

﴿ .. ورضوان من الله أكبر .. ﴾ . (التوبة : ٧٢)

فلا عجب أن ترى دينا كالاسلام يقدم لنا ــ فى مرحلة قوته وازدهاره ــ نماذج رائعة للتضحية والبذل والكفاح والجهاد ، وبأعداد هائلة ، تقدم ما تملك من نفس ومال فى سبيل الله وهى قريرة العين .

٧ ــ القوة :

للانسان فى الحياة آمال عريضة ، وأهداف قريبة وبعيدة ، ولكن الطريق اليها شائك وطويل ، والعقبات كثيرة ومتنوعة ، والمعوقات كثيرة ، بعضها من الطبيعة والبعض الآخر من البشر أنفسهم . فلا عجب أن يظل الانسان فى جهاد دائب وعمل متواصل ، كى يتغلب على المعوقات ويحقق الأهداف والآمال .

وما أشد حاجة الانسان الى قوة تسنده وتشد أزره ، وتأخذ بيده ، وتذلل له العقبات ، وتنير له الطريق . وليست هذه القوة المنشودة الا فى ظلال العقيدة ، ورحاب الايمان بالله .

فالايمان بالله هو الذى يمدنا بروح الثقة ، وقوة الروح . فالمؤمن لا يرجو الا فضل الله ، ولا يخشى الا عذاب الله ، ولا يبالى بشىء فى جنب الله . انه قوى وان لم يكن وراءه عشيرة وأتباع ، راسخ وان

اضطربت سفينة الحيــاة وأحاط بها الموج من كل مكان • فهو بايمانه أقوى من الموج والرياح • وفى الحديث النبوى الشريف : « لو عرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال »[1] •

وهذه القوة فى الفرد مصدر لقوة المجتمع كله • وما أسعد المجتمع بالأقوياء الراسخين من أبنائه ، وما أشقاه بالضــعفاء الذين لا ينصرون صديقا ، ولا يخيفون عدوا ، ولا تقوم بهم نهضة •

● مصادر القوة عند المؤمن :

(أ) الايمان بالله :

المؤمن قوى ، لأنه يســتمد قــوته من الله العلى الكبير ، الذى يؤمن به ويتوكل عليه ، ويعتقد أنه معه حيث كان ، وأنه ناصر المؤمنين ، عزيز لا يذل من توكل عليه ، حكيم لا يضيع من اعتصم بحكمته وتدبيره :

﴿ •• ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم ﴾ • (الانفال : ٤٩)

﴿ ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ • (آل عمران : ١٦٠)

والتوكل على الله ــ وهــو من ثمار الايمان ــ انه معنى حافز ، وشحنة نفســية ، تغمر المؤمن بقوة المقــاومة ، وتملؤه بروح التحدى والاصرار ، وتشحذ فيه العزم الصارم والارادة • والقرآن الكريم يقص علينا كثيرا آثار هذا التوكل فى نفوس رسل الله ، ازاء أعداء الله ••

(ب) الايمان بالحــق :

يستمد المؤمن قوته من الحــق الذى يعتنقه ، فهو لا يعمل لنزوة طارئة أو لمنفعة شخصية ، ولا للبغى على أحــد من البشر • ولكنه يعمل للحق الذى قامت عليه السموات والأرض ، والحق أحق أن ينتصر ، والباطل أولى أن يندثر • قال تعالى :

---

(١) الايمان والحياة « مرجع سابق » : ص ٢٢٨

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق .. ﴾ .

(الأنبياء : ١٨)

﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا ﴾ .

(الاسراء : ٨١)

المؤمن بايمانه بالله وبالحق على أرض صلبة غير خائر ولا مضطرب ، لأنه يعتصم بالعروة الوثقى ، ويأوى الى ركن شديد :

﴿ .. فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .. ﴾ .

(البقرة : ٢٥٦)

فليس هو مخلوقا ضائعا ، ولا كما مهملا ، انه خليفة الله فى الأرض . ان تظاهر عليه أهل الباطل ، فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير . فكيف يضعف المؤمن أمام البشر ومن ورائه الملائكة ؟ بل كيف ينحنى للخلق ومعه الخالق ؟ :

﴿ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء .. ﴾ .

(آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤)

(ج) الايمان بالخلود :

ويستمد المؤمن قوته من الخلود الذى يوقن به ، فحياته ليست قاصرة على تلك الأيام المحدودة ، انها حياة الأبد ، وانما ينتقل من دار الى دار .

(د) الايمان بالقدر :

ويستمد المؤمن قوته من القدر الذى يؤمن به ، فهو يعلم أن ما أصابه من مصيبة فباذن الله ، وأن الانس والجن لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشىء لم ينفعوه الا بشىء قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشىء ، لم يضروه الا بشىء قد كتبه الله عليه :

﴿ **قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنـون** ﴾ . (التوبة : ٥١)

المؤمن يعتقد أن رزقه مقسوم ، وأجله محدود ، لا يستطيع أحد أن يحول بينه وبين ما قسم الله له من رزق ، ولا أن ينتقص ما كتب الله له من أجل . وهذه العقيدة تعطيه ثقة لا حدود لها ، وقوة لا تقهرها قوة بشر . وقد كان الرجل يذهب الى الميدان مجاهدا فى سبيل الله فيعترض سبيله المثبطون ويخوفونه من ترك أولاده ، فيقول : علينا أن نطيعه تعالى كما أمرنا ، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا .

(هـ) الايمان بالأخـوة :

ويستمد المؤمن قوته من اخوانه المؤمنين ، فهو يشعر أيهم له وهو لهم يعينونه ، ويحفظونه اذا غاب ، ويواسونه عند الشدة ، ويؤنسونه عند الوحشة ، ويأخذون بيده اذا عثر ، ويسندونه اذا خارت قواه . فهو حين يعمل يحس بمشاركتهم ، وحين يجاهد يضرب بقوتهم .

● **من ثمار هذه القوة فى نفس المؤمن وأخلاقه :**

(أ) التزام الحق مع القريب والبعيد :

من ثمار هذه القوة النفسية ومظاهرها فى المؤمن ، الصدق فى كل حال ، والعدل فى كل حين . فهو يعترف بالخطأ اذا زلت قدمه غير جاحد ولا مكابر ، فلا يبرر خطأه بخطأ آخر ، أو بالقاء التهمة على غيره . وهو يقول الحق ولو كان مرا ، ويقوم لله شهيدا بالقسط ولو على نفسه أو الأقربين ، ويعدل مع العدو عدله مع الصديق ، لا يعرف التحيز ولا المحاباة .

ومن أمثلة ذلك فى قادة المسلمين أنه بلغ الخليفة عمر بن عبد العزيز أن ابنا له اشترى خاتما فصه بألف درهم ، فبعث اليه يقول : أما بعد .. فقد بلغنى انك اشتريت خاتما فصه بألف درهم ، فاذا بلغك كتابى هذا فبعه وأطعم بثمنه ألف جائع ! واشتر خاتما فصه من حديد ، واكتب عليه : رحم الله امرءا عرف قدر نفسه ..

(ب) الاستهانة بالقوى المـادية :

ومن مظاهر هذه القوة شجاعته في مواطن اليأس وثباته في مواقف الشدة ، لا يخشى الناس مهما كثر عددهم ، ولا يبالي بالأعداء انسدت أبواب الخوف كلها في نفسه ، فلم يعد يخاف الا من ذنبه ، ومن سخط ربه . واذا قيل له : ان أعداءك أكثر عددا تلا قول الله تعالى :

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله .. ﴾ .
(البقرة : ٢٤٩)

واذا قيل انهم أكثر مالا .. قرأ عليهم :

﴿ ان الذين كفروا ينفقــون أموالهم ليصــدوا عن ســبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ﴾ . (الانفال : ٣٦)

واذا حذروه من مكرهم وكيدهم أجابهم بما قال الله تعالى :

﴿ ومكروا ومكر الله ، والله خير المـاكرين ﴾ . (آل عمران : ٥٤)

انه يســير بمعونة الله ، وينظر بنور الله ، ويقاتل بسيف الله ، ويرمى بقوة الله :

﴿ فلم تقتلوهــم ولكن الله قتلهم ، وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى .. ﴾ . (الانفال : ١٧)

ان المؤمن لا يستبعده منطق المـادة ، ولا لغة الأرقام ، ولذا يقدم من ألوان التضحيات وضروب البذل والفــداء ما يعتبره بعض الناس تهورا أو جنونا .

(ج) الاخلاص في القــول والعمــل :

ومن مظاهر هــذه القوة ، اخلاصه القول والعمل والنية لوجــه ربه .. فتراه يعمل الخير ، ويحارب الشر ، وان لم يكن له فيه نفــع مادي ولا هوى شخصي . لا يهمه الشــهرة أو الجاه أو رضا الناس . بل يؤثر الخفــاء على الشــهرة ، وعمل السر على عمل العلانية ، تجنبا

للرياء ، وبعداً بالنفس عن المزالق ، متمنيا أن يكون ممن يحبهم الله ، من الأبرار الأتقياء ، محاولا أن يكون كالجذع من الشجرة يمدها بالغذاء وهو فى باطن الأرض لا تراه العيون ، وكالأساس من البنيان ، يختفى فى الأعماق وهو الذى يمسك البناء أن يزول .

ومن مظاهر هـذه القوة عند المؤمن وضوح خطته ، واستقامة طريقته وثباته عليها ، لا يغريه وعد ، ولا يثنيه وعيده ، ولا ينحرف به طمع متسلط أو هوى جائر ، أو شهوة طاغية . فهو دائما داع الى الخير . ثائر على الشر ، آمر بالمعروف ، ناه عن المنكر ، هاد الى الحق والعدل ، مقاوم للباطل والظلم ، يغير المنكر بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان .

(د) التحرر من الخوف والحرص :

ومن ثمار هـذه القوة التحرر من الخوف والحرص .. فلقد رأينا الناس لا يضعف نفوسهم شيء كالحرص على الحياة وان تكن ذليلة ، والهرب من الموت وان كان كريما ، ولا يغرس فيهم القوة شيء كالاستهانة بالحياة ، والاقبال على الموت فى سبيل الحق الذى يعتقدونه ولا شيء كالايمان بالله وبالخلود يهون على الانسان لقاء الموت وفراق الحياة .

والمرء اذا هانت عليه الدنيا ، ولم يبال بالموت .. هان عليه جبابرة الأرض ، وعظماء الناس ، ونظر الى الذهب كما ينظر الى الحجر ، والى السيف كما ينظر الى العصا .

(هـ) الاستخفاف بالجبابرة والطغاة :

ولقد برزت هـذه القوة فى مقاومة المؤمنين للطغاة فى الداخل ، والغزاة من الخارج ، ورأينا ذلك بارزا للعيان فى أمثلة شتى .. فى القديم والحديث ...

ان التصديق بالحق واعلانه عنصر ضرورى للحياة الاسلامية . فان فصل عنها فقدت أكبر ما تمتاز به ، لأن الاسلام أسس قومية المسلم

عليه ، وجعلهم شهداء الحق على العالم كله . فكما يجب على الشاهد الا يتوانى فى أداء فرضه بمصيبة أو بلاء ، بل يصدع حيثما كان ، ولو لاقى دونه الموت .

ولهذا نجد « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » من أكبر الفرائض الاسلامية .. فالتوحيد أساس الاسلام وقطب رحاه . والتوحيد يعلم المسلمين أن الخوف والخشوع لا يكون الا لله الواحد الصمد العظيم ، أما غيره فلا يخاف منه ولا يخشع له ، وان من يخشى غير الله فهو مشرك به ، وجاعل غيره أهلا للخوف والطاعة ، وهذا ما لا يجتمع مع التوحيد أبدا .

فالاسلام من أوله الى آخره دعوة عامة الى البسالة والجرأة والتضحية والاستهانة بالموت فى سبيل الحق . والقرآن الكريم يكرر :

﴿ .. ولا يخشون أحدا الا الله ، وكفى بالله حسيبا ﴾ .
(الأحزاب : ٣٩)

﴿ وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله .. ﴾ .
(التوبة : ١٨)

﴿ .. ولا يخافون لومة لائم .. ﴾ . (المائدة : ٥٤)

﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ . (الزمر : ٣٦)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .
(رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه)

وقد كان صلى الله عليه وسلم يأخذ العهد من أصحابه أينما كانوا .
(متفق عليه)

٨ ـ الرحمة :
الانسان من غير قلب أشبه بالآلة الصماء ، والحجر الصلد ، فان

حقيقة الانسان ليست فى هـذا الغلاف الطينى من لحم ودم وعظم ، وانما هى تلك اللطيفة الربانية ، والجوهرة الروحية ، التى بها يحس ويشعر وينفعل ويتأثر ويتألم ويرحم ، وهى القلب الحى .

ومن أخص أوصاف المؤمن أنه يتميز بقلب حى مرهف لين رحيم ، يتجاوب به مع الأحداث والأشخاص ، فيرق للضعيف ، ويألم للحزين ، ويحنو على المسكين ، ويمد يده الى الملهوف . وبهذا القلب الحى الرحيم ينفر من الايذاء ، ويصبح مصدر خير وبر وسلام لما حوله ومن حوله .

● رحمة المؤمن من رحمة الله تعالى :

المؤمن انسان ذو قلب رحيم ، لأن مثله الأعلى أن يتخلق بأخلاق الله تعالى ، وأن يكون له حظ من أسمائه الحسنى .

ومن أوضح الأخلاق الالهية « الرحمة » التى وسعت كل شيء ، وشملت المؤمن وغير المؤمن ، والبر والفاجر ، واستوعبت الدنيا والآخرة . وقد قرب الرسول الكريم — صلى الله عليه وسلم — لأصحابه هـذا المعنى على طريقته فى انتهاز الأحداث والمناسبات فرصا لغرس المبادىء والمعانى التى يريدها .

ومن أبرز أسماء الله الحسنى اسما « الرحمن الرحيم » ، وهما أشهر الأسماء بعد لفظ الجلالة « الله » والمؤمن بالقرآن كلما تلا كتاب الله أو بدأ بسورة منه ، افتتحها بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » فى مائة وثلاث عشرة سورة منه . وحسبنا أن يردد المؤمن هذين الاسمين فى صلاته المكتوبة ما لا يقل عن أربع وثلاثين مرة فى اليوم .. فهو كلما أدى ركعة قرأ فاتحة الكتاب :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . الحمـد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم ﴾ . (الفاتحة : ١ — ٣)

وهى سبع عشرة ركعة فى الصلوات الخمس المفروضة على المسلم فى يومه . فاذا أدى السـنن زاد ضعف ذلك ، فاذا رغب فى النافلة ، زاد ما شـاء الله أن يزيد .

وحظ العبد من اسم « الرحيم » : ألا يدع فاقة لمحتاج الا ويسدها بقدر طاقته ، ولا يترك فقيرا فى جواره الا ويقوم بتعهده ودفع فقره اما بماله أو جاهه أو الشفاعة الى غيره ، فان عجز عن جميع ذلك ، فيعينه بالدعاء ، واظهار الحزن ، رقة عليه وعطفا .

● من لا يرحم لا يرحم :

المؤمن يعتقد أنه دائما فقير الى رحمة الله تعالى ، فبهذه الرحمة الالهية يعيش فى الدنيا ويفوز فى الآخرة . ولكنه يوقن أن رحمة الله لا تنال الا برحمة الناس :

« انما يرحم الله من عباده الرحماء » ، « ومن لا يرحم لا يرحم » .

« ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »[1] .

ورحمة المؤمن لا تقتصر على اخوانه المؤمنين ـ وان كان دافع الايمان المشترك يجعلهم أولى الناس بها ـ وانما هو ينبوع يفيض بالرحمة على الناس جميعا . وقد قال رسول الاسلام لأصحابه :

« لن تؤمنوا حتى ترحموا . قالوا : يا رسول الله ، كلنا رحيم . قال : انه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة » .

(رواه الطبرانى)

ومن صفات المؤمنين فى القرآن :

﴿ .. وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ . (البلد : ١٧)

● من آثار الرحمة فى المجتمع الاسلامى :

لقد برز أثر ذلك الخلق العظيم فى العلاقات الاجتماعية الداخلية فى المجتمع الاسلامى .. فرأينا المجتمع المسلم تسوده عواطف كريمة ومشاعر نبيلة ، كلها تفيض بالرفق والرحمة ، وتتدفق بالبر والخير . وتجلت هذه المشاعر والعواطف فيما عرف بنظام « الوقف الخيرى » عند المسلمين .

---

(١) الايمان والحياة « مرجع سابق » : ص ٢٤٦

فقد مضى المواسون من المؤمنين ــ بدافع الرحمة التى قذفها الايمان فى قلوبهم ، والرغبة فى مثوبة الله لهم ، والا ينقطع عملهم بعد موتهم ــ ينفقون أموالهم كلها أو بعضها على اطعام الجائع ، وسقاية الظمآن ، وكسوة العريان ، وايواء الغريب ، وعلاج المريض ، وتعليم الجاهل ، ودفن الميت ، وكفالة اليتيم ، واعانة المحروم ، وعلى كل غرض انسانى شريف • بل لقد أشركوا فى برهم الحيوان مع الانسان •

٩ ــ الايمان والانتاج :

ونعنى بالانتاج هنا : الانتاج الاقتصادى بخاصة ، والانتاج المادى والمعنوى بعامة ، ذلك أن بعض الناس يخيل اليه أن الايمان بالدين وعقائده قد يؤخر عجلة الانتاج أو يعوقها فى سيرها وحركتها ، بما يضعف فى النفوس من حب الحياة والرغبة فى العمل المادى ، وبما يلقيه فى قلوب الناس أن الانسان مسير لا مخير ، وأن الحياة الدنيا لا تستحق العمل والاهتمام • لكم يخسر المجتمع ، وتتأخر الحياة ، اذا شاع فيها هذا اللون من الايمان •

وهذه أوهام أشاعها الجهل عن الدين والايمان ، والحقيقة أن الايمان أعظم دافع للانتاج لو تأمل الناس وأنصفوا • فالانتاج لا ينمو ويزداد الا بما يبذل الناس من جهد وعمل ، وما يصحب هذا العمل من اتقان • ولا يتحقق هذا وذاك الا فى جو من الأمانة والاخلاص للعمل • وذلك لا يكون الا بباعث قوى ، وحافز غلاب • فهل هناك باعث أقوى تأثيرا من الايمان ؟

● الايمان والعمل :

ان الايمان الصادق ليس مجرد ادراك ذهنى أو تصديق قلبى غير متبوع عملى فى الحياة •• كلا ، انه اعتقاد وعمل واخلاص •• ومهما اختلف علماء الكلام والجدل فى العقائد حول مفهوم الايمان وصلة العمل به •• فانهم متفقون على أن العمل جزء لا يتجزأ من الايمان الكامل •

وقد ذكر القرآن الكريم الايمان مقرونا بالعمل فى أكثر من سبعين آية من آياته ، ولم يكتف بمجرد العمل ولكنه يطلب عمل «الصالحات» ، وهى كلمة جامعة من جوامع القرآن تشمل كل ما تصلح به الدنيا والدين ، وما يصلح به الفرد والمجتمع ، وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معا .

● دافع المؤمن الى العمل دافع ذاتى :

فالمؤمن بالدين عامة وعقيدة الاسلام خاصة ، لا يساق الى العمل الدنيوى سوق القطعان . لا يدفعه اليه قهر أو ضغط خارجى أو رقابة من سلطة تنفيذية تشهر عليه سيف التهديد بالجوع والحرمان أو عذاب الهون ، كما هو معروف فى بعض الأنظمة السياسية .

وانما يندفع المؤمن الى العمل بحافز من نفسه ، وباعث من ذاته ، وبايحاء ينبعث من داخله . ذلك الباعث الذاتى هو الايمان بالله وبرسالة السماء ، وبمهمته فى عمارة الأرض والسيادة على الكون .

ان المؤمن يوقن أن السعادة فى الآخرة والنجاح فى الدنيا موقوف على العمل . والجنة فى الآخرة ليست جزاء لأهل البطالة والكسل والفراغ ، بل هى لأهل الجد والعمل والاتقان . قال تعالى :

﴿ وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

(الزخرف : ٧٢)

﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، جزاء بما كانوا يعملون ﴾

(السجدة : ١٧)

● الفوز فى الآخرة بالعمل لا بالأمانى :

لقد هدمت عقيدة الاسلام ذلك الطمع والأمانى الفارغة التى جعلت صنفا من الناس يحسبون الجنة حكرا لهم ، أو عقارا سيتوارثونه عن الآباء والأجداد ، يستحقونها بمجرد الانتساب الى دين معين أو تنظيم خاص .

أبطل الاسلام هذه الدعاوى المريضة ، ورد الأمر كله الى صدق الايمان وحسن العمل :

﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى ، تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .

(البقرة : ١١١ — ١١٢)

وبهذا رسم الطريق الى الجنة : اسلام الوجه الى الله واحسان العمل .

ولقد قال المسلمون : نحن أتباع محمد خاتم النبيين وخير أمة أخرجت للناس . ولم يدع القرآن الكريم هؤلاء لدعاواهم ، فنزلت آياته حاكمة فاصلة ، قاضية عادلة ، تخاطب المسلمين فى صراحة وجلاء :

﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** ﴾ .

(النساء : ١٢٣ — ١٢٤)

● **النجاح فى الدنيا بالعمل :**

ولا يذهب الوهم بأحد ، فيحسب أن ارتباط السعادة والفوز بالعمل مقصور على الآخرة وحدها ، فان قوانين الله فى الجزاء واحدة ، ورب الدنيا والآخرة واحد — سبحانه — فالله تعالى يقول :

﴿ **.. انا لا نضيع أجر من أحسن عملا** ﴾ . (الكهف : ٣٠)

﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾

(الزلزلة : ٧ ، ٨)

وسنة الله — التى أخبرنا القرآن الكريم أنها لا تتبدل ولا تتحول — لا تسمح لفارغ أو قاعد أو كسول أن يظفر بما يريد ، أو يحقق ما يأمل . بل ان سنن الله فى الدنيا لا تفرق فى الجزاء على العمل بين مؤمن وغيره ... فمن عمل أجر ، ومن قعد حرم ، مهما كان دينه أو اعتقاده .

وبهذا يندفع المؤمن الى العمل دائما ، حتى لا يصادم سنن الله فى الكون فتصدمه ، فيكون من الهالكين .

● المؤمن يخشى الله فى عمله فيتقنه :

والمؤمن لا يكتفى بالاندفاع الذاتى الى العمل ، بل يهمه أن يجيده ويتقنه ، لشعوره العميق واعتقاده الجازم أن الله يرقبه فى عمله ، فى أى حال من أحواله ، وأنه تعالى : « كتب الاحسان على كل شىء » .

(حديث صحيح رواه مسلم)

وقد فسر نبى الاسلام هذا الاحسان فى جانب العبادة فقال : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .

(جزء من حديث جبريل المشهور)

وهذا هو شعور المؤمن فى كل عمل من الأعمال ــ لا فى العبادة وحدها ــ أن يؤدى العمل كأنه يرى الله ، فان لم يبلغ هذه المرتبة فأقل ما عليه أن يشعر أن الله يراه ، وشعار المؤمن دائما فى أدائه لعمله : انى أرضى ربى .

وربه لا يرضيه منه الا أن يقوم بعمله فى صورة كاملة متقنة ، وهذا ما علمه نبى الاسلام للمؤمنين : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » . (رواه البيهقى)

وهناك خلقان أصيلان يتوقف عليهما جودة العمل وحسن الانتاج وهما : الأمانة ، والاخلاص ، وهما فى المؤمن على أكمل صورة وأروع مثال . قال تعالى :

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

(التوبة : ١٠٥)

والمؤمن ــ كما عرفنا ــ يتمتع فى حياته بسكينة النفس ، وطمأنينة القلب ، وانشراح الصدر ، وبسمة الأمل ، ونعمة الرضا والأمن ، وروح

الحب والصفاء • ولا ريب أن لهذه الحالة النفسـية أثرها فى الانتاج • فان الانسان الشـارد أو المضطرب أو القلق أو اليائس أو الحاقد على الناس والحياة ، قلما يحسن عملا يوكل اليـه ، أو ينتج انتاجـا مقنعا مرضيا •

والمؤمن الصادق الايمان يقف عند حدود الله ، وينأى بنفسـه عن ارتكاب الموبقات ، أو الانغماس فى أوحال المحرمات ، أو ارسال العنان للشهوات • ان ايمانه يأبى عليه أن يفرغ طاقته فى لهو حرام •

* * *

تنمية الشخصية المنتجة

• مفاهيم نفسية :

اولا : ذكر « مازلو »[1] أن « الشـخص المحقق لذاته » والذى يكون صورة للشخصية السوية المنتجة ، يتميز بعدد من السمات ترمز الى عملية تحقيق القـوى الكامنة الفطرية فى الشـخص • وفى رأى « مازلو » أن الشخص لا يستطيع تحقيق ذاته حتى يكون لديه تاريخ غنى باشباع حاجات أساسية معينة مثل : اشباع الحاجات الفسيولوجية ، والأمن ، والانتماء ، والاعتراف والتقدير ، واذا أشبعت هذه الحاجات اشباعا كافيا ، فانه يسـتطيع أن يوجه طاقاته لمهمة تحقيـق الذات ــ كالانتاج العلمى ، أو العمل الفنى ، أو العمـل التنظيمى • والشـخص المحقق لذاته ــ كما يصفه « مازلو » من عينة من أناس حقيقيين استطاعوا أن يحققوا ذواتهم فى حياتهم العملية ــ يتصف بهذه الخصائص :

١ ــ أنه يتقبل ذاته والآخرين والعالم الواقعى الطبيعى المحيط به •
٢ ــ أن له اتجاها واقعيا •
٣ ــ أنه على قدر كبير من التلقائية •
٤ ــ أنه يتمركز حول المشاكل بدلا من أن يتمركز حول ذاته •
٥ ــ أنه على قدر من الاستقلال والحاجة الى الخصوصية •

---

(1) A. Maslow ; Motivation and Personality. (N. Y. : Harper, 1954). Ch. 12 ·

٦ — أنه يتصف بالاستقلال الذاتى والاستقلال عن الآخرين .

٧ — أن تقديره للأفراد والأشياء متجدد ، دون نمطية جامدة .

٨ — أنه يتوحد بالبشرية جمعاء .

٩ — علاقاته حميمة مع أشخاص قليلين يكن له الحب العميق ذات طابع انفعالى عميق وليس سطحيا .

١٠ — اتجاهاته وقيمه ديمقراطية يغلب عليها السماحة والتقبل .

١١ — لا يخلط بين الغاية والوسيلة .

١٢ — يولع بالخلق والانشاء والابتكار بدرجة كبيرة .

١٣ — يقاوم الامتثال للثقافة والخضوع لها خضوعا أعمى .

١٤ — روح المرح لديه فلسفية وليست ذات طابع عدائى .

* * *

ثانيا : حاول « كارل روجرز »[١] مؤسس مدرسة الارشاد النفسى غير المباشر (المتمركز حول العميل) — أن يوضح الخصائص العامة لصاحب الشخصية السوية الذى تخلص من مشاكله ويسير فى طريق الانتاجية فى الآتى :

١ — يكون الشخص متفتحا ومتقبلا لخبراته مهما كان نوعها ، ويسعى الى ادراك مشاعره الداخلية أيا كانت .

٢ — يعيش بشكل وجودى ، أى لديه قناعة ذاتية بأن كل لحظة فى الخبرة تعنى شيئا جديدا . وهذا يعنى أن الشخص لديه شعور داخلى بأنه يتحرك وينمو .

٣ — يجد الشخص فى تركيبه العضوى وسيلة موثوقا بها للوصول الى السلوك الأكثر اشباعا فى كل موقف واقعى . وهو يفعل ما يشعر بأنه الصواب فى اللحظة العاجلة ، وهو يعتمد على التكوين الكلى المتكامل لذاته لتوجيه سلوكه معتمدا على خبراته .

* * *

(١) سونى جورارد (ترجمة حسن الفقى وسيد خير الله) ، الشخصية بين الصحة والمرض . (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٣) ، ص ١٣ — ١٤

ثالثا : ترى « هورنى »[1] أن الطفل اذا لم يستطع الحصول على الحب فقد يعمل على تحقيق القوة والسيطرة على الآخرين • وبهذه الطريقة يعوض احساسه بالعجز ، ويجد منفذا للعدوان ، ويستطيع أن يستغل الآخرين • وقد يصبح شديد الميل الى التنافس ، ويصبح الكسب عنده أهم بكثير مما يحققه من انجاز •

وتقدم « هورنى » قائمة من عدة حاجات تكتسب نتيجة محاولة العثور على حلول لمشكلة اضطراب العلاقات الانسانية • وتسمى هذه الحاجات « عصابية » لأنها حلول غير منطقية للمشاكل ، وهى :

ـ **الحاجة للحب والتقبل** : وتتميز هذه الحاجة بالرغبة فى ارضاء الآخرين وعمل ما يتوقعونه ، دون تفرقة أو تمييز • فالشخص يعيش من أجل الفكرة الطيبة عنه لدى الآخرين ، كما أنه يكون بالغ الحساسية لأية علاقة قائمة على النبذ أو عدم التقبل •

ـ **الحاجة الى « شريك » يتحمل مسئولية الفرد** : صاحب هذه الحاجة يكون طفليا ، فهو يسرف فى تقدير الحب ويخاف أشد الخوف أن يترك وحيدا •

ـ **الحاجة الى تقييد الفرد لحياته داخل حدود ضيقة** : مثل هذا الشخص يقنع بالقليل ، وليست له مطالب ، ويفضل أن يبقى مغمورا مفضلا التواضع على كل ما عداه •

ـ **الحاجة الى القوة** : تفصح هذه الحاجة عن نفسها فى الرغبة الشديدة فى السلطة وحبها لذاتها ، فى اطار أساسه عدم احترام الآخرين والتمجيد الأعمى للقوة واحتقار الضعف • وقد يلجأ من يخافون استخدام القوة السافرة الى محاولة السيطرة على الآخرين عن طريق الاستغلال الذهنى والتفوق •

ـ **الحاجة الى استغلال الآخرين** : حيث يسعى الفرد الى استغلال الآخرين لمصلحته الشخصية •

---

(1) Karen Horney ; Self - Analysis , (N. Y. : Norton, 1942)

ـ الحاجة الى المكانة المرموقة : يتحدد تقــدير الشخص لنفســه بمبلغ ما يناله من تقدير اجتماعى .

ـ الحاجة الى الاعجاب الشخصى : ان من لديه هذه الحاجة يكون لنفسه صورة متضخمة ، ويرغب فى أن يكون محط الأنظار والاعجاب .

ـ الحاجة الى الاكتفاء الذاتى والاستقلال : ان هــذا الشــخص لاخفاقه فى محاولته العثور على الدفء والعلاقات المشبعة بالآخرين ، يعزل نفسه عن الآخرين ، ويرفض أن يربط نفسه بأى شخص أو بأى شىء ، ويصبح وحيدا .

ـ الحاجة الى الكمال وعدم التعرض للهجوم أو النقد من الآخرين : ان الشخص الذى يعانى من هذه الحاجة يدفعه الخوف من الوقوع فى الخطأ الذى يعرضه للنقد الى أن يحصن نفسه من الأخطاء حتى لا يتعرض لنقد الآخرين أو هجومهم . انه ينقب دائما عن عيوبه حتى يخفيها قبــل أن تتضح للآخرين .

وفى مرجع آخر[1] تدرج « هورنى » هــذه الحاجات تحت ثلاث فئات هى :

١ ـ التحرك نحو الناس ، كالحاجة الى الحب .

٢ ـ التحرك بعيدا عن الناس ، مثل الحاجة الى الاستقلال .

٣ ـ التحرك ضد الناس ، مثل الحاجة الى القوة .

وتمثل كل فئة من هذه الفئات اتجاها أساسيا نحو الذات ونحــو الآخرين . وتجد « هورنى » فى هذه الاتجاهات المختلفة الأساس للصراع الداخلى .

* * *

رابعا : يحدد « اريك فروم »[2] خمسة تصنيفات للشخصية وفقــا للخلق السائد فى كل منها :

---

(١) K. Horney ; Our Inner Confliets . (N.Y. Norton, 1945)

(٢) E.Fromm; Man For Himself . (N.Y. : Rinehart' 1947) , pp, 62 — 107.

١ ـ **الشخصية التلقائية** : يتسم أصحاب هذه الشخصية بالنزعة التواكلية « الاتكالية » السلبية • فالشخص ذو الخلق التلقائى يعتقد أن كل شىء يحتاجه أو يرغب فيه يجب أن يأتيه ، دون أن يبذل من جانبه أى جهد للحصول عليه ، بل ينبغى أن يتوفر له بطريقة سلبية استسلامية • ومثل هذا الشخص يشعر أنه ناقص الكفاءة ، ويترامى على أى شخص يمنحه شيئا من العاطفة أو الحب • وهذا الشخص سلبى بوجه عام ، ويشعر بالعجز اذا ما ترك وحده • وتتصف الشخصية التلقائية بروح الصداقة والتفاؤل ، ولكنها تتعرض للقلق عندما ينضب معين مساعدة الآخرين لها أو تهدد لسبب أو لآخر •

٢ ـ **الشخصية الاستغلالية** : يتسم أصحاب الشخصية الاستغلالية بأنهم يحاولون أن يحصلوا على كل شىء من الآخرين بالحيلة أو القوة • ويعتبر الشخص الاستغلالى الجميع هدفا له ولاستغلاله ، ويجد فى كل ما يستطيع الاستيلاء عليه جاذبية أكبر وأدعى للسرور مما يستطيع هو نفسه أن ينتجه بجهوده الخاصة • وتتجه هذه الشخصية نحو العدوان والاحتيال على الآخرين • وبينما نجد الشخص التلقائى شديد الثقة بالغير ، نرى الاستغلالى شديد الشك والارتياب ، غيورا حسودا ، دائم التهكم والاستخفاف بالآخرين •

٣ ـ **الشخصية الادخارية** : يتسم أصحاب الشخصيات ذات الخلق الادخارى بايمان ضعيف فى أى جديد يمكنهم الحصول عليه من الخارج ، وأن شعورهم بالطمأنينة يعتمد على الادخار والتوفير ، فهم يحتفظون بما يملكون ويشعرون بأن الانفاق يهدد حياتهم ويثير قلقهم • وهم بخلاء فى أموالهم وأفكارهم وشعورهم ، والحب فى نظرهم يعنى التملك • وهم غير قادرين على التفكير الخلاق ، لا يؤمنون بالمستقبل ، ولكنهم شديدو التعلق عاطفيا بالماضى ، كثيرو الوساوس والظنون • والشخص الادخارى يكون عادة مرتبا منظما ، دقيق المواعيد ، ولا يتحمل أن يرى الأشياء فى غير موضعها • وهو يملك قدرا محدودا من القوة أو المقدرة العقلية ، ويرى أن هذه الكمية تتناقص بالاستعمال ولا يمكن تعويضها •

ويرى فى رفع الكلفة بينه وبين الآخرين شـيئا مهـددا له ، وفى نفس الوقت يرى فى الابتعاد عنهم أو فى اقتناء الأشياء مجالا للأمن والطمأنينة.

٤ ـ **الشخصية المسواقة** : أصحاب هذا النمط من الشخصية يقربون من شخصية الباعة .. فهم يشعرون أن شخصياتهم تباع وتشترى ، وتتأثر بتطلبات الآخرين المتقلبة ، وأن الناجح فى نظرهم هو من له قيمة وأن الفاشل هو من لا قيمة له ، واذا فهم يتقلبون وفقا للكفة الراجحة ، وهذا يعنى فقدان الشخصية المتزنة المتسقة . ولذلك فان أصحاب الشخصية المسواقة غالبا ما يشعرون بالفراغ والقلق .

ان هذه الأنماط الأربعة السابق ذكرها تمثل شخصيات غير سوية أو « غير منتجة » .

٥ ـ **الشخصية المنتجة** : يرى « فروم » أن الانسان ليس كائنا عاقلا واجتماعيا فحسب ، بل هو كائن « منتج » أيضا ، ولا بد له من أن ينتج كى يعيش . فمن خلال استخدامه لعقله وخياله يستطيع أن يحـول المواد التى يجدها الى منتجات . ولا يقتصر مفهوم « فروم » للانتاجية على الانتاج المـادى فحسب ، بل ان الانتاجية بأوسع معانيها هى مقدرة الانسان على استخدام قواه العقلية والعاطفية والحسـية والافادة من امكاناته الكامنة فيه .

واذا استطاع الشخص أن يطور قواه ، فان هذا يعنى أنه أصـبح شخصا منتجا . وهذا بدوره يعنى أن الشخص قادر على أن يفكر تفكيرا استقلاليا وانتقاديا ، وأن يشعر ويحس بما حوله ويتأثر به ، وأن يحترم نفسه ورفاقه ، وأن يتمتع بمباهج الحياة دون قلق أو كبت ولكن باتزان ، وأن يجد متعة فى الأعمال الطبيعية والفنيـة . وبعبارة أخرى ، فهـو يستطيع أن يثبت ذاته ويحققها ، وأن يستطيب الحياة ، لا أن يعانيها .

وهنا يربط « فروم » بين الحب وبين الخلق المنتج ، ويذهب الى مناقشـة الحب مناقشـة موضـوعية هادئة بعيـدة عن عوامل الخلط واللبس .. فيرى أن كلمة الحب تستعمل للدلالة على كل شعور تقريبا

لا يصل الى درجة الكره أو الاشمئزاز ، فيتدرج من حب الشخص « للسيجارة » الى حبه للموسيقى السيمفونية ، ومن العطف الهادىء الى أشد مشاعر الصلة الوثيقة . والواقع يخالف ذلك تماما .. فالحب هو شعور محدد من الصعب تحقيقه . والحب الحقيقى متأصل فى قوة الانتاج ، ولذلك يمكن تسميته « بالحب المنتج » . ومع أن أهداف الحب تختلف ، الا أنه يمكن القول بأن بعض العناصر الأساسية يمكن أن تعتبر من مميزات أنواع الحب المنتج .

ان الحب هو عمل يتضمن احترام شخص آخر والاهتمام به . وأن الاهتمام بشخص ما يعنى السعى لتشجيع نموه وتحسينه والاحجام عن تأخيره أو هدمه . فالحب يتميز بالمسئولية والمعرفة . ومعنى المسئولية هو أن يكون المرء مستعدا أن يعتبر نفسه مسئولا عن صالح الفريق الآخر ، وأن يفرض على نفسه مساعدته كى يزدهر عقليا وعاطفيا . وأخيرا كى يساعد أحدنا الآخر لابد له من معرفته وفهمه . ثم يقرر « فروم » أنه عندما يسود الاتجاه الانتاجى لدى شخص ما ، عندها يتحول أى من عناصر الاتجاهات الأربعة غير المنتجة التى قد توجد فى الشخص وتتخذ مزايا ايجابية مساعدة للحياة .. فالميل البسيط مثلا نحو الاستسلام والخضوع يصبح اخلاصا وولاء ، والعناد يصبح عزما وثباتا ، واستغلال الفرص يصبح قصدا وعزيمة(١) .

وأخيرا يعتقد « فروم » أن تركيب الخلق فى الشخصية الناضجة الموحدة المنتجة يشكل مصدر الفضيلة وأساسها وبعبارة أخرى ، أن العيش بطريقة منتجة هو العيش فى نطاق الفضيلة . أما الرذيلة فتنشأ عن تشويه الذات وعدم مبالاة الانسان بنفسه وازدرائه لها وتحقيره اياها .

وفى مرجع آخر(٢) يرى « فروم » أن المرء اذا لم يستغل جهد غيره ، لا بد له من أن يعمل بنفسه كى يعيش . ومهما تكن طريقته فى

---

(١) مصطفى فهمى ، علم النفس الاكلينيكى . (القاهرة : مكتبة مصر ، ١٩٦٧) ، ص ٣٦٠ – ٣٦٢

(٢) Erich Fromm ; The Sane Society (N.Y. : Rinehart, 1955) . PP. 177 — 184

انعمل بدائية أو ساذجة ، فانه يرتفع عن مستوى الحيوان ، لأنه يصبح بعمله « منتجا » ، تصديقا للرأى القائل بأن « الانسان كائن منتج » .
ولا يقتصر العمل على كونه ضرورة للانسان لا مفر منها ، ولكنه ـــ علاوة على ذلك ـــ العنصر الذى يحرره من الارتباط بالطبيعة ويشكله ككائن اجتماعى مستقل . ويعمل الانسان على تشكيل ذاته وتعديلها أثناء عمله ، أى أثناء تشكيله للطبيعة الخارجة عنه وأثناء تعديله لها . وبذلك يخرج الانسان عن الطبيعة سيدا عليها ومسيطرا ، ثم يأخذ فى تنمية قدراته على التعاون ، والتعقل ، والاحساس بالجمال . انه بالعمل يفصل نفسه عن الطبيعة ، ويتحلل من وحدته الأصيلة بها ، ولكنه ـــ فى الوقت ذاته ـــ يتحد بها مرة أخرى متحكما فيها ومسيطرا عليها ومشكلا لها ، وكلما نما عمله نمت فرديته . وهو خلال تشكيله للطبيعة واعادة تصويرها يتعلم كيف يستغل قواه ويستخدمها ، ويزيد من مستوى مهارته ومن قدرته على الابداع . واذا نظرنا الى الصور واللوحات الجميلة التى صنعها الانسان على مر السنين ، أو تلك النقوش الجميلة التى ابتدعها . أو الى زراعة الأشجار والزهور والحبوب ، لوجدنا تعبيرا عن تطوير الانسان للطبيعة بعقله ومهاراته تطويرا فيه ابتكار وابداع وانشاء وتعبير عن الفن والجمال .

لقد كانت الحرف فى تاريخ أوروبا ـــ وبخاصة كما تطورت عبر القرنين الثالث عشر والرابع عشر ـــ تؤلف ظاهرة عامة من ظواهر التطور فى العمل الانشائى . فلم يكن العمل مجرد نشاط نافع ، لكنه كان كذلك نشاطا يحمل فى طياته رضا الانسان عن نفسه الى درجة كبيرة . وقد عبر « ميلر »[1] عن السمات الأصلية للحرف تعبيرا واضحا فى هذه العبارة : « لم يكن للعمل دافع سوى حب الانتاج وما يتعلق به من عمليات الانشاء . فكان لتفصيلات العمل اليومى مغزاها لأنها لا تنفصل فى عقل العامل عن انتاج العمل . وكان العامل حرا فى السيطرة

---

(1) C. Miller ; White Collar. (N.Y. : Oxford university press, 1951) , p. 220 .

على نشاطه العملى ، وصـــاحب الحرفة قادرا على أن يتعلم من عمله ، وأن ينمى قدراته ومهاراته ويستخدمها فى أدائها . ولم يكن بين العمل واللعب أو بين العمل والثقافة أى حائل ، فالوسيلة التى يتخذها صاحب الحرفة للحصول على عيشه تتحكم وتتغلغل فى طريقة عيشه كلها » .

ولمـــا انهار بناء العصور الوسطى ، وبدأت طريقة الانتاج الحديثة فى الظهور ، تغير معنى العمل ووظيفته تغيرا أساسيا . فقد كانت الحرية كسبا جديدا للانسان يخشاه لأنه لم يألفه ، فتحكمت فيه الحاجة الى التغلب على شكوكه ومخاوفه بمضاعفة نشاطه . وكان تحريره يتوقف على نتيجة هذا النشاط من فشل أو نجاح ، فيشعر بالهدى أو بالضلال. وفى أكثر الأحيان أمسى العمل واجبا وعبئا ثقيلا على النفس بدلا من أن يكون لونا من ألوان النشاط الذى يمتع النفس ويشبعها ويرضيها . وكلما أمكنه كسب الثروة عن طريق العمل ، أضحى العمل وسيلة خالصه لتحقيـــق الثراء والنجاح ، وســـببا فى انصراف المرء عن الاســـتمتاع بحياته ، وحلا من الحلول يلجأ اليه للفرار من احســـاسه بالوحـــدة والعزلة . ومهما يكن من أمر ، فان العمل بهذا المعنى لم يوجد الا للطبقة العليا والطبقة الوسطى ، التى تضم أولئك الذين يستطيعون أن يجمعوا شيئا من رأس المـــال ويستفيدون من عمل غيرهم . أما الغالبية العظمى من هؤلاء الذين لا يملكون سوى مجهودهم البدنى يقدمونه لكسب قوتهم ، فلم يعـــد العمل بالنسبة لهم ســـوى « شـــغل » أو نشـــاطا اجباريا . فالعامل فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان لا بد له من أن يعمل ست عشرة ساعة كى لا يموت جوعا ، وكان مجبرا على ذلك حتى يعيش . وعلى ذلك فالعمل فى بداية العصر الحديث ينقسم الى « واجب » بالنسبة للطبقة الوسطى ، و « شغل اجبارى » بالنسبة لأولئك الذين لا يملكون شيئا .

فماذا يحدث للعامل الصناعى فى هذا الجو الجـــديد ؟ انه ينفق أفضل نواحى نشاطه لسبع أو ثمانى ساعات كل يوم فى انتاج شىء ما . وهو بحاجة الى عمله ليكسب قوت يومه ، الا أن الدور الذى يقوم به

يتحتم أن يكون سلبيا . فهو يؤدى وظيفة صغيرة منعزلة منفصلة فى عملية انتاج كبرى معقدة محكمة التنظيم ، ولا يشهد قط انتاجه بكليته كمنتج . وهو لا يهتم بالانتاج ، وعليه أن يؤدى عملا بعينه ، ولكنه لا يسهم فى تنظيم العمل أو ادارته . فهو مجرد آلة من آلات الانتاج ، وأصبحت الآلة مسيطرة عليه بدلا من أن تكون فى خدمته .

خامسا : ينظر « يونج »[1] الى الذات على أنها معادلة للنفس أو الشخصية الكلية . ان الذات هى نقطة الوسط فى الشخصية ، تتجمع حولها جميع النظم الأخرى ، وهى تجمع هذه النظم معا وتمد الشخصية بالوحدة والتوازن والثبات .

ان الذات هى هدف الحياة .. الهدف الذى يحاول الناس بلوغه دائما لكنهم نادرا ما يبلغونه . وهى مثل جميع الأنماط الأولية تحرك سلوك الانسان وتدفعه نحو البحث عن الكلية ، وبخاصة عبر الدروب التى يقدمها الدين . ان الخبرات الدينية الحق تصل فى اقترابها من الذات الى ما لا يصل بحال معظم الناس .

سادسا : قدم « آدلر » مفهوم « النفس الخلاقة » ، باعتبارها المحرك الرئيسى والسبب الأول لكل ما هو انسانى . ان الذات الموحدة ، الثابتة ، والخلاقة هى صاحبة السيادة فى بناء الشخصية . و « الذات الخلاقة » . يصعب وصفها ، ولكننا نستطيع أن نلمس آثارها ، انها شىء يحتل مكانا وسطا بين المنبهات المؤثرة فى الشخص والاستجابات التى يستجيب بها لهذه المنبهات . ونظرية «الذات الخلاقة» هى فى جوهرها أن الانسان يصنع شخصيته ويكونها ويبنيها .

ان « آدلر » كون نظرية انسانية فى الشخصية .. فقد أضفى على الانسان غيرية وانسانية وتعاونا وابتكارية وتفردا وفطنة ووعيا ، فأعاد الى الأذهان صورة للانسان أكثر امضاء وبعثا للأمل ، وأكثر

---

(١) هول ولندزى (ترجمة فرج أحمد فرج وآخرين) ، نظريات الشخصية . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١)، ص ١١٨ — ١١٩

تكريما للانسان • ويتفق مفهوم « آدلر » عن طبيعة الانسان مع الفكرة الشائعة لدى العامة أن الانسان قادر على أن يكون سيد مصيره لا عبده[1] •

سابعا : قدم « أوتورانك » « مفهوم الارادة » •• فاعتبر أن الحياة نضال بين الخوف من الحياة والخوف من الموت ، ولذا فان نتاج هذا النضال هى وجود توازن بين قوى الدافعية فى الفرد • « والارادة » هى القوة المتكاملة للشخصية • وأشار « رانك » الى أن مضمون الانسان من حيث هو علاقة حية نشطة بين ذاته وبين العالم هو ما يعنى به مصطلح « الارادة » • فالشخص الذى يستطيع أن يعطى وأن يأخذ ، وأن يغير وأن يتغير ، وأن يحول وأن يتحول ــ أى علاقة الشخص النشط بالعالم الخارجى ــ هى علاقة خلاقة • وفرد من هذا النوع ، يعمل ويتألم ويكافح ويبتدع ، هو ما يعنيه « بالارادة » • وهكذا يعنى « رانك » بمصطلح « الارادة » قوة تكامل الشخصية ككل • وهى نتيجة وجود الانسان على قيد الحياة ، وهى التطور أو النمو الضرورى للانسان[2] •

وهناك مبدأ يقول ان المرء لا يستطيع أن يحصل على كل شىء بدون جهد وبدون عقبات أو موانع ليتنازع معها ، وهذا هو المبدأ الأساسى فى « مفهوم الارادة » • فلقد وجدت الارادة لأن الانسان يعيش فى عالم يستلزم الكفاح والجهد فى سبيل العيش ، حيث تقابل كل حركة فيه بعائق سواء أكان ذلك العائق طبيعيا أم اجتماعيا ، وحيث يكون الفعل ورد الفعل مرتبطين معا ارتباطا وثيقا • ووجود العقبات والموانع ، يدل على المرحلة الأولى لتكوين الارادة • فهذه العقبات تقابل برد فعل مقاوم أو « بارادة مضادة » (Counter will) • وعندما

(١) A. Adler ; **The Practice and Theory of Individual Psychology** (N. Y. : Harcourt , 1927) .

(٢) O. Rank ; Will Therapy and Truth and Reality (N. Y. : Knopf, 1945) .

يتخلى المرء عن اللجوء الى المقارنة ، ويكف عن قياس نفسه بمستويات الآخرين فانه يصل الى تكوين « الارادة الايجابية الحقيقية »[1] .

ثامنا : تدور اتجاهات « سوليفان » فى التحليل النفسى حول « العلاقات الشخصية المتبادلة » • فهو قد ركز كل اهتمامه وأدار محور نظريته فى هذا الصدد عن « الفرد » • ومحور نظريته هو « تكامل الكائن الحى مع الوسط الذى يعيش فيه » ، وهو التكامل الذى يعمل بصفة مستمرة • وهو يرى أن الكائن الحى ما هو الا تنظيم مستمر للذات يحدث فى اطار العالم الفسيولوجى / الكيميائى من خلال النشاط الوظيفى الذى يقوم به الفرد • ويقرر أن البقاء الانسانى فى الحياة يحتاج الى تغيير وتفاعل مستمر مع البيئة • والنقطة الرئيسية التى يهتم بها « سوليفان » هى الوحدة الوظيفية للذات التى تنمو خلال سياق تفاعلاتها وعلاقاتها المتبادلة مع الآخرين •

تاسعا : من وجهة النظر « المهنية » ، ذكرت مراجع علم النفس الصناعى أن « الشخصية المنتجة » تتميز بالخواص الآتية[2] :

١ ــ أن يكون انتاجها متميزا من حيث الكم والكيف ، أى تنتج أكبر عدد ممكن من الوحدات الانتاجية ، بحيث تتميز فى جودتها أيضا •

٢ ــ أن تختفى منها ــ الى حد كبير ــ مظاهر السلبيات التى تعرقل الانتاج ، مثل مظاهر التغيب والتأخير عن مواعيد العمل ، واساءة استخدام خامات الانتاج وأدواته وآلاته ، والتعرض لحوادث واصابات العمل ، والتمارض ، والشكاوى والمنازعات ، وما أشبه •

٣ ــ اذا ما أسند اليها عمل رئاسى أو اشرافى أو ادارى تكون اداراتها لمرءوسيها ادارة رشيدة ، بحيث تهيىء مناخا اجتماعيا ونفسيا

---

(1) P. Mullahy ; « Non - Freudian Analytic Theories » in B. Wolman (ed,) , Handbook of Clinical Psychology (N. Y. : Mc Graw - Hill, 1965) ,Ch. 15.

(٢) سيد عبد الحميد مرسى ، علم النفس والكفاية الانتاجية . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨١) ، ص ٢٨ ــ ٣٠

مناسبا للعمل ، بما يؤدى الى رفع معنويات العاملين ويساعدهم على أن يبذلوا أقصى طاقاتهم فى الانتاج ، مع تحقيق الاستقرار النفسى لهم فى عملهم وفى علاقاتهم المهنية والانسانية المتبادلة .

وقد تتساءل عما اذا كان للشخصية المنتجة خصائص نفسية معينة . بحيث يمكن أن تساعدنا معرفتنا بها على تحقيق هذه الشخصية فى مجالات الانتاج المختلفة ؟ .. والاجابة عن هذا التساؤل هى أن هناك بالفعل خصائص نفسية معينة تساعد معرفتنا بها على تحقيق هذه الشخصية . ويمكن أن نحدد أهم هذه الخصائص فيما يأتى :

(أ) ملاءمة القدرات والاستعدادات والمهارات والخبرات الخاصة بهذه الشخصية لمتطلبات النجاح فى العمل . فكل عمل يستلزم توافر قدرات واستعدادات ومهارات وخبرات فيمن يؤديه حتى يستطيع أن يحقق الكفاية الانتاجية . وتختلف هذه القدرات أو الاستعدادات والمهارات من مهنة لأخرى ، كما يختلف الأشخاص أيضا من حيث توافر هذه الخصائص فيهم ، بمعنى أن الشخص الذى يصلح لأداء عمل معين لا يشترط أن يكون صالحا لانجاز عمل آخر يختلف عن الأول فى مستلزماته ومقتضياته .

(ب) توافر ميل نفسى فى هذه الشخصية نحو أداء هذا النوع من العمل ، بمعنى أن يفضل الشخص ممارسة هذا العمل عن غيره ، مع شعوره بالرضا والقناعة والاستمتاع عند أدائه للواجبات التى يتضمنها هذا العمل وسعادته للارتباط به ، مما يثير الدافعية للعمل والحماس له وتحقيق التوافق والاشباع المهنى .

(جـ) توافر قدر مناسب من الصحة النفسية لهذه الشخصية . فالقدرة على العمل والانتاج ترتبط بالصحة النفسية للفرد ، بمعنى أن قدرة الفرد على العمل وأهليته للاتصاف بالشخصية المنتجة تشير الى استمتاع الفرد بصحة نفسية سليمة .

وتتوقف الكفاية الانتاجية الى حد كبير على اتقان الفرد لعمله .

ولا يتوقف هـذا الاتقـان على مجرد الاسـتعداد الفنى والاعـداد المهنى للفرد أو تهيئة ظروف العمل الملائمة ، بل انه يرتكز كذلك الى عوامل نفسية شتى منها : استمتاع الفرد بعمله ، وشـعوره بالانتماء للعمل والمؤسسة التى يعمل بها والتى ينبغى أن تهتم باشـباع حاجاته الأساسية ، كما ترتكز أيضا على فهم الفرد لقيمة عمله وأهميته ودوره فى الانتاج وارتباطه بالخطة العامة للانتاج • وما أكثر ما يكتنف ميدان الصناعة من مشكلات ينبغى ألا تحسم بحلول ارتجالية بل بحلول علمية سليمة تقضى عليها أو تخفف من حـدتها أو تحدد الوسـائل الصحيحة التى تؤدى الى ضبطها والسيطرة عليها • ويمكن حصر هذه المشكلات فى الآتى :

١ ـ **المواءمة المهنية** : ويقصد بها تكيف الشخص لعمله ، أى وضع الرجل المناسب فى العمل الملائم له الذى يستطيع أن يؤديه بنجاح لأنه يتناسب مع قدراته واستعداداته وخبراته ، والذى يرضى عنه ويميل الى ممارسته لأنه يتمشى مع رغباته ويشبع حاجاته ويتفق مع مستوى طموحه ومفهومه عن ذاته • ويشمل هذا المجال موضـوعات التوجيه المهنى ، والانتقاء المهنى ، والتأهيـل المهنى للمعوقين ، كما يتضمن موضـوع التدريب المهنى لتمكين الفرد من اتقان عمله واكتساب المهارات اللازمة للنجاح فى العمل •

٢ ـ **الهندسة البشرية** : ويقصد بها تكييف ظروف العمل لتلائم العامل ، وذلك بالبحث عن أفضل الطرق وأيسرها لأداء العمل ، وكذلك تعديل الظروف البيئية للعمل كالاضـاءة والتهوية والضوضاء وعوامل التعب والاجهاد والضجر ، وحوادث واصـابات العمل ووضـع برامج الأمن الصناعى •

٣ ـ **العلاقات الانسانية** : وتختص بدراسة الروح المعنوية للعاملين فى المؤسسات الانتاجية ، وطرق الاتصـال والتفاهم فيما بينهم وبين القائمين على ادارة العمل ، كما تدرس القيادة الادارية واثارة دافعيـة

العاملين وحثهم على الانتاج من خلال الحوافز المادية والمعنوية ومساعدة العاملين على حل مشكلاتهم •

ومن هذا يتضح أن علم النفس الصناعى يستهدف رفع مستوى الكفاية الانتاجية للفرد أو لجماعة العمل ، أى تحقيق « الشخصية المنتجة » • وذلك من خلال العمل على حل المشكلات الانسانية المختلفة ، التى تتفشى فى المجال الصناعى ، حلا علميا سليما على أساس من المبادىء والمفاهيم الانسانية • وبعبارة أخرى فان علم النفس الصناعى يستهدف تهيئة جميع الظروف المادية والمعنوية التى تكفل أكبر انتاج وأفضله مع الاهتمام بتحقيق الاشباع المهنى للفرد بما يؤدى الى رضائه عن عمله ورفع كفايته الانتاجية •



الفصل الثالث

المفاهيم الأساسية للصحة النفسية

لقد أصبحت العناية بالصحة النفسية للأفراد والعمــل على تكامل شخصياتهم موضع اهتمام المسئولين على مختلف المسئوليات سواء فى الأسرة أو فى المدرسة أو فى المجتمع العام • ويرجع ذلك الى أن تعقد الحياة فى المجتمع الحديث ومواصلة الكفاح فى سبيل العيش والانتاج تتطلب المزيد من الرعاية النفسية حتى نهيىء للفرد حياة مستقرة يشعر خلالها بالرضى والاشباع والسعادة والاقبال على الحياة والعمل • ويتميز القرن العشرون بأنه تسوده عوامل الصراع والتطاحن والحرب النفسية لدرجة جعلت الكثير من شعوب العالم تعيش على حافة الهاوية ، وقد دعا ذلك الباحثين فى العلوم السلوكية الى أن يطلقوا على هذا العصر لقبا مميزا هو « عصر القلق » •

ولم يكن الانسان فى يوم من الأيام أشد حاجة الى فهم شخصيته مما هو عليه اليوم ، ذلك أن ثمة صرخة مدوية ترتفع الآن فى كل مكان معلنة أن الانسان قد نمت معرفته بالعالم الطبيعى وتقدمت سيطرته على ظواهر الطبيعة ، فأصبح يرتاد الفضاء ويصل الى الكواكب ، حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى من الهلاك • ولم يعد أمامنـــا اليوم الا أن ننمى معرفتنـــا بالطبيعـــة البشرية حتى يحـــدث التوازن اللازم فى المعرفة الانســانية ، وحتى نكون أكثر قدرة على التحكم فى العوامل المؤدية الى الدمار • لم يعد أمام الانســان الآن الا أن يفهم ذاته فهما يمكنه من السيطرة عليها ومن ضبطها وتوجيهها ، فربما كان هذا هو الطريق الوحيد الى الخلاص •

ويبدأ الانسان بالتفكير فى نفســه عنــدما يدرك أن قدرته على التوافق قد انعدمت وأن علاقتــه بالبيئة المحيطة به لم تعــد علاقة ود

وأمن ، وعندما يشعر بحدة القصور وانعدام التكافؤ بينه وبين العالم المادى والاجتماعى الذى يعيش فيه ، وعندما يشعر بالعزلة والفرقة بينه وبين الآخرين .. عندئذ يرتد الانسان الى نفسه وتتجسم فى أوهامه نقائصه ويشعر بحاجة ملحة الى أن يختبر ذاته ويحاسبها ويحاول جاهدا أن يتفهمها . ولكن ليس معنى أن يرتد الانسان الى نفسه وأن يهتم بشخصيته أنه قد أصبح بالضرورة قادرا على فهم ذاته .. فلقد قامت على مر التاريخ محاولات عديدة لفهم الشخصية الانسانية ، ولكن لا تزال الانسانية تعتبر فى بداية الطريق الى تحقيق هذا الهدف الضخم ، لأن هناك عوامل كثيرة يمكن أن تعطل فهم الانسان لذاته . فالانسان الذى ظل طوال هذه الأجيال ينظر الى نفسه على أنه محور هذا الكون وأن كل شيء مسخر لخدمته ، لا يستطيع أن ينظر الى الأمور التى تتصل به وبشخصيته بعين مجردة أو أن يقف منها موقفا علميا موضوعيا خاليا من كل تحيز ومن كل رغبة شخصية . ولهذا تعطلت الدراسة العلمية للشخصية الانسانية فترة طويلة .

وأخيرا قامت محاولات لدراسة الشخصية دراسة علمية خرجنا منها بدراسات متعددة .. منها ما يهتم بدراسة أنماط الشخصية أو سماتها ، ومنها ما يعنى بالجانب البيولوجى للشخصية ، وهناك نظرية التحليل النفسى ، ونظرية التعلم ، ونظرية الذات ، ونظرية العوامل الثقافية وغيرها ، ولا تزال المحاولات مستمرة[1] .

مفهوم الصحة النفسية

عرفت هيئة الصحة العالمية « الصحة » بأنها « حالة السلامة الكاملة فى النواحى الجسمية والعقلية والاجتماعية . وليست مجرد الخلو من الأمراض أو التشوهات » . وفى اطار هذا المفهوم نجد أنه على الرغم من أن اللياقة البدنية هى احدى المقومات الأساسية للصحة ، الا أنه كى

(١) سيد عبد الحميد مرسى ، الارشاد النفسى والتوجيه التربوى والمهنى . (القاهرة : الخانجى ، ١٩٧٦) ص ١٠

يكون الفرد سليم الصحة ينبغي أن يتمتع بقدرات عقلية كاملة مع قدرته على التوافق الاجتماعي •

ان العلاقة بين النفس والجسم قديمة قدم تاريخ الفكر الانساني ، اذ يرجع أثر العوامل النفسية على الجسم الى زمن قديم • فقد أشار « بريل » الى أن « هيبوقراط » (أبو الطب) قد استطاع شفاء ملك مقدونيا من مرضه الجسمي عندما قام بتحليل أحلامه[1] • ويعكس هذا دون شك مدى ادراك « هيبوقراط » للعلاقة بين النفس والجسم • ولكن مشكلة النفس والجسم لم تكن بهذه البساطة ، بل اختلف الفلاسفة في الرأي من حيث العلاقة بين النفس والجسم والاعتراف بها أو الفصل بينها • فيذهب « أرسطو » الى أن الانفعالات مثل الغضب والخوف والفرح والبغض لا يمكن أن تصدر عن النفس وحدها ، ولكنها تصدر عن مركب النفس والجسم ، ويستطرد قائلا بأنه في نفس الوقت الذي يحدث فيه انفعال نفسي يحدث تغير في الجسم[2] وهكذا نلمح في أعمال كل من « هيبوقراط » و « أرسطو » ما يشير الى أن أثر النفس على الجسم يؤدي الى سوء توافق الانسان في حياته •

ولقد فطن العرب الى ما للأعراض النفسية من أثر في احداث تغييرات بدنية وأمراض جسمية ، وفي اعاقة الشفاء أو تعجيله مما قد يهدد توافق الانسان • وفي هذا المعنى يقول الطبيب « ابن العباس المجوسي » في كتابه « كامل الصناعة الطبية » (الجزء الثاني ص ١٨) ما يأتي :

« فأما الأعراض النفسانية فانه قد ينبغي أن لا يدمن الانسان على الغم ولا يستعمل الغضب ولا يكثر من الهم والفكر ولا يستعمل الحسد فان ذلك كله مما يغير مزاج البدن ويعين على انهاكه • ومن كان مزاجه

---

(١) مصطفى زيور « فصول في الطب السيكوسوماتي » ، مجلة علم النفس ، ١٩٤٥

(٢) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية (ط ٤) القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٨ ، ص ١٣

حادا فان هذه الأعراض تولد الحميات الرديئة . فلذلك قد ينبغى أن يتجنب الانسان الأعراض النفسانية كلها وأن يلهم نفسه الفرح والسرور ، فانه يقوى الحرارة الغريزية ويحركها الى ظاهر البدن ويزيد فى النشاط ويقوى النفس »[1] .

والواقع أن الطب القديم كان يهتم بأمر المريض وأحواله النفسية اهتمامه بأمر المرض ، على خلاف الطب الحديث عامة الذى يقصر اهتمامه على البحث عن الأسباب العضوية فحسب دون الاهتمام بحالة المريض من الوجهة النفسية ، مكتفيا باعطاء المسكنات عندما يكون بصدد مريض عصبى المزاج . وقد حدثت فى السنوات الأخيرة حركة علمية جديدة تستهدف توجيه عناية الطبيب الى المريض من حيث هو انسان ، لا من حيث هو مجموعة أعضاء فحسب ، وتعرف هذه الحركة « بالطب السيكوسوماتى » أى « الطب الجسمى النفسى »[2] .

وسنناقش فيما يلى المفاهيم المختلفة للصحة النفسية فى ضوء ما أسفرت عنه أهم الدراسات والبحوث فى هذا المجال :

أولا : اذا ما ناقشنا مفهوم « الصحة النفسية » فى اطار الظروف الاجتماعية التى تؤدى الى الصحة النفسية السليمة ، فاننا نجد قصورا فى هذا المجال . وعلى قدر معرفتنا فانه لا يوجد تعريف له دلالة نفسية قوية اجرائية فى هذا الصدد يصف لنا المقصود بمصطلح « الصحة النفسية » . وعلى أى الحالات فان استنباط معايير تستخدم كموازين (محكات) للحكم على الصحة النفسية للفرد هى شىء ضرورى اذا ما رغبنا فى التعرف على الظروف الاجتماعية التى تحقق الصحة النفسية . وفى هذا المجال يبدو من المعقول أن نختبر بعض الامكانيات التى تساعد على وضع تلك المعايير والتى تتلخص فى خمس قضايا أساسية لها قيمتها وهى :

---

(١) يوسف مراد ، مبادىء علم النفس العام (ط ٣) القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٧ ، ص ١٣٠ — ١٣٢
(٢) مصطفى زيور ، « فصول فى الطب السيكوسوماتى » ، مرجع سابق .

١ — الخلو من المرض العقلى •
٢ — السلوك السوى •
٣ — التوافق مع البيئة •
٤ — توحد الشخصية وتكاملها •
٥ — الادراك الصحيح للواقع •
وسنناقش هذه المعايير فيما يلى[1] :

١ — الخلو من المرض العقلى : هناك اتفاق عام على أن الخلو من المرض العقلى ضرورة لازمة لتوافر الصحة النفسية ، وعلى أى الحالات فان تعريف المرض العقلى يواجه بعض الصعوبات •• فعلماء الانتروبولوجيا يحدثوننا عن بعض الثقافات التى تنظر الى ما تعتبره الثقافة الغربية أعراضا لأمراض عقلية أو نفسية هو سلوك مقبول فى الثقافات الأخرى • وهناك الكثير من الأمثلة التى تشير الى أن تقويم السلوك واعتباره سويا أو منحرفا يعتمد أساسا على المعايير الاجتماعية المتعارف عليها فى المجتمع •

والخلاصة أن الوصول الى تعريف محدد للمرض النفسى أو العقلى لا يحل المشكلة بل قد يضيف مشكلات أخرى • ويبدو من المعقول أنه من الأفضل أن نعالج مفهوم الصحة النفسية بطريقة أكثر ايجابية •

٢ — السلوك السوى : اذا نظرنا الى الشخص السوى باعتباره من يتقبله أكبر مجموعة من أفراد مجتمعة ، كان معنى ذلك ولو نظريا — أن نعطى كل فرد درجة فى الصحة النفسية أو المرض النفسى تقابل الدرجة التى يحصل عليها من حيث مدى تقبله من أفراد مجتمعه • وهذه هى الفكرة الاحصائية فى معنى السلوك السوى أو الشخصية السوية ، وهى الفكرة التى تعتمد على ايجاد معايير معينة مستمدة بشكل ما من البيئة التى ينتمى اليها الفرد • وتستخدم هذه المعايير لقياس درجة السواء أو الانحراف على الأسس التى ذكرناها •

---

(١) Jahoda, M, (ed.) Current Concepts of positive Mental Health . N. Y. Basic Books , 1958

وعلى فرض أن هذا القياس ممكن بالنسبة للشخصية ، الا أنه يتضمن فكرتين أساسيتين تجعلانه غير مفيد كمنهاج فى تحديد مفهوم الشخصية السوية بالنسبة لدرجة تقبل الشخص فى جماعة معينة ، فاننا نتوقع أن تختلف المقاييس باختلاف المجتمعات أو باختلاف الثقافات التى تسود هذه المجتمعات . فان ما يعتبر مألوفا ولائقا أو مقبولا فى مجتمع ما أو فى ثقافة معينة قد ينظر اليه على أنه خروج على المألوف فى ثقافة أخرى . فالأفكار والآراء والاتجاهات تختلف بتغير البيئات والثقافات المختلفة . وبذلك تصبح الشخصية السوية والسلوك السوى أمراً نسبيا ليس له حدود أو شروط أو مقاييس معينة .

أما الفكرة الثانية التى تتضمنها هذه النظرة الاحصائية الى الشخصية السوية فهى أنه ما دام الحكم على الشخصية يتوقف على رأى الجماعة التى ينتمى اليها الفرد ، كان ذلك معناه أن على الفرد كى يكون سويا أن يتفق اتفاقا تاما مع المجتمع الذى يعيش فيه . ولكن هذا لا يحدث فى أغلب الأحيان ، وقد يتطلب الأمر من الشخص السوى أن يعارض المجتمع بصورة أو بأخرى سواء فى الأوضاع أو التقاليد أو الأفراد الذين يشكلون المجتمع . وعلى ذلك فان هذا المعيار لا يصلح كأساس للصحة النفسية .

٣ ـ **التوافق مع البيئة** : يتخذ هذا التوافق طريقا ايجابيا ، ويتضمن تنمية التوافق بين الحاجات الشخصية والظروف الاجتماعية . انه يرتبط بقدرة الفرد على التوافق مع نفسه ومع المجتمع الذى يعيش فيه ، وهذا يؤدى الى التمتع بحياة خالية من الاضطرابات مليئة بالتحمس . وهنا يرضى الفرد عن نفسه ، فلا يبدر منه ما يدل على عدم التوافق الاجتماعى ، ويسلك سلوكا مقبولا يدل على الاتزان فى مختلف المجالات وتحت تأثير جميع الظروف .

ان شخصا هذا نمطه يعتبر من وجهة نظر الصحة النفسية شخصا سويا ، لأنه يتميز بالقدرة على السيطرة على العوامل التى تؤدى الى الاحباط . ان مثل هذا الشخص يتمتع بقدر كاف من الصحة النفسية ،

بحيث يمكنه أن يعيش فى وفاق ووئام مع نفسه ومع غيره فى محيط الأسرة أو الدراسة أو العمل أو المجتمع العام[1] .

٤ ـ **توحد الشخصية وتكاملها** : ان الذى يميز الشخصية السوية عن غيرها ليس هو شكل السلوك ذاته وانما وظيفة هذا السلوك أو ما يحققه من أهداف فالسلوك السوى الذى يميز الشخصية المتكاملة هو الذى يحقق مواجهة واقعية للمشكلات أو الصراع وليس هروبا منها . واذا قلنا بأن السلوك السوى الذى يميز الشخصية المتوحدة المتكاملة هو السلوك البناء واذا كان علينا أن نقيم تصورنا للشخصية على أساس أخلاقى ، فلابد أن يكون هذا الأساس نفسه مستمدا من فلسفة طبيعية تجريبية ، يتفق مع ما أفاده الانسان من حكمة جمعها من خبرة الانسانية خلال العصور .

٥ ـ **الادراك الصحيح للواقع** : ان الادراك الصحيح للواقع ـ متضمنا المفهوم الواقعى للذات ـ يعتبر معيارا مفيدا للصحة النفسية . فلكى يكون التوافق مع البيئة ايجابيا فانه ينبغى أن يرتكز الى الادراك الواقعى للبيئة .

ولكى يستمر توحد الشخصية وتكاملها وتستمر فى مواجهة صراعات الحياة فمن الضرورى أن تستند الى المفهوم الصحيح للذات .

وتقوم « نظرية الذات » على أساس أن « الذات » هى المحور الرئيسى للخبرة التى تحدد شخصية الفرد . وتتكون الذات خلال التفاعل المستمر بين الفرد والبيئة التى يعيش بها ، وخاصة ذلك الجزء من البيئة الذى يتشكل من الآخرين المحيطين بالفرد ، باعتبار أنهم مصدر لاشباع الفرد أو لاحباطه . فمن خلال تقدير الآخرين للفرد ومن اشباعهم له أو احباطهم اياه ، ومن ثوابهم وعقابهم للفرد ، ومن تقبلهم للفرد أو نبذهم اياه ، يكون الفرد فكرته أو مفهومه عن ذاته . ويتكون

---

(١) مصطفى فهمى ، الانسان وصحته النفسية . (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٠) .

هذا المفهوم بشكل ثابت مستقر من مجموعة منتظمة من الصفات والاتجاهات والقيم[1] .

وينظر الفرد الى كل خبرة لا تتسق مع ذاته على أنها تهديد له ولوحدة ذاته التى يسعى لتحقيقها ، ولذلك ينكر الفرد الادراك الذى لا يتفق مع المفهوم الذى كونه عن ذاته . وكلما زاد ادراك الفرد للتهديد عمد الى تدعيم وسائل الدفاع ، فيموه من الحقائق التى تتعارض مع فكرته عن ذاته ويباعد بين ذاته وبين الواقع ، ويقف جامدا ازاء الصورة المشوهة التى كونها عن نفسه . فتقل بذلك امكانيات التوفيق بين الذات والخبرات التى لا تتفق معها ، كما تقل فرص تعديل الفكرة عن الذات مما يكون نتيجته فى النهاية انعدام التوافق ، فيقع الفرد فريسة للمرض النفسى .

من خلال المناقشة السابقة للمعايير الفردية للصحة النفسية ، يمكن أن نخلص بثلاثة معايير للرجوع اليها عند الحكم على الصحة النفسية للفرد ، وهى :

(أ) التوحد الايجابى مع البيئة ، أو محاولة السيطرة عليها ، بمقارنتها بعدم القدرة على التوافق أو التوافق غير السليم من خلال التقبل السلبى للظروف البيئية .

(ب) توحد الشخصية ، بمعنى المحافظة على التكامل الداخلى والثبات للشخصية ومرونة السلوك النابع من التوافق الايجابى للفرد .

(جـ) القدرة على الادراك الصحيح للذات وللعالم الخارجى .

ثانيا : قام « مازلو » Maslow ببحث متعمق وشامل لجماعة من الأشخاص حققوا ذواتهم ، كان بعضهم شخصيات تاريخية مثل « لنكولن » و « جيفرسون » و « بيتهوفن » ، على حين كان البعض الآخر لا يزال على قيد الحياة عند القيام بهذه الدراسة أمثال

---

(1) Rogers, C. Client - Centered Therapy Houghton - Mifflin , 1951.

« روزفلت » و « أينشتين » وغيرهم • وقد درسهم « مازلو » دراسة أكلينيكية للكشف عن الخصائص المميزة لهم عن باقى الناس العاديين ، فظهر له أن السمات المميزة لهم هى[1] :

١ ــ أن لهم اتجاها واقعيا •
٢ ــ أنهم يتقبلون أنفسهم والآخرين كما هم وكذا العالم الطبيعى بحالته •
٣ ــ أنهم على قدر كبير من التلقائية •
٤ ــ أنهم يتمركزون حول المشاكل بدلا من أن يتمركزوا حول أنفسهم •
٥ ــ أنهم على قدر من الانفصال والحاجة الى الخصوصية •
٦ ــ أنهم يتسمون بالاستقلال الذاتى •
٧ ــ أن تقديرهم للأفراد والأشياء متجدد ، دون نمطية جامدة •
٨ ــ لمعظمهم خبرات روحية أو غيبية عميقة •
٩ ــ أنهم يتوحدون بالبشرية كلها •
١٠ ــ أن اتجاهاتهم وقيمهم ذات طابع ديمقراطى •
١١ ــ أن علاقاتهم القوية بأشخاص قليلين يكنون لهم حبا خاصا يغلب أن تكون عميقة وذات طابع انفعالى عميق •
١٢ ــ أنهم لا يخلطون بين الغاية والوسيلة •
١٣ ــ أن روح المرح لديهم ذات طابع فلسفى ، وليست عدائية •
١٤ ــ أنهم مولعون بالخلق والابتكار •
١٥ ــ أنهم يقاومون الامتثال للثقافة والخضوع لها •

وقد اختار « مازلو » الطريقة المباشرة ، فدرس الأصحاء من الناس الذين تتجلى وحدة شخصياتهم وكليتها بوضوح أكثر ، بوصفهم أشخاصا حققوا ذواتهم • وفى رأى « مازلو » أن الشخص لا يستطيع

---

(١) فرج أحمد فرج وآخرون (ترجمة) نظريات الشخصية . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١) ، ص ٤٢٥ ــ ٤٢٦

تحقيق ذاته حتى يكون لديه تاريخ غنى باشباع حاجات أساسية معينة . واذا تحققت أو أشبعت هـذه الحاجات تماما فانه يستطيع أن يوجه طاقاته لمهمة تحقيق الذات ــ للانتاج العلمى ، أو العمل الفنى ، أو العمل التنظيمى ، أو أية مواهب أخرى يحملها[1] .

ثالثا : أن طبيعة الصحة النفسية تتضمن ما يأتى :

١ ــ أن الصحة النفسية ليست عكس المرض العقلى . فليس معنى الخلو من الأمراض النفسية الشديدة بالضرورة التمتع بالصحة النفسية السليمة ، اذ أن هناك درجات متفاوتة من الصحة النفسية ، كما هى الحال بالنسبة للصحة الجسمية .

٢ ــ لا تماثل الصحة النفسية ــ فى كثير من جوانبها ــ الصحة الجسمية .

٣ ــ لا يمكن تعريف الصحة النفسية وفقا لمعايير عامة أو عالمية ، فالمرض يشير الى الانحراف عن بعض المعايير الواضحة المحددة المتعارف عليها ، وأيا كانت هذه المعايير ، فهناك اتفاق على ان المعايير تحدد من خلال مفاهيم نفسية ــ اجتماعية ، وخلقية متعارف عليها فى البيئة والمجتمع الواحد .

وترى « جاهودا »[2] Jahoda أنه ينبغى أن يوضع فى الاعتبار الجوانب الآتية عند الحكم على شخص بأنه يتمتع بالصحة النفسية السليمة : الاتجاهات نحو الذات ، النمو والتطور ، تحقيق الذات ، تكامل الشخصية ، استقلال التفكير ، ادراك الواقع ، والسيطرة على البيئة .

وتتضمن أهداف تحقيق الشخصية السوية المشاعر الايجابية نحو الذات ، والادراك الواقعى للذات وللآخرين ، والاتصال بالآخرين والارتباط بهم وتكوين علاقات معهم ومع البيئة ، والاستقلال ، وحب

---

(١) حسن الفقى وسيد خير الله ، (ترجمة) الشخصية بين الصحة والمرض . (مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٣) ، ص ٩

(٢) Jahoda, Op. Cit.

المعرفة والابتكار ، والقــدرة على مواجهة الاحبــاط والمحن والأزمات ومحاولة التغلب عليها •

ويرى « البورت »[1] Allport أنه من الجواب السـوية الصحية أن يعتنق الفرد فلسـفة لحيـاته تنطوى على العلاقات العميقة المشـبعة بالنسـبة لذاته وللآخرين ، وأن ينظر الى الكائنات البشرية بعمق واعتبار •

ويعتبر « سميث »[2] Smith أن القيم الاجتماعية وطبيعة الثقافة والحضارة من العناصر الهامة فى تقرير الصحة النفسية •

وتحدد «الجمعية القومية للصحة النفسية»[3] National-Association-For Mental Health بعض خـواص الذين يتمتعون بصـحة نفسـية جيـدة بالآتى : الشـعور بالارتيـاح والتقبل نحو الذات ، الشـعور بتقبل الآخرين ، والقدرة على مواجهة مطالب الحياة •

ويمكن أن نستخلص تعريفا للصحة النفسية من خلال الآراء والمفاهيم المختلفة للصحة النفسية يتلخص فى الآتى : « يقصد بالصحة النفسـيه قدرة الفرد على أداء وظيفتـه فى الحيـاة بنجاح من خلال أهـدافه وامكانيـاته والفرص المكفـولة له ، وفى اطـار بيئتـه الاجتماعيـة والاقتصادية •

ويمكن تعريف الشخص الذى يتمتع بصحة نفسـية سليمة بأنه ذلك الذى :

١ ـ يتقبل ذاته ويقدرها بواقعية واتزان ، ويشـعر بكفـاءة ، ويتعرف على نواحى قصوره ويبذل جهده للتغلب عليها أو تحسينها •

---

(١) Allport, G; Patterns & Growth of Personality N.Y. : Hdt, 1961.

(٢) Smith M; Research Strategies Toward Positive Mental Health Amer . Psychologist 14, 1959

(٣) National Assn for Mental Health. Facts about Mental Illness, 1966.

٢ — يقوم ذاته بواقعية ، ويحدد لنفسه أهدافا واقعيــة فى اطار امكانياته .

٣ — يتقبل المسئولية لادارة شئون حياته واتخاذ قراراته .

٤ — يتصف بالمرونة والاتزان والثبات فى اتجاهاته وأهدافه ومثله .

٥ — يستطيع أن يصمد للضغط وأن يتحمل بعض القلق ، ويتغلب على تأثير الاحباط والأزمات .

٦ — يستطيع أن يتعامل مع الآخرين ، وأن يضع مصلحة المجتمع فوق كل اعتبار .

٧ — ينشد الاستقلال فى التفكير والفعــل واتخاذ القرار وادارة شئون حياته ، وأن يتحرر من الجمود والأنانية .

٨ — يحاول حل مشكلاته بدلا من الهروب منها أو الالتجاء الى الحيل الدفاعية بكثرة .

رابعا : يرى « شــافر وشــوبن »[١] Shaffer & Shoben أن الصــحة النفســية تســتهدف الحيلولة دون التوافق غير المتكامل والمحافظة على الحياة السوية للأفراد ومساعدتهم فى التغلب على نواحى ســوء توافقهم .

هناك فرق جوهرى فيما بين المرض النفسى الفردى والاجتماعى ، مما يستلزم التفرقة بين مفهومين أساسيين : مفهوم القصور ، ومفهــوم العصاب . فعندما يخفق الفرد فى تحقيق الحرية والتلقائيــة يعتبر أنه يعانى قصورا شديدا ، على أساس افتراضنا أن الحرية والتلقائية هى الأهداف النهائية التى ينبغى أن يحققها كل انسان . واذا لم تســتطع غالبية الأعضاء فى أى مجتمع تحقيق هذا الهدف ، فاننا حينئذ نواجــه مشكلة « قصور نمطى اجتماعى » .

(١) Shaffer, L, & Shoben , E- Jr-; The Psychology of Adjustment (2 nd ed .) · Houghton - Mifflin, 1958 P. 423

ويمكن القول بأن مفهوم الصحة النفسيه ينطلق من خلال ظروف الوجود الانسانى الذى لا يختلف بالنسبة للفرد باختلاف العصور والحضارات • وتتميز الصحة النفسية السليمة بالقدرة على الحب والبناء والابتكار ، وبالارتباط الوثيق بالعشيرة والوطن والشعور بالتوحد القائم على أساس خبرة الفرد من حيث ممارسة امكانياته ، وادراك الواقع داخل أنفسنا وخارجها ، بمعنى تنمية الموضوعية والتعقل والمنطق فى تفكيرنا[1] •

وترى « روث بنيدكت »[2] Ruth Benedict أن حالة الصحة النفسية ليست سوى اتفاقا تعرضيا للحساسية الفردية نتيجة لوجود الفرد تحت ضغط المجتمع الذى يعيش فيه • فلكى نفهم سلوك الفرد ليس هناك ما يدعو لأن نتتبع تاريخ حياته واتجاهاته ثم نقيسها بمعيار الصحة النفسية ، وانما ينبغى أن نعرف مدى استجابته وتفاعله مع سلوك الآخرين فى شتى المنظمات الموجودة فى ثقافته وبيئته •

ان من يسلكون بطريقة غير ملائمة فى المجتمع ليسوا هم « الشواذ » ، بل قد لا يخرجون عن كونهم حرموا التوجيه السليم والتأييد من النظم السائدة فى ثقافتهم •• اننا قد ننظر الى أحد مظاهر السلوك على أنه يشير الى وجود مرض نفسى ، بينما قد يشير هذا النمط من السلوك الى الصحة النفسية السوية فى مجتمع آخر •

ينبغى أن ندرك ثلاث نقاط هامة قبل أن نصدر حكمنا على سلوك ما بأنه سوى أو شاذ :

١ ـ الدافعية •• فالفرق بين غسل الانسان ليديه بصورة طبيعية وبين غسله لهما نتيجة وساوس قهرية يتوقف على الدافع الى هذا السلوك •

---

(١) المرجع السابق ص ٦٩

(٢) Benedict , R - ; Patterns of culture N.Y. Amer . Library , 1956-

٢ ـ دراسة المجال الذى يحدث فيه السلوك .. مثال ذلك اذا شاهدنا رجلا يسير فى أحد الشوارع الرئيسية للمدينة فى فصل الشتاء وهو يرتدى ملابس البحر فاننا نعتبر سلوكه شاذا ، أما السلوك ذاته فانه طبيعي وسوى اذا ما حدث على شاطىء البحر صيفا .

٣ ـ والنقطة الثالثة تختص بسؤال : من الذى يحكم على السلوك ؟ فأيهما أقرب الى الحقيقة .. أن يصدر الحكم خبير متخصص كالطبيب النفسى أو المعالج النفسى ، أو يترك الحكم للجمهور أو للرأى العام ؟.

أوضح العالم الانثروبولوجى « هونيجمان »[1] Honigmann بعض الآراء التى تساعد على ازالة الخلط بين الانحراف الاجتماعى الثقافى والسلوك الشاذ من وجهة نظر الطب النفسى . فذكر أنه بينما نجد الانحراف يتقرر موقفيا بالنسبة للمعايير السائدة فى مجتمع ما ، فان السلوك الشاذ من وجهة نظر الطب النفسى متعارف عليه عالميا ، من حيث موازين الأعراض التى لا تتأثر بالثقافة ولكنها ثابتة عالميا .

ويشير « هونيجمان » الى أن السلوك المنحرف لا يحدث نتيجة للقلق الشديد ، أو التعطل الحسى أو الحركى ، أو تشويه الواقع وتحريفه ، وانما هو نتيجة لعدم استطاعة الفرد مجاراة ما تعارف عليه المجتمع من معايير للسلوك السوى . فالمنحرف يبدو جليا أنه منفصل عن معايير الجماعة . والكثير من أنماط السلوك الشاذ نفسيا ينتج عن السلوك المنحرف اجتماعيا ، كما أن الكثير من أنماط الانحرافات تصاحبها أعراض الشذوذ النفسى .

وأشار « هونيجمان » الى الفرق بين المرض النفسى والسلوك السوى المأخوذ عن رأى « ماسرمان »[2] Masserman والذى يستخدمه معظم المعالجين النفسيين ، وقد لخصه « هونيجمان » فيما يأتى :

---

(١) Honingman, G.; « Toward a Distinction Between Psychiatric & Social Abnormality » Social Forces 31 1953, 274 — 277.

(٢) Masserman,t, Principles of Dynamic Bsychiatry.

١ ـ حالات القلق التى تتضح فى خفقان القلب ، والتنفس السريع أو صعوبة التنفس ، والارتعاد ، واحمرار الوجه أو شحوبه ، والذعر ، والشعور بالخطر الشديد الذى يطلق عليه « الخوف الناجم عن توقع حدوث كارثة » .

٢ ـ التعطل الحسى والحركى حيث يظهر الشخص عدم الاستجابة للمؤثرات الخارجيـة ، ويتضمن ذلك الأمراض السيكوسوماتية والاستهداف للحوادث .

٣ ـ الدفاع الشامل ضد القلق ، مثل المخاوف المرضية (الفوبيا) ، والوسوسة والقهر ، والأفكار المتسلطة . وينجم هذا السلوك عن القلق ، وان كان أقل حدة من القلق ذاته .

٤ ـ حالات الاضطراب النفسى ، التى تتراوح ما بين الاكتئاب البسيط والشديد ، وتتضمن أيضا التبلد الانفعالى أو الهياج المصحوب بالهوس .

٥ ـ تشويه الواقع ، ويتطلب هذا السلوك الاهتمام عند تقدير درجة هذا التحريف أو التشويه وأسبابه .

٦ ـ النكوص ، الذى يشير للارتداد الى مرحلة الطفولة ، والانسحاب من المواقف الاجتماعية ، والعدوان الشديد . وقد يمثل النكوص العزوف عن الالتزام بالمطالب الاجتماعية .

٧ ـ عدم القدرة على ادراك الواقع أو تفسيره أو فهمه .

خامسا ـ نقد مفهوم الصحة النفسية :

ان التعاريف الايجابية للصحة النفسية التى سبق عرضها والتى تمثل آراء الكثيرين من علماء النفس والانثروبولوجيا والعلاج النفسى ، انما تمثل آراء واضحة ومقبولة لدى العلماء السلوكيين من حيث ملاءمتها وصلاحيتها للتطبيق وفقا لموازين عالمية .

وفى الوقت الحاضر فشل المدخل الاكلينيكى والتعريف الايجابى

للصحة النفسية فى اقناع العلماء السلوكيين بصحة هذه التعاريف وفائدتها . ويتلخص النقد الموجه فى النقاط الآتية :

١ – يميل هذا المدخل الى فصم عرى الصلة الوثيقة والعلاقات المتبادلة بين الفرد والمجتمع ، وقد ذكر أحد التقارير ما يأتى[1] :

« أن الصحة النفسية الايجابية فكرة أخلاقية ومثالية ، وقد أصبحت الشغل الشاغل للمثقفين الأمريكيين فى الوقت الحاضر ، فهى بالنسبة لهم تطلع الى الكمال والانجاز والسعادة والاتاجية وتحقيق الذات . فالشخص السوى على هذا الأساس هو المتكامل الشخصية والقادر على الملاءمة بدلا من التوافق ، وهو يتميز بالاستبصار والقدرة على تحقيق الذات والتعبير عنها ، كما يتقبل ذاته . واذا ما تميز الشخص بهذه الصفات فانه يصبح قادرا على السلوك المتكامل والولاء والالتزام الخلقى والشخصى . ولكن يبرز مفهوم آخر اذا نظرنا الى المعادلة من زاوية أخرى .. فاذا كنت أتمتع بصحة نفسية سليمة فانى بالتالى أكون قادرا على أداء واجباتى ومسئولياتى ، ولكن أدائى لواجباتى ومسئولياتى لا يجلب لى بالضرورة الصحة النفسية » .

والخلاصة أن الصحة النفسية تتطلب توازنا بين الصفات الشخصية للفرد ومطالب المجتمع الذى يعيش فيه من خلال العلاقات المتبادلة فيما بين الفرد والمجتمع .

٢ – لم يمكن التعرف على معايير اكلينيكية للسلوك غير مقيدة بقيم معينة . ويحاول الأطباء النفسيون تحديد تعاريف لحالات المرض النفسى والعقلى عن طريق التشخيص بمثل ما يحدث فى حالات المرض العضوى ، اذ يحددون معايير ثابتة اذا انحرف عنها الفرد فمعنى ذلك وجود حالة مرض عقلى . ولكن لب الموضوع هو أن حالة الصحة النفسية أو المرض النفسى هى حقيقة يحكم بها فرد ما ، فمن الذى يصدر هذا الحكم ؟ انه المجتمع بطبيعته واتجاهاته وقيمه هو الذى يصدر هذا الحكم . وهناك تركيز لابراز أهمية الشخصية فى البيئة ،

---

(١) Jahoda, M ; op . Cit .

حيث أن الفرد لا ينشأ أو تنمو شخصيته فى فراغ ، وانما هو يتفاعل مع المجتمع من خلال العلاقات المتبادلة بينه وبين الآخرين مما يساعد على ابراز كيانه فى البيئة التى يعيش بها •

٣ ــ ان الانسان له كيان بيولوجى قائم بذاته ، كما أن التطور الاجتماعى الثقافى قد أوجد معنويات مختلفة ذات نظم خاصة • وكل من هذه النظم فريد فى نوعه وله متطلباته الوظيفية كالتكامل والتكيف والمحافظة على النفس وغيرها • وقد يكون لهذه المتطلبات ما يناظرها فى نظم اجتماعية أخرى كما تحددها مشكلات اجتماعية أو بيئية لا دخل للفرد فيها •

وهكذا أدت بنا المناقشة الى القول بأنه يتعذر رسم اطار محدد للتعريف ، حيث أن ما قد يكون صحيحا ومقبولا فى مجتمع ما لا يكون كذلك فى مجتمع آخر • لذلك ينبغى ألا تكون هناك أنماط عالمية افتراضية لأنها ستؤدى الى متاهة فكرية فيها مجال للتسامح فى التعبير دون الفهم الصحيح والادراك الواعى •

● **الخلاصة :**

خلاصة القول أن الباحث لا يمكنه أن يحدد مقياسا مثاليا بالنسبه لحالة السواء أو الصحة النفسية السليمة دون الرجوع الى الوسط أو البيئة التى يعيش فيها الفرد • وقد يكون من الخطأ أن نرسم نموذجا مجردا للانسان السوى بما لا يتفق مع المجتمع الذى يعيش فيه • كما أنه لا جدوى من أن نرسم هذا النموذج المثالى للشخصية دون أن يكون لها مجتمعا مناسبا تعيش فيه • ولذلك فعلى الذين يحاولون تحديد معنى الصحة النفسية عن طريق تشخيص الحالات المرضية أن يهتموا بالنظام الاجتماعى الثقافى باعتباره الاطار الذى يعيش فيه الانسان ، وبالتالى فهو الذى يحدد معايير حالات الصحة النفسية والمرض النفسى ومقاييسها • ومن هذا المنطلق يمكن رسم سياسة الخدمات التى تستهدف توافق الأفراد فى اطار نظام المجتمع وثقافته وأهدافه •

* * *

الفصل الرابع

توافق الشخصية

● مدخـــل :

التكيف ــ التوافق ــ مفهوم مســتمد أساسا من علم الحيــاة « البيولوجيا » فيشير هذا المفهوم الى أن الكائن الحى يحاول أن يوائم بين نفســه والعالم الطبيعى الذى يعيش فيــه محــاولة منه من أجــل البقاء •• ووفقا لهذا المفهوم يمكن أن يوصف سلوك الانسان كرد فعل للعديد من المطالب والضــغوط البيئية التى يعيش فيها ، كالمناخ وغيره من عناصر الطبيعة • ففى فصل الصيف يحاول الانسان أن يتخفف من ملابسه ، فيرتدى أخف الثيــاب كى يتلاءم مع الجو الحار ، بينما فى فصل الشتاء يحاول أن يتدثر فى الملابس الثقيلة التى تقيه غائلة البرد • وفى الجو الحار يعمل الانسان على أن يتقى حرارة الشمس ويستخدم وسائل التبريد المختلفة ، ويتناول المرطبات ويتناول الأطعمة الخفيفة ، بينما يحاول فى شهور الشتاء أن يستخدم وســائل التدفئة ، ويتناول الأطعمة الدسمة كى تبعث الحرارة فى جســمه •• وتستهدف هــذه العملية بأشكالها المختلفة تلاؤم الفرد مع الظروف البيئية الطبيعية التى يعيش فيها من أجــل البقــاء ، حسب النظرية البيولوجيــة للتوافق والتكيف •

ولقد اســتعار علم النفس المفهوم البيولوجى للتكيف ــ والذى أطلق عليــه علماء البيولوجيا مصطلح « مواءمة » (Adaptation) ــ واســتخدم فى المجالات النفســية والاجتماعيــة تحت مصــطلح « تكيف / توافق » (Adjustment) • فالانسان كما يتلاءم مع البيئة الطبيعية ، يســتطيع أن يتوافق مع الظروف النفســية والاجتماعيــة

المحيطة به والتى تستلزم منه باستمرار أن يتلاءم ويتكيف معها • وتدفع ظروف الحياة الفرد الى هذا التكيف ، ويساعده على ذلك ما لديه من ذكاء وقدرة على التطبع الاجتماعى •• ففى الطفولة مثلا يتطلب الآباء من الطفل أن يوائم نفسه ويكيفها مع مطالب البيئة وأن يعمل على اكتساب العادات والقيم وأنماط السلوك المقبولة ، وكذلك بالنسبة للراشد حيث يتوقع منه التوافق والمواءمة فى مجالات الدراسة والعمل والأسرة •

ان كل مرحلة من مراحل النمو تتطلب من الفرد أن يقوم بأدوار اجتماعية ونفسية معينة •• فالأدوار التى يقوم بها الفرد فى مرحلة الطفولة تختلف عن الأدوار التى يقوم بها فى شبابه أو كهولته • والانسان عادة يقوم بأداء أكثر من دور عندما يصل الى مرحلة الرشد ، وهذا يتطلب منه أن يزيد من قدراته على التوافق الاجتماعى وتعديل سلوكه[1] •

* * *

أبعاد التوافق

هناك ثلاثة أبعاد للتوافق :

١ ــ التوافق الشخصى •
٢ ــ التوافق الاجتماعى •
٣ ــ التوافق المهنى •

وسنناقش فيما يلى كلا من هذه الأبعاد :

أولا ــ التوافق الشخصى :

هو أن يكون الشخص راضيا عن نفسه ، غير كاره لها أو نافر منها أو ساخط عليها أو عديم الثقة بها ، كما تتسم حياته النفسية بالخلو من الصراعات النفسية والتوترات التى تقترن بمشاعر الذنب والقلق والنقص • فالتوافق الشخصى يتضمن السعادة مع النفس والرضا

---

(١) مصطفى فهمى : التكيف النفسى . القاهرة : مكتبة مصر ، ١٩٦٧ ، ص ٩ ــ ١٠

عنها ، واشباع الدوافع والحاجات الأساسية ، ويعبر عن أمن داخلى دون صراع أو شعور بالاحباط أو بالمرارة ، ويتضمن كذلك التوافق لمطالب النمو فى مراحله المختلفة .

ان الشخص المتوافق / السوى هو الذى يقف من المشكلات التى تواجهه موقفا ايجابيا بناء ، بمعنى أنه يواجه العوامل التى تسبب المشكلات ويحاول ـ فى حدود امكاناته ـ أن يزيل هذه العوامل أو يتغلب عليها من خلال مواجهتها مواجهة موضوعية . أما الشخص غير المتوافق فهو الذى لا يستطيع أن يعالج العوامل المسببة للمشكلة بل يعالج مظاهرها فقط . وبمعنى آخر فهو يحاول أن يخفف من حدة التوتر الناشىء عن المشكلات التى يواجهها فى المجتمع اما عن طريق الهروب من المجتمع ، أو العدوان على المجتمع ، أو استعطافه واستجداء شفقته . وباختصار فانه يتكيف للبيئة بطريقة أو بأخرى من الطرق السلبية غير السوية .

ان الأساس فى انعدام التوافق الشخصى هو وجود صراع انفعالى لا شعورى حاد .. وينشأ هذا الصراع عادة فى مرحلة الطفولة ؛ حيث يكتسب الطفل هذا الصراع من والديه أو من يقوم مقامهما فى تربيته وتنشئته الاجتماعية . ولكن ليس معنى هذا أن الوالدين يعلمان طفلهما هذا الصراع عن وعى وادراك ، بل ان الطرق الخاطئة التى يتبعها الوالدان فى معاملة طفلهما هى التى تسبب هذا الصراع اللاشعورى عند الأطفال . والواقع أن الصراع من خواص الحياة فى كل سن وفى كل مرحلة وفى كل طبقة اجتماعية ، ولكن أنواع الصراع تختلف فيما بينها ، فبعضها ضعيف والبعض الآخر قوى ، كما أن البعض شعورى والبعض الآخر لا شعورى .

ان تفسير الانحراف النفسى الناتج من الظروف الاجتماعية التى يمر بها الفرد تحتاج الى أن نوضح بعض العوامل النفسية التى تتوسط بين هذه الظروف الاجتماعية من ناحية وبين الانحرافات السلوكيه من ناحية أخرى . وهذه العوامل هى :

١ ـ الاحباط ٠ ٢ ـ الصراع ٠
٣ ـ القلق ٠ ٤ ـ الكبت ٠

وسنناقش هذه العوامل فيما يأتى[1] :

١ ـ الاحبـاط :

« الاحباط هو تلك العملية التى تتضمن ادراك الفرد لعائق يحول دون اشباع حاجاته أو تحقيق هـدفه ، أو توقع الفرد حدوث هـذا العائق فى المستقبل » ٠

ويحدث الاحبـاط نتيجة لادراك الفرد للظروف والمواقف التى تحيط به ، والتى قد تختلف من فرد الى آخر ٠٠ فقد ينظر شخص الى موقف ما على أنه عامل احباطى الى حد كبير بينما ينظر شخص آخر نفس الموقف على أنه غير محبط ، وقد يسبب موقف ما الرضا للبعض بينما يسبب الضيق للبعض الآخر ٠ ويتوقف نظرة الفرد الى الموقف وما اذا كان احباطيا ، على دوافع الفرد ومعتقداته وحاجاته وخبراته ٠

ومن العوامل الهامة التى تحـدد ادراك الفرد للموقف الاحباطى مدى ثقة الفرد بذاته ، فالانسـان الذى تمكنه ظروفه وامكاناته من التغلب على ما يصادفه من عقبات يحرز قدرا كبيرا من الثقة بالنفس ٠ وتحدد ثقة الفرد بذاته مدى ادراكه للمواقف الاحباطية ، فالشـخص الذى يثق بنفسه يستطيع أن يتغلب على المواقف الاحباطيـة ٠ ويتأثر هذا الادراك أيضـا بمدى ثقـة الفرد فى البيئة المحيطة به ، وتتضمن هـذه البيئة الأشخاص الآخرين ، والبيئة الطبيعيـة المحيطة بالفرد ، والبيئة الثقافية بما فيها من عناصر مختلفة ٠ فاذا كانت هـذه العوامل تتفاعل بحيث تشبع للفرد دوافعه وحاجاته وتعترف له بالمكانة والتقدير ، فان الفرد سـوف يثق فى بيئته ، وتصبح نظرته اليها مليئـة بالتفاؤل والأمل ٠ أما اذا كانت هذه العوامل البيئية تقيم حواجز أو عوائق فى

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى : سيكولوجية المهن (ط ٤) ٠ القاهرة : العالمية للنشر ، ١٩٧٧ ، ص ٢٥ ـ ٣٢

طريق اشباع الفرد لحاجاته فان ثقته بها ستضعف ، وبالتالى سيتوقع منها الاحباط ، بما يؤثر فى ادراكه للمواقف الاحباطية ، وبالتالى يؤثر فى سلوكه • فعندما تضعف ثقة الفرد فى بيئته فانه سيشك فى نوايا الآخرين ، ويفقد الثقة فى التنظيمات الاجتماعية السائدة فى البيئة ، ويتمنى فى قرارة نفسه انهيار البناء الاجتماعى القائم فى المجتمع •

ويمكن تقسيم الاحباط الى « احباط خارجى » و « احباط داخلى » •

(ا) **الاحباط الخارجى** ـ وينقسم الى :

١ ـ **العوز الخارجى (الاحتياج)** : وهو يتضمن نقصا فى حاجات الفرد الخارجية •• ومن أمثلة ذلك : حالة الفقر التى تكون سببا فى عدم اشباع الكثير من حاجات الفرد ، وكذلك حال الشخص الذى فقد والده فى طفولته فانه يشعر بالحاجة الى شخص يعتمد عليه • وهذا العوز جزء من واقع الشخص ويستمر معه مدة طويلة •

٢ ـ **الحرمان الخارجى** : وهو يعنى الحرمان الناشىء عن فقد الشخص لشىء خارجى كان يملكه ، مثل فقد عمل أو ممتلكات أو صديق عزيز • ويسبب هذا النوع من الحرمان احباطا شديدا ، خاصة اذا كان مفاجئا ، حيث يتطلب اعادة توافق الفرد مع بيئته •

٣ ـ **الاعاقة الخارجية** : وهى تتدخل بين الفرد وهدفه الذى يسعى الى تحقيقه فتحول دون تحقيق هذا الهدف • ومن أمثلة ذلك الأبواب المغلقة والطرق المسدودة والبعد فى المسافة وغير ذلك من العوائق المادية • وهناك أيضا عوائق اجتماعية تحول بين الفرد وتحقيق أهدافه ، كالمكانة الاجتماعية أو عدم التقبل أو النبذ ، وهذه تكون أشد وطأة من العوائق المادية •

(ب) **الاحباط الداخلى** ـ وينقسم الى :

١ ـ **العوز (الاحتياج) الداخلى** : ومن أمثلة ذلك العيوب

والتشوهات الخلقية كفقدان السمع أو البصر أو الشلل أو التخلف العقلى أو ضعف البنية •

٢ ـ **الحرمان الداخلى** : ويتضمن الفقدان المفاجىء للبصر أو للسمع أو لأى عضو من أعضاء الجسم كان يتمتع به الفرد من قبل • مثال ذلك : فقد أحد عازفى البيانو لأصابع يديه فى حادث مثلا يسبب له احباطا شديدا أكثر مما يتعرض له شخص فقد أصابعه فى طفولته المبكرة •

٣ ـ **الاعاقة الداخلية** : مثال ذلك ، الرغبة فى حضور اجتماعين حدد لهما وقت واحد ، وهذا النوع من الاعاقة الداخلية يطلق عليه أحياناً لقب « صراع » •

٢ ـ الصراع :

تؤدى بنا دراسة الاحباط الى دراسة عملية أخرى هى « الصراع » والصراع يتضمن وجود دافعين متعارضين يتعذر اشباعهما فى وقت واحد • وينقسم الصراع الى ثلاثة أنواع :

(أ) صراع الاقدام :

يتمثل هذا النوع من الصراع فى وجود موقفين متعادلين من حيث الصفات التى تجذب الفرد نحو كل منهما ، ولكن يتعذر عليه اشباعهما فى وقت واحد • مثال ذلك : الذى يمارس احدى ألعابه المفضلة ، وهو فى الوقت نفسه جائع وقد حان وقت تناول الطعام ، فهو هنا قد تعرض لنوع من الصراع المؤقت فى سبيل الوصول الى قرار معين يؤدى به الى تفضيل أحد الموضوعين على الآخر ، اما أن يستمر فى اللعب ويتنازل عن تناول الطعام مؤقتا ، أو يتناول الطعام ويؤجل اللعب الى وقت آخر •

(ب) صراع الاقدام / الاحجام :

وهو يتمثل فى وجود أمرين يود الشخص تحقيق أحدهما ، ولكن الأمر الآخر يمنعه من ذلك • وبمعنى آخر ينشأ هذا الصراع عن وجود

رغبتين متعارضتين احداهما موجبة والأخرى سالبة • وفى كثير من الأحيان يكون للموقف الواحد الذى يتعرض له الشخص عوامل مشجعة على الاقتراب منه وأخرى منفرة منه • مثال ذلك : الطالب الذى يرغب فى النجاح بدرجة ممتازة ، وفى الوقت نفسه يخشى على صحته من الاجهاد وبذل الجهد الكبير •

ونشير هنا الى أنه عندما تكون الصفات الموجبة والصفات السالبة ذات درجة واحدة من الأهمية فان الصراع يكون قويا ، ويتأرجح الفرد نتيجة لذلك بين الاقدام والاحجام •• فهو عند اقدامه على الموقف المفضل تكبر فى نظره أضرار اقترابه وتتجسم فيبتعد عن الموقف ؛ وبمجرد ابتعاده تكبر فى نظره ميزات الموقف فيحاول الاقتراب ثانية . ويظل هكذا متأرجحا بين الاقدام والاحجام • ان هذا النوع من الصراع كبير الأهمية بالنسبة لعملية التوافق ، اذ أن الوصول الى حل لهذا الصراع أمر صعب ، فكل حل يلجأ اليه الفرد يكون مصحوبا بالاحباط • ان حل المشكلة لا بد أن يتضمن أحد أمرين : اما أن يفقد شيئا يحبه أو يقبل شيئا لا يرغب فيه •

(ج) صراع الاحجام :

يتمثل هذا الصراع فى وجود الشخص أمام حالة ينشأ عنها موقفان كلاهما يلحق به ضررا ما •• مثال ذلك : حالة الجندى الذى يجد نفسه على أبواب معركة ، فانه يجد نفسه متنازعا بين دافعين : حرصه على حياته وخوفه من الموت ، ودافع آخر هو خوفه من العار الذى يلحق به اذا هرب من المعركة والمحاكمة التى تنتظره • فالفرد هنا يواجه موقفين سلبيين أحلاهما مر ويلحق به ضررا ، ولكى يتجنب أحدهما فانه يضطر لمواجهة الآخر • وصراع الاحجام هذا يسمى « صراع الاحراج » • والواقع أننا نجد كثيرا من الأفراد لا يستطيعون فى مثل هذا الموقف أن يختاروا اتجاها معينا للسير فيه ، ويكون نتيجة ذلك أن يزداد تردد الفرد بين الموقفين ويعانى « القلق » الشديد •

٣ ـ القلق :

بناء على مناقشاتنا السابقة للصراع يمكن القول بأن القلق هو العامل الأساسى الذى يتدخل فى حالات الانحراف النفسى • ولكى ندرك معنى القلق لا بد أن نميز بينه وبين الخوف •• فالخوف يعتبر استجابة متعلمة مشتقة من الألم ، هذا بجانب أن له صفة الدافع : اذ يمكن عن طريق خفضه تعلم استجابات جديدة • ويشارك القلق الخوف فى هذه الصفات ، كما أنه يشترك معه فى معظم الأعراض الخارجية أيضا • فمن أعراض القلق : اضطرابات فى القلب كالخفقان ، واضطرابات فى النفس ، ونوبات من الدوار والاسهال وافراز العرق . والشعور بالاعياء مما قد يصل الى حد الاغماء ، والقىء ، ونوبات من الارتجاف والتشنج العضلى ، وشدة التوتر والاستعداد للتهيج لأتفه الأسباب ، والاحساس العام بعدم الراحة •

ولكن القلق يختلف عن الخوف من ثلاثة نواح : الاولى ، هى أن الخوف استجابة انفعالية لخطر خارجى محدد ، فقد يخاف الجراح على حياة مريضه وتزداد عنايته به • أما القلق فيمكن أن نسميه الخوف من المجهول ، فهو الخوف الذى لا أساس له فى العالم الواقعى • وكثيرا ما تسمع الأشخاص الذين يعانون قلقا مرضيا يقررون أنهم لا يعرفون لخوفهم مصدرا ، فهم يخافون من أنفسهم أو يخافون من لا شىء أو لا يعرفون مم يخافون • ومثل هذا الخوف يظهر بوضوح فى المواقف الجديدة التى يواجهها الفرد القلق لأول مرة مثل الاقبال على الزواج أو تحمل مسئولية جديدة أو السفر ، دون أن يكون لذلك سبب معقول•

والناحية الثانية التى يختلف فيها القلق عن الخوف هى أنه على الرغم من أن كلا من الخوف والقلق حالات توقعية الا أن مثيرات القلق تأتى من داخل الفرد نفسه ، من دوافع معينة لارتكاب سلوك محرم وليس من خطر خارجى • وفى أثناء عقاب الطفل مثلا على الاستجابات المحرمة يكتسب الخوف نتيجة لارتباط هذه الاستجابات بالألم الناتج

عن العقاب ، فيصبح الخوف مرتبطا بهذه الاستجابات وكذلك بالدوافع التى أدت اليها ، فكلما أثيرت هــذه الدوافع فانها تستثير معها القلق .

وهذا يؤدى بنا الى الناحيــة الثالثة التى يختلف فيها القلق عن الخوف .. تلك هى أن الألم الذى يتوسط فى اكتساب القلق ناتج عن عملية عقاب اجتماعية ، يوقعها عادة الأبوان أو من يقوم مقامهما ، وهذا مما يزيد من حدة الانفعال فى حالة القلق ، فالأبوان ــ بحكم اقترانهما فى خبرة الطفل بالعقاب ــ يصبحان هما ذاتهما من مثيرات الخوف . وهذا هو أســاس الشــعور بالتناقض الوجــدانى فى معظم الثقافات المتحضرة .. فكما أن الوالدين يكافئان الطفل فانهما يعاقبانه كذلك ، الى جانب أنهما يوفران له الدفء العاطفى والرعاية والأمن والاشباع فانهما أيضا يثيران عنــده الخوف ويسببان له الألم والتوتر . وعلى ذلك فلا يجد الطفل مفرا من أن يحب والديه ويرغبهما من ناحية ، كما يخافهما ويكرههما من ناحية أخرى . ولكن كراهية الوالدين تعتبر من أكبر مظاهر العدوان التى تجلب عقــاب المجتمع ، ولذلك فان هــذه الكراهية نفسها تصبح مثيرة للقلق .. وهكذا تتكرر مرة أخرى تلك العملية التى يكتسب القلق من خلالها .

٤ ــ الكبت :

مما يزيد الأمر تعقيدا بالنسبة للقلق عملية أخرى تعتبر نتيجة له ومسئولة عن ذلك الغموض الذى يحيط به ، تلك هى عملية «الكبت» . ومعنى الكبت استبعاد الدوافع المثيرة للقلق من الشــعور .. فعندما يعاقب الأبوان الطفل لفعل خاطىء فان الدافع لارتكاب هــذا الفعــل يصبح مثيرا للقلق ، ولمــا كان القلق ذاته صفة للدافع فان القلق فى هذه الحالة يدفع الى عدة استجابات للتخلص من هذا المثير . ولمــا كان المثير فى حالة القلق هو مثير داخلى ، فان الاستجابات التى يمكن أن تحقق هذا الغرض لا تخرج عن أحد الاحتمالات الثلاثة الآتية :

(أ) الهروب من المواقف أو المثيرات التى تبعث هذه الدوافع .
(ب) قمع هذه الدوافع . (جـ) كبت هذه الدوافع .

والاحتمال الأول غير وارد ، اذ يستحيل على الانسان أن يهرب من هذه المواقف ، حيث ان الثقافة التى نعيش فيها مليئة بمواقف التنافس والعدوان والاحباط وما أشبه ، مما يرتبط بالدوافع التى اقترنت بالعقاب أثناء عملية التطبيع « التنشــئة الاجتماعية » كما أن الاحتمال الثانى متعــذر ، لأن « القمع » عملية تتطلب توافر القدرة على الاســتدلال والحكم والمقارنة وغير ذلك من العمليات العقلية العليا ، التى لا تكون قد نضجت بعد عند الطفل أثناء عملية التطبيع الاجتماعى • فلا يبقى اذن سوى الاحتمال الثالث وهو « الكبت » ، أى استبعاد هذه الدوافع من الشعور أو من القدرة على التعبير اللغوى ــ سواء فى ذلك اللغة الظاهرية أو اللغة الداخلية (أى التفكير) •

وليس معنى اســتبعاد الدوافع المثــيرة للقلق من التفكير أنهــا تستأصل كلية ، فالمثيرات الداخلية الدوافع المحرمة تظل فعالة وتعمل على استثارة القلق كلما استثيرت باحدى الطرق الرمزية غير اللغوية • فعن طريق الكبت لا يستطيع الشخص أن يقول ــ سواء بلغة ظاهرة صريحة أو بمجرد التفكير : « أنا أكره أمى » أو « أنا أريد أن أضرب أمى » • ولكن مثل هذا الشخص قد يجد اما لذة كبرى أو ضيقا شديدا عنــد مشــاهدة مباريات الملاكمة أو أفلام العنف أو رؤية اخــوانه يتشاجرون ، وذلك دون تفسير واضح لهذه المشــاعر ، فان مثل هذه المناظر تثير نزعاته العدوانية بطريقة لا شعورية •

وتلخيصا لمــا سبق مناقشته فيما يتعلق بالصراع والكبت يمكن القول بأن الطفل فى أثناء ســعيه لخفض التوتر الناتج عن دوافعــه المختلفة قد يصطدم بالسلطة الخارجية التى تستخدم العقاب فى عمليه التطبيع الاجتماعى • وسرعان ما يتحول الصراع بين الطفل والســلطة الى صراع بين الطفل ونفسه ، أى بين هذه الدوافع من ناحيــة وبين الخوف من العقاب من ناحية أخرى • ولمــا كانت هذه الدوافع مقرونة بالألم ومثيرة للخوف ، لذا يكبت الطفل هذه الدوافع ، أى يستبعد من شعوره كل ما يرتبط بها من أفكار أو ذكريات • ولكنها تظل مع ذلك

فعالة بطريقة لا شعورية ، ولذا فانها تثير الخوف بطريقة لا شعورية أيضا ، أو بمعنى آخر تثير القلق .. ومعنى ذلك أن عملية الكبت تصبح حلا غير ناجح للصراع ، اذ يظل الصراع قائما بين الدوافع المكبوتة من ناحية وبين القلق المتعلق بها من ناحية أخرى ، ويصبح من الضرورى حينئذ الالتجاء الى أساليب سلوكية أخرى لحل هذا الصراع . وهذه الأساليب السلوكية التى يتخذها الفرد للتخفيف من حدة القلق الذى يعانيه من ناحية ، ولاشباع دوافعه من ناحية أخرى ، هى ما تسمى « بالأساليب اللاتوافقية للسلوك » أو « الحيل اللاشعورية » ، وسنناقشها فيما بعد .

* * *

ثانيا — التوافق الاجتماعى :

يعيش الانسان فى مجتمع ، وتحدث فى اطار المجتمع عمليات من التفاعل فيما بين الأفراد والجماعات والمجتمع . ويرتبط بين الأفراد نمط ثقافى معين ، كما أنهم يتصرفون وفق مجموعة من النظم والقوانين والعادات والقيم والمبادىء التى يخضعون لها ، للوصول الى حلول لمشكلاتهم بما يضمن استمرار بقائهم بطريقة سليمة .

وتعرف هذه العملية باسم « عملية التطبيع الاجتماعى » . فالتطبيع الاجتماعى يتم فى اطار العلاقات الاجتماعية التى تحيط بالفرد ويتفاعل معها ، سواء أكانت هذه العلاقات فى محيط الأسرة أو المدرسة أو الرفاق أو المجتمع العام . والتطبيع الاجتماعى هنا ذو طبيعة تكوينية ، لأن الكيان الشخصى والاجتماعى للفرد يبدأ فى اكتساب الطابع الاجتماعى السائد فى المجتمع ، من تنمية للحصيلة اللغوية وتشرب بالعادات والتقاليد السائدة وتقبل لبعض المعتقدات ونواحى الاهتمام التى يؤكد عليها المجتمع . ولكن هذا الطابع الاجتماعى الذى يكتسبه الفرد لايكفى لاتمام عملية التطبيع الاجتماعى على الوجه الذى يحقق للفرد قدرا من التوافق الشخصى والاجتماعى ، الا فى نطاق الأبعاد التالية :

١ ـ الالتزام بأخلاقيات المجتمع :

ان عمليـة التطبيع الاجتماعى للفرد لا بد أن تتضمن التزامه بما فى المجتمع من أخلاقيات نابعة من تراثه الروحى والتاريخى والاجتماعى• وتعتبر هذه الأخلاقيات علامات هامة على طريق الفرد ، تنبهه الى ما فى المجتمع من أوامر ونواهى ، بمعنى ما يحبذه من أساليب سلوكية وما ينهى عنه من محرمات وممنوعات ، ونواحى التفضيل المختلفة التى يؤيدها الكيان الثقافى لهذا المجتمع •

ان التزام الفرد بهذه الأخلاقيات ينمى لديه الشعور بالانتماء للمجتمع والتوحد مع الجماعة ، وبمدى رضاها عنه ، وارتياحها لما يصدر عنه ويتفق مع أخلاقيات الجماعة وقيمها •

٢ ـ الامتثال لقواعد الضبط الاجتماعى :

ينظم كل مجتمع انسانى مجموعة من القواعد والنظم التى تضبط علاقات الفرد بالجماعة والمجتمع العام ، وتحكمها وفقا لمعايير وقوانين ترتضيها الجماعة • والفرد فى أثناء عملية التطبيع الاجتماعى يتعرف على هذه القواعد والنظم ويتمثلها ، حتى تصبح جزءا من تكوينه الاجتماعى ونمطا محددا لسلوكه فى الجماعة •

ان نمو قدرة الفرد أثناء عملية التطبيع على الضبط الاجتماعى هو أشبه بالرقيب الذى ينظم حياة الفرد الاجتماعية والنفسية داخل إطار العلاقات الاجتماعية ، وفى أثناء محاولته تأكيد ذاته والتعبير عن مشاعره وعواطفه وانفعالاته ، وفى سعيه لتحقيق أهدافه ومستويات طموحه •

٣ ـ التفاعل الاجتماعى والتفاعل العائلى :

يتميز التفاعل العائلى ــ الأسرى ــ عن أى تفاعل اجتماعى آخر بخصائص معينة أساسها الود والترابط والحرية والصراحه والاستمرار ، وتلك صفات لا نراها بوضوح فى أية علاقات اجتماعية أخرى •

ان أهم المؤثرات التى يقابلها الفرد فى طفولته هى تلك التى تأتيه من الأسرة ، تلك الخلية الأساسية للمجتمع ، فهى التى تحيطه برعايتها فى سنى حياته الأولى • فالأسرة ، كمجتمع صغير ، عبارة عن وحدة حية ديناميكية ، تستهدف تنمية الطفل اجتماعيا • ويتحقق هذا الهدف بصفة مبدئية عن طريق التفاعل العائلى الذى يحدث داخل الأسرة ، والذى يلعب دورا هاما فى تكوين شخصية الطفل وتوجيه سلوكه وقدرته على التوافق مع البيئة الخارجية • ان الطفل فى هذا الجو العائلى يتعلم كيف يمشى ويتكلم وينمو وتتكون شخصيته ، أى أن الطفل يكتسب داخل الأسرة أسلوب تكيفه مع الاطار الاجتماعى المحيط به وتتكون عاداته واتجاهاته وميوله وأسلوب سلوكه •

ولكى ينمو الطفل نموا اجتماعيا صحيحا يجب أن تتوفر فى هذا الجو الأمور الآتية :

(أ) أن يشعر الطفل بأنه مرغوب فيه ومحبوب ، دون الاسراف فى التدليل ، وتحقيق حاجاته النفسية عن طريق الأسرة •

(ب) تعتبر الأسرة المسرح الأول الذى ينمى فيه الطفل قدراته ، ويكون ذلك عن طريق اللعب ومشاركة اخوانه ورفاقه فى لهوهم ومسراتهم وخبراتهم ، ولا شك فى أن للتشجيع والمنافسة المشروعة البناءة أثر هام فى نمو هذه القدرات وتطورها •

(جـ) يستطيع الطفل فى محيط الأسرة أن يتعلم كيف يتخلى عن الأنانية ، بمعنى أنه يتعلم كيف يحترم حقوق الغير وكيف يتلاءم مع غيره من أفراد الأسرة ، وأن يجد فى الأبوين القدوة الحسنة •

(د) يتعلم الطفل فى الأسرة مبادىء السلوك والتعامل مع الآخرين ، ويكون ذلك عن طريق ملاحظته لسلوك أفراد الأسرة واستجاباتهم للمواقف المختلفة •

(هـ) يكتسب الطفل ـ نتيجة تفاعله وخبراته فى الأسرة ـ مجموعة من العادات الخاصة بتناول الطعام وارتداء ملابسه والعناية

بهندامه والنظافة والمحافظة على النظام والعناية بشئونه وعادات المشى والكلام والحركة والتخاطب مع الآخرين وكيفية معاملتهم .

(و) من خلال الأسرة يتعلم الطفل الكثير ويكتسب العقائد الدينية والأفكار التى تدل على التسامح أو التعصب والمخاوف واحترام النظام والقانون وما أشبه .

وهكذا ، فبقدر ما تكون ظروف التنشئة الاجتماعية فى الأسرة سليمة وتتم فى جو نفسى اجتماعى يتسم بالأمان والتضامن والمحبة ، بقدر ما يكون ذلك عاملا محددا لتكيف الفرد وتوافقه فى مراحل عمره المختلفة .

٤ ـ التفاعل الاجتماعى والجو المدرسى :

لا تقتصر رسالة المدرسة اليوم على حشد المعلومات فى رؤوس التلاميذ ، بل أصبحت المهمة تربوية أساسا . وكذلك المعلم لم تعد رسالته تلقين للمعلومات وانما أصبح مسئولا عن تربية التلاميذ ورعايتهم نفسيا واجتماعيا . ان التربية الحديثة تطالب المدرس أو المربى أن يلاحظ تطور التلميذ ويرعاه . وتنحصر عملية التربية ـ وفقا لهذا المفهوم ـ فى تحقيق التوافق بين التلميذ والقيم التى تفرضها البيئة ، ويعتمد نجاح العملية التربوية على الطريقة التى يستخدمها المربى لتحقيق هذا التوافق .

ان التعليم ـ بفضل المناهج الحديثة ـ يعتبر فرصة طيبة للتلميذ للممارسة والتجريب واكتساب الخبرة ، وفرصة انطلاق الى الخبرة الحية الواقعية لتحقيق تكامل قدراته وشخصيته . والتعليم الذى يحقق للتلاميذ فرصا فعالة للنمو والتعبير عن أنفسهم ، ينبغى أن تتوافر فيه المقومات الآتية :

(أ) يجب ألا تكون قاعات الدراسة مكتظة بالتلاميذ ، بل ينبغى أن يكون العدد محدودا بحيث يسمح للتلاميذ بحرية الحركة والعمل والانطلاق .. ان العمل المدرسى فى الجو المزدحم بالأعداد الكبيرة من

التلاميذ يحمل آثار الروح الدكتاتورية ، حيث يسيطر على قاعة الدراسة النظام التسلطى الذى يلزم المعلم أن يفرض احترام التعليمات والأوامر ، وأن يقيم طاعة التلاميذ له على أساس من الارغام . ومن هنا يشيع جو من البغض والكراهية للمعلم الذى يعمل على أن يحيط نفسه بجو من الرهبة حتى ينال طاعة التلاميذ .

(ب) ان التربية الحديثة يجب أن تستهدف منذ البداية تطبيع التلاميذ اجتماعيا ، وبقدر ما تسعى المدرسة الى هذا التطبيع الاجتماعى بقدر ما تزداد قدرة التلميذ على التوافق مع البيئة . ان قدرة الفرد على أن يصل الى درجة من التوافق مع نفسه تعنى فى مضمونها قدرته على التكيف مع القيم والأهداف التى ارتضاها لنفسه ، وهذه القدرة — بالتالى — تساعده على أن يحقق درجة معقولة من التوافق مع الجماعة التى ينتمى اليها . ويترتب على هذا شعور الفرد بتقبله لذاته وبتقبل الآخرين له ، مما يؤدى الى شعوره بالراحة النفسية والرضا عما يقوم به من تصرفات وسلوك .

(ج) يجب أن تسعى المدرسة الى استخدام عنصر « التشويق » فى الدراسة حتى يجتذب اهتمام التلاميذ للمواد الدراسية . وبقدر نجاح المدرسة فى هذه العملية بقدر ما تستطيع أن تحقق عملية التطبيع الاجتماعى للتلاميذ . ويحتاج عنصر التشويق الى عدم التمسك بقيم بالية لا تصلح للعصر الحديث .. فتصبح المدرسة كخلية النحل تسودها الحركة والفاعلية من خلال ورش الهوايات والفصول البهيجة المليئة بالوسائل التعليمية ، واشتراك التلاميذ فى عمليات النظافة وحفظ النظام والشئون الادارية بالمدرسة ، والاشتراك فى الألعاب وممارسة الهوايات واقامة الحفلات المدرسية وما أشبه .

(د) ان التوجيه التعليمى يمثل جانبا هاما من العملية التربوية ، وهو يستهدف تكييف التعليم وفقا لامكانيات كل فرد حسب قدراته واستعداداته وخواص شخصيته واهتماماته . هذا بالاضافة الى عملية

الارشاد النفسى التى تساعد من يعانى مشكلات سوء التوافق من التلاميذ كى يتغلب على مشكلاته ويحقق التوافق فى مختلف شئون حياته . ويقوم بهذه العملية « مرشد نفسى » متخصص سواء بالمدرسة أو بالمنطقة التعليمية .

مما تقدم نستطيع القول ان المدرسة وما تقدمه من أساليب تربوية حديثة تلعب دورا هاما فى عملية التوافق الاجتماعى . وبقدر ما تقدمه المدرسة من أساليب تربوية سليمة ، بقدر ما تغرس من بذور يظهر آثارها بوضوح فى حياة الفرد .. طفلا أم مراهقا ، شابا أم كهلا ، رجلا أم امرأة .

* * *

ثالثا ـ التوافق المهنى :

تنتقل الآن الى مناقشة « التوافق المهنى » باعتباره أحد الفروع المتخصصة للتوافق والتى تتعلق بمجال العمل ، ولاشك أن مجال العمل يعتبر من أهم المجالات التى ينبغى أن يحقق فيها الفرد أكبر قدر من التوافق . وترجع هذه الأهمية الى عاملين أساسيين : أحدهما أن الفرد يقضى نسبة كبيرة من وقته فى مجال العمل ، والثانى هو الدور الهام للعمل وتأثيره على حياة الفرد ومكانته[1] .

ويعرف التوافق المهنى بأنه « توافق الفرد لدنيا عمله .. فهو يشمل توافق الفرد لمختلف العوامل البيئية التى تحيط به فى العمل ، وتوافقه للتغيرات التى تطرأ على هذه العوامل على مر الزمن ، وتوافقه لخصائصه الذاتية . وهكذا فان توافق الفرد مع المشرف عليه ، وصاحب العمل أو المسئول عنه ، ومع زملائه ، وكذلك توافقه مع مطالب العمل ، وتوافقه مع ظروف العمل المتغيرة ، وتوافقه مع قدراته الخاصة ، ومع

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى : الارشاد النفسى والتوجيه التربوى والمهنى . القاهرة : الخانجى ، ١٩٧٦ ، ص ١٠

ميوله ، ومع شخصيته ، يعتبر هذا جميعه متضمنا فى مفهوم التوافق المهنى »[1] .

ويمكن أيضا أن نعرف التوافق المهنى بالنسبة لنتائجه ، واحدى هذه النتائج هى « الاشباع المهنى » .. فهناك الرضا الاجمالى عن العمل ، كما أن هناك الرضا عن جوانب معينة من بيئة العمل . ومقياس الرضا الاجمالى عن العمل يسمح للفرد بأن يقيم كل جانب للعمل فيما يتعلق بالأهمية النسبية له . ومقاييس الاشباع المهنى لها جوانب كثيرة مترابطة تشير الى التوافق المهنى ، من بينها زيادة الأجر ، والتقدم فى العمل ، والثبات والاستقرار فى العمل ، ومكانة العامل ، ومدى الاستفادة من قدرات العامل .

هذا ونستنتج التوافق المهنى للفرد من علامتين أساسيتين هما : الرضا/الاشباع (Satisfaction) والارضاء/ الكفاية (Satisfactoriness) « فالاشباع » يشمل الرضا الاجمالى عن العمل والرضا عن مختلف جوانب بيئة العمل (المشرف ، الزملاء ، المؤسسة التى يعمل بها ، ظروف العمل ، ساعات العمل ، الأجر ، نوع العمل) ، كما يشمل اشباع حاجاته وتحقيق طموحه . أما « الكفاية » فتتضح من انتاجية الفرد وكفايته .. من الطريقة التى ينظر بها اليه مشرفه وزملاؤه والمؤسسة التى يعمل بها . كما تتضح سلبيا من غيابه وتأخره ، ومن اصاباته واستهدافه للحوادث ، ومن عدم استقراره فى العمل[2] .

وللتوافق المهنى شروط تتلخص فى الآتى :

١ ــ شعور الفرد بالرضا عن مستواه الاقتصادى .

---

(١) Scott, T., et. al ; A Difiniton of work Adjustment - Minnesota : Industrial Relations center , Univ of Minnesota, 1958 , P . 4.

(٢) Ibid, P. 58.

٢ ــ شعور الفرد باهتمام صاحب العمل به كانسـان له مكانته الذاتية •

٣ ــ تأكده من أن رؤسـاءه ليسوا رقباء عليـه بقـدر ما هم موجهون له •

٤ ــ حب الفرد للعمل الذى يؤديه ، وشعوره بالأمن والاستقرار فى العمل •

٥ ــ توافر فرص الترقى فى العمل •

٦ ــ توافر فرص الاستزادة من المعرفة والتقدم فى العمل •

٧ ــ توافر الفـرص للفرد للاسـتفادة من آرائه وأفكاره فى الانتاج •

* * *

● **تحقيق التوافق المهنى فى الصناعة(1) :**

ولكى نعمل على تحقيق التوافق المهنى ورفع مستواه فى الصناعة ينبغى العمل على تحسين توافق الفرد وعلاقاته مع مكونات بيئته المهنية ، وهى تشـمل ما يأتى : علاقة العامل بحرفته ، علاقته بنظام المؤسسة ، علاقته بالرؤساء ، علاقته بزملائه ، علاقته بظروف العمل ، علاقته بآلات وأدوات العمل ، علاقته ببيئته خارج المؤسسة • وفيما يلى مناقشـة لهذه العلاقات :

١ ــ فبالنسبة « لعلاقة العامل بحرفته » •• نجد ضرورة لوضع الفرد فى العمـل الملائم له والذى يتناسب مع قدراته واسـتعداداته وميوله وشخصيته • وتساعدنا بالدرجة الأولى على تحقيق ذلك عمليتان هما : عملية « الانتقاء المهنى » وعملية « التوجيه المهنى » • وان فشلنا فى تحقيق ذلك يتسبب عنه ترك الكثيرين لأعمالهم وانتقالهم الى غيرها لفشلهم فيها • فالعامل الذى يعجز عن الاستقرار فى حرفة معينة هـو ذلك الذى لم يصادف العمل الذى يناسبه منذ البداية • ولعلنا ندرك

---

(1) فرج عبـد القادر طـه : علم النفس الصـناعى والتنظيمى • دار المعارف ، ١٩٨٣ • ص ٥٧ ــ ٦٣

مقدار ما يعانيه العامل من كثرة التنقل بين الأعمال من شعور بالمرارة والاحباط واليأس وفقد الثقة بالنفس والقلق ، وما ينتج عن ذلك من انعكاس هذا الشعور فى علاقاته مع رؤسائه وزملائه ومع نفسه . كما أنه بحاجة دائمة الى اعادة التوافق مع البيئات الجديدة والأعمال الجديدة ، علاوة على فترات التعطل التى تواجهه فيما بين ترك عمل والالتحاق بعمل آخر . هذا بالاضافة الى ما يعود على المؤسسة من نفع كبير ان هى أحسنت وضع العامل فى المكان الذى يناسبه حيث تزيد انتاجيته ويحسن توافقه مع العمل .

٢ ـ وبالنسبة لعلاقة العامل بنظام المؤسسة ، فان العامل المتوافق مع عمله يكون عادة على علاقة طيبة مع النظام والجهات الادارية بالمؤسسة . ولعل المسئولين عن دراسة شكاوى العاملين وما يقومون به من مشاغبات يدرك أن أغلبها يصدر عن الفاشلين فى أعمالهم .. فالشخص الذى لا يحقق الرضا النفسى عن طريق العمل يحاول تحقيق ذلك من خلال القيام بأعمال الاضطراب والشغب بالمؤسسة . وبذلك ينجح فى أن يصرف غيره عما فشل فى تحقيقه ، ويرضى اعتباره لذاته عن طريق تزعمه لهذه الحركات . لهذا ينبغى أن تقوم المؤسسة بدراسة الأسباب الحقيقية التى تؤدى بالعامل لأن تسوء علاقته بنظام المؤسسة وهيئاتها الادارية ، وتعمل جادة على ازالتها .

٣ ـ وبالنسبة لعلاقات العامل مع الرؤساء ، فينبغى على المؤسسة الانتاجية أن تعمل على أن تسود العلاقات الاجتماعية والنفسية الصحيحة بين الرئيس والمرؤوس . وتشير البحوث والدراسات فى هذا المجال الى أهمية القيام بالأشياء التى تؤدى الى تنمية علاقات نفسية صحية بين المشرف والعاملين والتى تتلخص فى الآتى :

- معاملة المرؤوسين معاملة انسانية كريمة .
- تمثيلهم تمثيلا أمينا لدى الادارة العليا للمؤسسة .
- تطبيق قوانين ونظم الشركة عليهم تطبيقا مرنا .

- اخلاصه فى ارشادهم وتوجيههم •
- أن يكون قدوة حسنة أمام مرؤوسيه •
- اتاحة الفرصة لهم للتقدم المهنى والنمو •
- التعامل مع كل منهم وفقا لطاقاته وامكاناته •
- وضع كل فرد فى العمل الذى يلائمه •
- حماية مرؤوسيه والدفاع عنهم وقت اللزوم •
- تنمية ولائهم للمؤسسة عن طريق معاملتهم معاملة انسانية واشباع حاجاتهم ورغباتهم •

٤ ــ وبالنسبة لعلاقة العامل بزملائه ، نجد أن الظاهرتين الأساسيتين اللتين تحددان العلاقة بين العامل وزميله داخل المؤسسة هما « التعاون والمنافسة » • وتلجأ أغلب المؤسسات الانتاجية الى استخدام عنصر « المنافسة » اما استخداما صريحا أو ضمنيا • ولسنا ننكر ما يعود على المؤسسة من فوائد مباشرة من وراء هذا التنافس ، ولكن علينا أن نضع فى اعتبارنا ما قد يجره هذا التنافس الفردى من افساد للعلاقات الداخلية فيما بين العاملين ، وتبادل مظاهر العدوان الناشىء عن الاحباط الذى تحدثه هذه المنافسة الفردية بين الزملاء • لهذا ينبغى ألا نعتبر التعاون والمنافسة متعارضين تعارضا تاما ، بل كلما أمكن الجمع بينهما استطعنا أن نستخدمهما بالطريقة التى تضمن سلامة العلاقات المتبادلة فيما بين العاملين •

وبالاضافة الى ذلك ، فان اهتمام المؤسسة بانشاء النوادى وتشجيع النشاط الرياضى واقامة الحفلات الترفيهية والرحلات وغيرها من أوجه النشاط الاجتماعى والثقافى ، يساعد على تحسين مستوى علاقات العامل بزملائه وتوافقه معهم •

ج ــ وبالنسبة لعلاقة العامل بظروف العمل ، فان معظم هذه الظروف بيئية كالاضاءة والتهوية والضوضاء ونظام فترات الراحة والعمل وعوامل التعب والضجر والملل وما أشبه•فعلى المؤسسة ــ اضافة الى وضع كل فرد فى العمل الذى يلائم امكاناته واهتماماته وميزات

شخصيته ــ أن تهيىء له الظروف البيئية المناسبة لاستمرار توافقه • ومن شأن تهيئة هذه الظروف أن ترفع مستوى الكفاية الانتاجية وتزيد من رضا العامل عن عمله وتوافقه •

٦ ــ وبالنسبة لعلاقة العامل بآلات العمل وأدواته ، نجد أنه . بالاضافة الى النظم واللوائح والأشخاص الذين يتعامل معهم ، فانه يحتك بالآلات والأدوات التى يستخدمها فى الانتاج • كما أن سلامته وأمنه يتوقفان على حسن استعمالها بما يضمن عدم تعرضه للحوادث •

وقد أوضحت الدراسات التى تناولت موضوع الحوادث أن هناك عوامل نفسية تكمن وراء هذه الحوادث ، سواء أكانت اضطرابات انفعالية أو قصور فى القدرات العقلية والامكانات الشخصية المتطلبة للعمل • ولذلك فان برامج الانتقاء والتوجيه المهنى الصحيحة ، بالاضافة الى الارشاد والعلاج النفسى ، كفيلة بأن تقلل من قابلية الفرد للحوادث واستهدافه لها الى أقل درجة ممكنة • كما أوضحت البحوث أيضا أن هناك علاقة بين استهداف العاملين للحوادث وانخفاض روحهم المعنوية • وفى هذه الحالات يكون العلاج برفع الروح المعنوية للعاملين مفيدا فى تقليل نسبة الحوادث والاستهداف لها •

٧ ــ أما بالنسبة لعلاقة العامل ببيئته خارج المؤسسة ، فنلاحظ أن العامل ليس عضوا فى مؤسسة العمل فحسب ، بل هو عضو فى جماعات عديدة مترامية الأهداف ووجهات النظر والمبادىء والقيم • ويختلف مركزه فى كل منها ، ويتحرك ما بين القيادة والتبعية عدة مرات فى اليوم الواحد •• فهو عضو فى أسرته التى نشأ بها ، وقائد لأسرته التى يعولها ، وهو عضو أو موظف ثم مشرف أو قائد لمجموعة عمل ، وهو عضو بالنادى وفى ذات الوقت يرأس جماعة ثقافية أو ترفيهية ، وهكذا • وهو محتاج فى كل هذه الجماعات الى درجة كافية من التوافق النفسى ، حتى تكون علاقته مع الأفراد المتضمنين فى هذه الجماعات علاقات صحية خالية من الاضطراب •

وتصادف الفرد في سبيل الحصول على هذا التوافق صعوبات شخصية متنوعة ، وبقدر نجاحه في التغلب عليها يشعر براحة نفسية تنعكس على مظاهر حياته المختلفة وأهمها « العمل » • ونخلص من هذا بأن الكثير من المشكلات التي تواجه الفرد في العمل قد تكون ناشئة عن مشاكل خاصة خارج نطاق العمل • وهي تحتاج في سبيل التغلب عليها وحلها الى وضع برنامج منظم للتوجيه والارشاد النفسي ، يقوم على تنفيذه أخصائيون نفسيون مؤهلون لعلاج الحالة أو تحويلها الى جهات الاختصاص •

وهكذا اذا ما نجحنا في تحسين علاقات العامل بكل من مكونات بيئته ، فاننا نرفع من مستوى توافقه المهني الى أقصى حد ممكن ، مما يؤدي الى توافقه العام في شتى جوانب حياته •

ويرى « شافر وشوبين »[١] أن سوء التوافق المهني ينبع من مصادر متعددة •• فكثير من السخط على العمل ينتج عن أجور منخفضة ومن ظروف عمل قاسية ، ومن التعب والرتابة والملل ، كما أن قصور قدرات العامل وعدم الوفاء بمتطلبات العمل تعتبر مسئولة عن عدم رضا العامل عن عمله وتركه الى غيره • وبالاضافة الى ذلك ، فهناك أوجه الضعف في التنظيم الاجتماعي والعلاقات الشخصية الداخلية بين العاملين في المؤسسة الانتاجية الحديثة ، حيث يضعف الاتصال وينقص التعاون فيما بين العاملين ، مما يؤدي الى شعور العاملين بعدم الرضا • وقد يكون سبب عدم الرضا لا يرجع أساسا الى العمل وظروفه •• بل قد يكون مرجعه سوء توافق شخصي ، كالصراعات في محيط الأسرة فيأتي بها العامل الى موقف العمل ، فلا يستطيع الفرد حينئذ أن يثق في رئيسه أو زملائه • كما أن هناك سببا عاما لمشاكل التوافق المهني ، هو توافر ردود أفعال نفسية تجاه السلطة •• فاذا لم

---

(٢) Shaffer, L., and Shoben, E. Jr; The Psychology Of Adjustment (2nd ed) Boston : Houghton - Mifflin , 1956, p. p. 569 - 570

يستطع الفرد أن يحقق توافقا ناضجا مع والده ، فانه عن طريق التعميم ، سـوف يستجيب لممثلى السلطة كالرؤساء والمشرفين باسـتجابات غير متوافقة تتسلسل من الخوف الى التمرد .

ويعرض المؤلفـان ثلاث وسائل أسـاسية يمكن أن تؤدى الى تحسين مستوى التوافق النفسى والمهنى فى مجال العمل وهى :

- تدبير خدمات الارشاد النفسى للعاملين .

- تدبير اجراءات مناسبة لانتقاء الأفراد وتوجيههم وتدريبهم .

- تنظيم الصـناعة على النحو الذى يرتقى بالقيم الانسـانية ، ويعترف بالقيمة الانسانية للعامل .

وهنـاك نوعان من الأجـواء النفسـية يؤديان الى بعث التوترات فى موقف العمل ، هما جو التسلط وجـو المنافسـة .. ففى ظروف « التسلط » ، يكون الاتصـال بين الادارة والعامل فى أضيق نطاق ، حيث على العامل اطاعة أوامر الادارة دون مناقشـة . وهذا يؤدى الى شعور العامل بالاستياء لعدم قدرته على ابداء رأيه أو مناقشة رؤسائه فى شئون العمل ، وقد ينفس عن بعض هذا الاستياء فى محيط أسرته بأن يلعب دور التسلط على أفراد أسرته . أما فى ظروف « المنافسة » فان الاهتمام ينصب على قدرة الفرد على التفوق على زملائه ، بما يؤدى الى الشعور بعدم الأمن مقارنة بالموقف فى ظروف التسـلط . ففى ظروف التسلط تتولد لدى الفرد اتجاهات عدوانية لا يستطيع التعبير عنها فى موقف العمل ، وفى موقف المنافسة يشعر بأنه يستغل لمصلحة آخر ، وقد يحاول التعويض بأن يحث أولاده على التفوق فى الدراسة أو يتجه للتعويض بوسائل غير سوية[1] .

* * *

---

(١) فرج عبد القادر طه : علم النفس الصناعى والتنظيمى . القاهرة دار المعارف ، ١٩٨٣ ، ص ٦٤ - ٦٥ .

أساليب التوافق غير السوى

سبق أن ذكرنا – فى مستهل هذا الفصل – أن ما يقوم به الشخص من كبت لمواجهة الدوافع المحرمة انما هو حل ناقص ، لا يؤدى الى ازالة القلق الناتج عن استثارة هذه الدوافع . واذا كان الكبت حلا ناقصا على هذا النحو ، لذلك فان قصة الشخصية المنحرفة – غير السوية لا تقف عند هذا الحد .. فالقلق لا يفتأ يدفع الفرد – لا شعوريا – الى القيام بأى سلوك حتى يخفف من حدة القلق . فالفرد ، لكى يحمى نفسه من هجمات القلق ويدافع عن نفسه ضدها ، فانه قد يلجأ الى أساليب لاتوافقية للسلوك بما يسمى بالأعراض أو بالسلوك المرضى ، الذى يخفف مؤقتا من حدة القلق ، ويشبع فى ذات الوقت الدوافع المكبوتة الى حد ما[1] .

ويمكن أن نصنف الأساليب المرضية غير السوية تبعا لشكل السلوك الظاهرى الى أربعة أنواع :

اولا : « أساليب هجومية » ، وهى الأساليب التى تتخذ شكلا مضادا للمجتمع ، أو التى يكون اتجاهها الى الخارج وليس نحو الذات. وهذه الأساليب ، وان كانت تتضمن الدخول فى التفاعل مع الجماعة ، الا أن هذا التفاعل يتم بشكل لا تكاملى أى فى غير مصلحة الجماعة . ويسمى هذا النوع من الدفاع بالدفاع عن طريق « الهجوم على الآخرين » .

ثانيا : « أساليب انسحابية » ، وهى تتضمن الهروب أو الانسحاب من المواقف التى تثير الصراع . والصفة المميزة لهذه الأساليب أنها تنطوى على قصور واضح فى التفاعل أو النشاط الاجتماعى ، سواء عن طريق الانزواء السلبى أو الرفض الايجابى للتعاون ، كما أنها تكون مصحوبة فى الغالب بالتعويض عن طريق « الانسحاب بعيدا عن الآخرين » .

---

(١) محمد عماد الدين اسماعيل : الشخصية والعلاج النفسى . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٢٠٨

ثالثا : « أساليب استعطافية » ، تتضمن جميع الوسائل التى يظهر فيها الخوف أو المرض والأوجاع الجسمية بشكل واضح ، ويسمى هذا النوع بالدفاع عن طريق « الالتجاء الى الناس » .

رابعا : « القلق المرضى » ، فاذا لم يجد الفرد أى مخرج له من مشكلاته أو التخلص من قلقه بالطرق سابقة الذكر ، فانه يظل يعانى القلق والاضطراب والانهاك والعصبية .

* * *

التوجيه والارشاد

والعلاج النفسى لتحقيق التوافق

● **مقدمة :**

تستهدف الخدمات النفسية خدمة الفرد عن طريق تطبيق المبادىء والقوانين النفسية والانسانية فى المجالات المختلفة • وتقوم هذه الخدمات على أساس مساعدة الفرد وخدمته فى الأسرة أو المدرسة أو المجتمع أو فى أى مجال آخر • وقد تكون الخدمة النفسية توجيها تربويا يستهدف تحقيق تكيف الطالب وتوافقه فى دراسته ، وقد تكون توجيها مهنيا يقصد توافقه فى عمله ، وقد تكون ارشادا نفسيا يرمى الى تقبل الفرد لذاته وتوافقه مع الآخرين ومع بيئته ، وقد تكون الخدمة فى مجالات أخرى •

وترمى الخدمات النفسية الى المحافظة على كيان الفرد أو المجتمع سليما قويا ناميا • وتتجه هذه الخدمات الى الأفراد ، كما تتجه الى الجماعات ، والى المجتمع بأكمله •• وهى حين تتجه الى الفرد انما تحاول أن تحافظ على كيانه وذاته وشخصيته ، كما تعمل على أن تهيىء له الظروف التى تؤدى الى نموه ونضجه وتوافقه فى المجالات المختلفة ــ الأسرة والدراسة والعمل والعلاقات الاجتماعية • وقد تركز على ناحية معينة كما فى التوجيه التربوى والمهنى ، كما قد تركز على توافق الفرد مع نفسه ومع الآخرين كما فى الارشاد النفسى • وتستهدف جميع هذه الخدمات نمو الفرد فى مجالات الحياة المختلفة ــ الدراسية والمهنية والأسرية والاجتماعية ــ الى أقصى حد ممكن ، كما تعمل على تهيئة الظروف التى تؤدى بالفرد الى اكتساب أساليب سلوكية من شأنها أن تحقق له الرضا والاشباع والسعادة •

وقد تتجه الخدمات النفسية الى الجماعات حين تستهدف تماسك الجماعة وازالة أسباب التوتر والصراع بين أفرادها . فالتوجيه الجمعى فى مجالات التربية والتعليم والعمل والعلاقات الاجتماعية يرمى الى توجيه الجماعات الى أقصى ما تستطيع أن تحققه من نمو ، من حيث تنمية العلاقات القائمة بين أفرادها وازالة أسباب القلق ومعوقات الانتاج وتحقيق التوافق والرضا والاشباع . وهى تستهدف توجيه الطلاب نحو الدراسة والحياة المهنية والاجتماعية الملائمة ، وتوجيه العاملين وأصحاب العمل نحو تحقيق الاشباع المهنى والعمل على زيادة الانتاج وتحسين مستواه والتقليل من تكاليفه ، وكذلك الخدمات النفسية العسكرية التى تقوم على خدمة المجهود الحربى عن طريق انتقاء المجندين وتوزيعهم على الأسلحة المختلفة التى تتفق مع قدراتهم وخبراتهم ثم رفع معنوياتهم وعلاج حالات الاضطراب النفسى أو سوء التوافق ، هذا بالاضافة الى الحرب النفسية الوقائية والهجومية والدفاعية .

* * *

● **الحاجة الى الخدمات النفسية :**

ظهرت الحاجة الى الخدمات النفسية بصورة واضحة نتيجة للتطور الذى تناول المجتمع فأدى الى اختلاف الظروف التى يعيش فيها الفرد وتعقد النظم الاجتماعية التى يخضع لها ونمو عمليات التنشئة الاجتماعية التى يمر بها حتى يصبح عضوا نافعا فى الجماعة التى ينتمى اليها . وقد صاحب هذا بالضرورة تعدد الالتزامات والمطالب المفروضة على الفرد ، وتعدد أساليب اشباعها ، ثم تعقد وسائل التوافق التى يجب على الفرد أن يتعلمها ويتبعها .. وسنشير الى بعض نواحى التطور التى طرأت على الأسرة والعمل والحياة الاجتماعية بصورة عامة .

١ - التغيرات التى طرأت على الأسرة :

ليس من الميسور حصر التغيرات التى طرأت على الأسرة على مر العصور ، فمن الملاحظ أن هذا التغير قد تناول تكوين ووظائف أفرادها

وعلاقاتهم بعضهم بالبعض الآخر • فلقد كانت الأسرة كبيرة تشمل الأبوين والأبناء والأحفاد وغيرهم • وكان رب الأسرة ، بمساعدة أعضائها ، يقدم للأسرة احتياجاتها ، وكانت تربية الأطفال وتوجيههم من النواحى التعليمية والمهنية والدينية والاجتماعية تقع على عاتق أفراد الأسرة أو عاتق أفراد يتصلون بالأسرة اتصالا وثيقا • وكانت أهداف التربية فى اطار الأسرة محدودة ، كما كان مجال الاختيار بالنسبة للطفل ضيقا ، هذا بالاضافة الى أن قيم المجتمع كانت من البساطة والوضوح النسبى بحيث كان على الطفل أن يتبع أنماطا معينة من السلوك لا يكاد يحيد عنها •

وكان من تأثير التطور الذى طرأ على الأسرة أن يؤدى الى ابعاد أحد الأبوين أو كليهما — فى كثير من الأحيان — عن المنزل والأطفال • ولهذا نشأت الحاجة الى أن تقوم المدرسة أو غيرها من المؤسسات الاجتماعية بتوجيه الأطفال وارشادهم فى مجالات الدراسة والسلوك الشخصى والاجتماعى • هذا بالاضافة الى أن الفروق التى تنشأ بين امكانات بعض الأسر من النواحى المادية والصحية والثقافية والاجتماعية ومطالب المجتمع الخارجى تؤدى الى مضاعفة عبء المدرسه وغيرها من المؤسسات الاجتماعية ، حتى لا ينشأ عن هذه الفروق ما يؤدى الى تخلف الأبناء أو انحرافهم أو تحديد نموهم فى المراحل المختلفة •

ولما كانت المدرسة بحكم امكاناتها فى وضع استراتيجى ممتاز فانها أخذت على عاتقها كثيرا من المسئوليات التى كانت تقوم بها الأسرة ، بل انها تعدت ذلك الى أن تتولى أمر توجيه الأسرة واعدادها للقيام ببعض وظائفها على أحسن وجه • والتوجيه التربوى والمهنى والارشاد النفسى من الخدمات التى أخذت المدرسة على عاتقها أمر القيام بها ، وهى تقوم بها عن طريق المدرسين المؤهلين والأخصائيين فى مجالات التوجيه والارشاد النفسى والتربوى والمهنى •

٢ ـ التغيرات التى طرأت على العمل :

لا شك أن التغيرات التى طرأت على الحياة المهنية تعتبر من أبعد التغيرات أثرا فى حياة الانسان .. فالانتقال من الأعمال البدائية الى الصناعة المتقدمة المتطـورة ، ومن قيام الفرد بجميع مراحل الانتـاج الى تخصصه فى احدى المراحل الانتاجية أو فى احدى الخطوات التى تكون مرحلة من مراحل الانتاج ، فضلا عن التطور الذى طرأ على المصنع وتنظيمه وعلاقات العمل .. كل هذا أدى الى أن تنشأ مشكلات كثيرة ينبغى مواجهتهـا ، حتى لا تنتشر الأمراض الجسـمية أو الاجتماعيـة أو المهنية أو النفسية بين العاملين ، وحتى لا يقل الانتـاج أو ينخفض مستواه .

ويكفى أن نشير الى تعدد مجالات العمل وتباين مطالبها وأن على الفرد أن يختار من بينها أكثرها ملاءمة له ، وأن يعد نفسـه للمجـال الذى اختاره وأن يتوافق معه ، هـذا فضلا عن ضرورة حساب عوامل المنافسة والاحباط التى قد تعترضه نتيجة لزيادة الاقبال والتزاحم على بعض المهن دون غيرها بسبب ما تدره من أرباح أو لمـا تسبغه من مركز اجتماعى على شاغلها . وينبغى الاشارة الى التغير السريع الذى تناول التكوين المهنى للمجتمع ومطالبه وتأثيره على الفرد . هذا بالاضافة الى مطـالب بعض المهن فى الوقت الحـاضر سـواء أكانت تتعلق ببعض المسـئوليات التى تضـعها على عاتق العاملين أو السرعة والدقة التى تتطلبها من العامل فى انجاز العمل .

٣ ـ التغيرات التى طرأت على المجتمع بصورة عامة :

طرأت على المجتمع بصورة عامة تغيرات كبيرة للتطور التكنولوجى الذى يمر به الانسان والمجتمع .. فأسلوب الحياة التى يعيشها الفرد ، والعلاقات الانسـانية السـائدة بين الأفراد ، والنظم التى تعيش فيها الجماعة قد تغيرت تغيرا كبيرا . وقد نشـأ عن التطـور التكنولوجى السريع والتغير الثقافى والحضـارى والاجتماعى ـ الذى يحاول أن

يلاحق التطور التكنولوجى – كثير من المشكلات النفسية التى تحتاج الى دراسة وعلاج •

وان نظرة واحدة الى بعض وسائل الترفيه التجاريه ، مثل الصور المتحركة (السينما) توضح لنا مدى المشكلات التى تنشأ عنها نتيجة لرغبة الأحداث والشباب فى مشاهدتها ثم التأثر بها وما ينشأ عن ذلك من بعض النتائج الضارة الناجمة عن الرغبة فى محاكاة ما يشاهدونه وتقليده دون توجيه أو رقابة •

وقد أدت الحياة الحديثة كذلك الى القاء أعباء نفسية انفعالية أو عقلية كبيرة على الأفراد •• فقد أصبح العمل فى العصر الحديث أكثر تطلبا للمجهود النفسى والعقلى ، وفى حين أن العمل فى العصور السابقة كان يقوم أساسا على المجهود الجسمى ، بينما تجد أن المجهود النفسى الانفعالى والعقلى يكلف الفرد الشىء الكثير من رضائه وسعادته[1] •

* * *

● **مفهوم التوجيه والارشاد النفسى :**

« التوجيه »[2] عملية انسانية تتضمن مجموعة من الخدمات التى تقدم للأفراد لمساعدتهم على فهم أنفسهم وادراك المشكلات التى يعانون منها ، والانتفاع بقدراتهم وامكانياتهم ومواهبهم فى التغلب على المشكلات التى تواجهها ، بما يؤدى الى تحقيق التوافق وبين البيئة التى يعيشون بها حتى يبلغوا أقصى ما يستطيعون الوصول اليه من نمو وتكامل فى شخصياتهم •• ويقوم التوجيه على أساس المبدأ الديمقراطى الذى ينادى بأن من حق كل فرد أن يختار الأسلوب الذى ينتهجه فى حياته ، طالما أن هذا الاختيار لا يتدخل فى حقوق الآخرين ولا يطغى عليهم • ومن الضرورى تنمية قدرات الفرد ومعاونته على استغلالها فى ادارة شئون حياته والتغلب على مشكلاته • ومن الوظائف الأساسية

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى : الارشاد النفسى والتوجيه التربوى والمهنى . القاهرة : وهبه ، ١٩٨٧ ، ص ٧١ – ٧٢

(٢) Guidance

للتربية اتاحة الفرصة للفرد حتى ينمى قدراته ويستغلها لتحقيق التوافق للدراسة والبيئة التى يعيش فيها ، وعلى ذلك فالتوجيه جزء متكامل من التربية يتركز أساسا على هذه الوظيفة • ولا يعمل التوجيه على اختيار أى طريق يسير فيه الفرد ، بل انه يساعد الفرد على أن يقوم بالاختيار بنفسه بالطريقة التى تساعد على تنمية قدراته بحيث يستطيع أن يتخذ القرار الملائم دون مساعدة من الآخرين •

ويقوم التوجيه على أساس وجود مكان فى العالم لكل فرد ، فى المجالات التعليمية والمهنية والاجتماعية • وهو يرتكز الى المبدأ القائل بأنه على الرغم من تشابه البشر فى نواح شتى الا أنه يجب أن تنظر بعين الاعتبار الى الفروق الفردية التى تستلزم أن يقوم كل فرد بنشاطه فى ناحية معينة تعتبر أنسب النواحى التى تتفق مع قدراته واستعداداته وميوله وشخصيته وخبراته ، ويستهدف التوجيه خدمة الفرد ومساعدته من خلال تطبيق مبادىء الخدمة النفسية • وقد تكون هذه الخدمة توجيها تربويا يرمى الى تحقيق توافق الطالب فى دراسته ، وقد تكون توجيها مهنيا يعمل على توافقه لمهنته ، أو تكون ارشادا نفسيا يؤدى الى توافقه مع نفسه ومع غيره ومع بيئته •

ولا يعنى التوجيه اعطاء تعليمات أو توجيهات محددة للفرد ، أو املاء وجهة نظر معينة عليه ، كما لا يعنى التوجيه أن يحمل الموجه أعباء الفرد ومسئولياته ، ولكنه يستهدف تقديم العون والمساعدة •• ويقدم هذه المساعدة أخصائيون نفسانيون مؤهلون ومدربون الى شخص آخر فى أية مرحلة من مراحل نموه ، بحيث تمكن الفرد من تدبير شئون حياته وتعديل أفكاره وقيمه واتجاهاته ، وتساعده على اتخاذ القرارات التى تلائمه وتناسب الموقف الذى يواجهه • وقد تقدم هذه المساعدة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، كما قد تقدم لفرد واحد أو لمجموعة من الأفراد •

ومعنى ذلك أن التوجيه يتصل بجميع الجوانب الشخصية للفرد ، سواء أكانت عقلية أو انفعالية أو اجتماعية ، وعلى ذلك فهو يهتم

باتجاهات الشخص وأنماطه السلوكية ، وتنشد مساعدته على تكامل أوجه نشاطه مستخدما طاقاته الأساسية والفرص المتاحة له فى بيئته ، وقد تستهدف خدمات التوجيه مساعدة الفرد على تحقيق التوافق فى مجال خاص من النشاط كالتكيف للمنهج الدراسى مثلا .. فهذا التكيف يتطلب الاهتمام بعدة عوامل منها : صحة التلميذ ، وامكانياته العقلية ، واتجاهاته نحو الدراسة بوجه عام أو نحو ميدان خاص من ميادين التعلم ، ومقدار الوقت الذى يستطيع تخصيصه للدراسة ، وخطط التلميذ للمستقبل الدراسى والمهنى ، ومدى تعاون الأسرة لتحقيق الصحة النفسية للتلميذ . وهكذا نجد أن التوجيه عبارة عن مجموعة من الخدمات الفنية والمساعدات الخاصة ، من بينها أوجه النشاط التى تجعل البرنامج الدراسى أكثر فاعلية وجدوى فى مقابلة حاجات التلاميذ كأفراد وجماعات . ولذلك يرسم توجيه التلاميذ مجموعة من الخطط تستهدف ما يأتى :

١ ــ الكشف عن الحاجات الحقيقية لدى التلاميذ والمشكلات التى يتعرضون لها .

٢ ــ استخدام المعلومات المتجمعة عن التلاميذ لتطويع التعليم وتعديله بحيث يشبع الحاجات المختلفة للتلاميذ .

٣ ــ مساعدة التلاميذ على فهم أنفسهم فى مراحل النمو المختلفة ، والوصول بنمو كل تلميذ الى مستوى أفضل .

٤ ــ امداد التلاميذ بمجموعة من الخدمات مثل : التعريف بالبيئة المدرسية ، والمقابلة الفردية ، والارشاد النفسى ، والتوجيه الجمعى ، والتزود بالمعلومات فى شتى المجالات ومساعدتهم على وضع الأهداف الدراسية والمهنية المستقبلة ، ومعاونتهم على الالتحاق بالعمل الملائم بعد اتمام دراستهم ، ومتابعة الخريجين ، ودراسة حالات المتخلفين دراسيا .

٥ ـ تخطيط الأبحاث التى تستهدف تقويم برامج التوجيه والارشاد النفسى[1] .

نخلص مما تقدم بأن التوجيه هو المساعدة التى يقدمها شخص لآخر كى يستطيع أن يختار طريقا معينا ويتخذ قرارا خاصا يحقق له التوافق ويساعده على حل مشكلاته . ويستهدف التوجيه مساعدة الفرد على النمو والاستقلال فى حياته وتنمية قدراته على تحمل مسئولياته الشخصية والاجتماعية . وهو خدمة تشمل شتى جوانب حياة الفرد ولا تقتصر على جانب معين من حياة الفرد . وهو يتوافر فى جميع مراحل الحياة ، فى المنزل والمدرسة والعمل والعلاقات الاجتماعية ، ويلاحق الفرد فى شتى مراحل نموه من الطفولة حتى الشيخوخة .

أما عن « الارشاد النفسى »[2] ، فهو تلك العملية التى تجرى بين فردين أحدهما قلق مضطرب بسبب بعض المشكلات الانفعالية التى لا يستطيع أن يتغلب عليها بمفرده ، والثانى أخصائى يستطيع بحكم اعداده المهنى وخبرته الفنية السيكلوجية أن يقدم المساعدات التى تمكن الفرد من أن يصل الى حل لمشكلاته . ويركز الارشاد النفسى على المشكلات التى لم تصل بعد بالفرد الى حد الانحراف الذى يهتم به العلاج النفسى والتى تظهر فى الأمراض النفسية على اختلاف أنواعها .. واذا حللنا هذا التعريف بشىء من العمق نجد أن الهدف الأول للارشاد النفسى هو مساعدة الفرد الذى يطلب المساعدة كى يتغلب على المشكلات التى تواجهه أو أن يخفف منها بقدر الامكان . وفى هذا الصدد يتفق الارشاد النفسى من حيث الهدف مع التوجيه ، غير أن الارشاد النفسى بمعناه المحدود يختلف عن التوجيه فى أنه ـ أى الارشاد ـ أكثر تأكيدا للعملية التعليمية التى يجب أن يمر بها الفرد أثناء عملية الارشاد ، حيث يتم تنظيم الموقف الاستشارى بحيث يصبح موقفا تعليميا يؤدى

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى : دور المعلم فى التوجيه والارشاد بالمدرسة الثانوية . مكة المكرمة : المؤتمر الأول لاعداد المعلمين ، ١٣٩٤ هـ ، ص ٦

(٢) Counseling

بالفرد الى تنمية الاستبصار ، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بدوافعه وأفكاره وقيمه أو فيما يختص بأنماط سلوكه وأساليب تعامله مع الآخرين أو مع نفسه • ويتفق الارشاد النفسي في هذه الناحية مع العلاج النفسي •

واذا ما تساءلنا عن الفرق بين التوجيه والارشاد النفسي نجد أن الفروق بينهما طفيفة ، وأن البعض ينكر هذه الفروق ويعتبر أن الارشاد النفسي نوع من التوجيه • ومن الممكن القول أن الفرق بينهما فرق في المجال والدرجة التي يتناول بها كل منهما الفرد • فبينما يتسع المجال في التوجيه بحيث يشمل التوجيه التربوي والمهني والاجتماعي والتوجيه الجمعي ، نجد أن الارشاد النفسي يقتصر على النواحي المتعلقة بحياة الفرد الانفعالية والاجتماعية ، وهي الخبرات التي يمر بها الفرد عند تفاعله مع بيئته والتي تسبب له في بعض الأحيان قلقا واضطرابا واضحين • أما من حيث الدرجة فاننا نجد التوجيه — أثناء معالجة اتجاهات الفرد وقيمه ومشكلاته النفسية — لا يصل في تعمقه وبحثه الى الدرجة التي يصل اليها الارشاد النفسي • ويرى البعض أن الارشاد النفسي خطوة من خطوات التوجيه التربوي أو المهني ، ولكن الاستشارة أو الارشاد النفسي المقصود في هذا المجال لا يتجاوز تخفيف حالات القلق والاضطراب النفسي البسيط لدى الفرد •

* * *

الأسس والمبادىء التي يقوم عليها التوجيه والارشاد النفسي

يستند التوجيه والارشاد النفسي الى مجموعة من الأسس والمبادىء والمسلمات ، تكون في مجموعها فلسفة التوجيه والارشاد التي يجب أن يدركها المشتغلون بهذه العملية ، بحيث يمكن أن تصبح دستورا فلسفيا ونفسيا واجتماعيا وفنيا وأخلاقيا للقائمين بخدمات التوجيه والارشاد النفسي[1] •

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى : الارشاد النفسي والتوجيه التربوى والمهنى . القاهرة : الخانجي ، ١٩٧٦ ، ص ٨٠ — ٨٥

أولا – الأسس الفلسفية للتوجيه والارشاد :

١ – يستند التوجيه أساسا الى فلسفة ديمقراطية ، على أساس منح الحرية للفرد كي يستفيد من المعلومات ، ويختار من بين الفرص العديدة ، ويتخذ قراراته التي تمس حياته ومستقبله • ومعنى ذلك أن التوجيه لا يمنح للفرد ، وانما ينمو ذاتيا لديه ، فهو يبدأ من الفرد وللفرد وبالفرد • وهو في ذلك لا يؤمن بفلسفة فردية متطرفة لا تضع المجتمع في اعتبارها ، ولكنه يقدر الفرد مرتبطا بالمجتمع ، أي أن الفرد ينبغي أن يشبع حاجاته ويحقق رغباته في حدود ما يرسمه المجتمع والثقافة التي يعيش بها •

٢ – اذا كان الهدف من التوجيه والارشاد النفسي هو أن يحقق الفرد ذاته في مختلف المجالات ، فان ذلك يدعو الى القول بأن عملية التوجيه ليست اكراها أو أمرا أو وعظا • وعلى ذلك يجب احترام حرية الفرد الذي يقدم له الموجه المساعدة بما يساعده على أن يتفهم حقيقة ذاته ويتعرف على امكاناته ويكشف عن مواهبه ، كما يجب العمل على احترام حق الفرد في تحديد أهدافه ووضع الخطة التي تحققها •

٣ – يحتاج كل فرد الى مساعدة ما لحل مشكلته المختلفة وفقا لظروف حياته ، وله الحق في طلب هذه المساعدة عندما يعترضه موقف لا يستطيع أن يواجهه بنجاح الا اذا توافرت له هذه المساعدة • ولابد أن يشعر الفرد أولا بحاجته الى المساعدة حتى تؤتي ثمارها ، كما لابد أن يثق في فعالية التوجيه وأنه يقدم له المساعدة اللازمة كي يتغلب على مشكلاته •

* * *

ثانيا – الأسس السيكولوجية لعملية التوجيه والارشاد :

تعتمد عمليات التوجيه والارشاد على مجموعة من المبادىء النفسية المشتقة من دراسة الطبيعة البشرية • ويمكن تلخيص هذه الأسس والمبادىء النفسية في الآتي :

١ – على الرغم من تشابه البشر في بعض النواحي ، الا أن

هناك فروقا واضحة بين الأفراد سـواء فى قدراتهم أو استعداداتهم أو ميولهم أو شخصياتهم ، كما يتباينون من حيث القـوة الجسـمية والصحة العامة .

٢ ــ يوجد فى داخـل الفرد ذاته ألوان شتى من الاختلاف فى خصائصه الجسمية والعقلية والنفسية ، باعتبارها خصائص غير ثابتة . وهى فى نموها لا تسير بخطى متشابهة أو متوازية .. فكثيرا ما تسرع بعض الخصائص عن غيرها فى معدل النمو ، كتقدم النمو العقلى على النمو الاجتماعى مثلا ، بالاضافة الى ما يطرأ على الفرد من تغيير عند انتقاله من مرحلة نمو الى مرحلة أخرى .

٣ ــ تؤثر جوانب الشخصية المختلفة بعضها على البعض الآخر ، ولذلك لابد من مراعاة نمو الشخصية الانسانية نموا متكاملا ، حيث تؤثر أبعادها المختلفة فى سلوك الفرد سواء أكان ظاهرا أو كامنا .

٤ ــ تنشأ لدى الفرد فى كل مرحلة من مراحل نموه العضـوى والنفسى كثير من الحاجات التى تتطلب الاشباع ، ولا بد أن يراعى فى اشباعها مستوى نضج الفرد والأصول الثقافية التى نشـأ فيها ، وفى حدود القيم والاتجاهات السائدة فى بيئته .

٥ ــ تعتبر عملية التوجيه والارشـاد النفسى عملية تعلم ، لأن الفرد يكتسب خلالها اتجاهات وعادات وقيم ومظاهر سلوكية جديدة ، ويغير من وجهة نظره نحو نفسه ونحو الناس والأشـياء والمبادىء . ويتعلم طرقا جديدة لمعالجة ما يواجهه من مشكلات ، ويتزود بالمعلومات اللازمة لمواجهة الظروف التى تواجهه ، وتتاح له فرص الاختيار وتحديد الأهداف ووضع الخطط ، وتتهيأ له الظروف لتطبيق ما يتعلمه وتعميمه فى كثير من المواقف الجـديدة على أسـاس من قـوانين انتقال أثر التعلم .

* * *

ثالثا ــ الأسس التربوية والاجتماعية لعملية التوجيه :

تقوم عملية التوجيـه على عدة أسس ومبادىء تربوية واجتماعية يمكن أن نوجزها فيما يأتى :

١ — تختلف عملية التوجيه بمعناها السلوكي عن عملية التعليم بمعناها الضيق المحدود .. فبينما يهتم التعليم بالمواد الدراسية ، نجد عملية التوجيه تهتم باشباع حاجات التلاميذ التى تنشأ فى المجالات المختلفة للحياة وفى أبعاد النمو المختلفة . ومع ذلك فان العمليتين تكمل كل منهما الأخرى ، حيث تساعد عملية التوجيه على جعل التعليم أكثر فاعلية ، وتنبه المنهج وطريقة التدريس الى العمل على تحقيق التوافق الفردى والاجتماعى لأفراد المجتمع المدرسى .

٢ — ان تنفيذ خدمات التوجيه من مسئولية الأخصائيين المؤهلين المدربين والمعدين للقيام بها . ولسنا ننكر دور جميع المتصلين بالتلميذ فى الأسرة والمدرسة والمجتمع فى تقديم التسهيلات التى تجعل برنامج التوجيه أكثر فعالية وفائدة . وهذا بدوره يتطلب تعاون الموجه مع المشرف الاجتماعى والطبيب والمدرسين ، بالاضافة الى التعاون مع الهيئات المتصلة بالمدرسة كرعاية الشباب والصحة المدرسية والعيادات النفسية .

٣ — لابد من الاهتمام بالتلميذ كعضو فى جماعة .. فالى جانب الاهتمام به كفرد ، نجد أن خدمات التوجيه تهتم به أيضا باعتباره يعيش فى جماعات مختلفة كالأسرة والأصدقاء والمجتمع المحلى والقومى والعالمى .. وعلى ذلك لابد من تخطيط خدمات التوجيه الجمعى ، على أن يفهم الفرد دوره ومكانته فى الجماعات والمؤسسات التى ينتمى اليها . وتعتبر عملية التفاعل بين الفرد والمجتمع هذه هى المحور الأساسى لعملية التوجيه والارشاد النفسى .

٤ — لابد من مشاركة الآباء وقادة المجتمع المحلى فى عملية التوجيه ، بحيث تؤدى هذه المشاركة الى تنسيق التعاون بين المدرسة — باعتبارها المؤسسة المسئولة عن التربية الرسمية فى الدولة — وبين المؤسسات الاجتماعية الأخرى المسئولة عن تربية الطفل بطريقة غير مباشرة .

***

رابعا ـ الأسس الفنية والأخلاقية لعملية التوجيه :

هناك بعض الأسس والمبادىء المشتقة من طبيعة عملية التوجيه والارشاد النفسي ، ومن المجال الذى يعمل فيه الموجه أو المرشد النفسي ، وتتلخص هذه الأسس فى الآتى :

١ ـ يجب على الموجه أن يبحث مشكلة الفرد من جميع زواياها وأن يستخدم كل ما لديه من وسائل وامكانات لمساعدته على حلها .

٢ ـ على الموجه أن يكون مرنا فى اتباع الوسيلة التى تتفق مع حاجات الفرد وصفاته وطبيعة المشكلات التى تواجهه ، مع مراعاة ألا يتعدى حدود اختصاصاته .

٣ ـ يجب على الموجه أن يحافظ على سر مهنته ، فلا يذيع أية معلومات تتعلق بعملائه الا فى اطار الاجتماعات المهنية مع الأخصائيين عندما تدعو الحاجة الى معونتهم .

٤ ـ ينبغى أن يبذل الموجه كل جهده لكى يزيد من فهم العميل لنفسه وللعالم الذى يعيش فيه .

٥ ـ ينبغى أن يكون القرار النهائى فى أية عملية توجيه أو ارشاد نفسى صادرا عن العميل وبناء على اختياره الحر وعلى مسئوليته . وليس معنى هذا أن يترك للعميل اتخاذ قرار ضد مصلحته ، ولكن المقصود هو أن يتدخل الموجه بالقدر المعقول حتى يبصر العميل بالأضرار التى قد يتعرض لها نتيجة لهذا القرار .

٦ ـ على الموجه أن يساعد العميل على تقبل ذاته كما هى على حقيقتها ، بمعنى أن يبصره بنواحى القوة ليدعمها وجوانب الضعف كى يتغلب عليها .

٧ ـ ينبغى أن تتغير طرق التوجيه وفقا لحاجات العميل . لذا يجب أن يكون الموجه متمكنا من الوسائل المختلفة المستخدمة فى علاج المشكلات التى تعرض عليه .

٨ ـ ينبغى تحويل العميل الى الأخصائيين الآخرين اذا ما تطلب الأمر ذلك ، كما فى حالة الشك فى وجود مرض نفسى أو عضوى مثلا .

* * *

العـــلاج النفسى

ترجع نشأة « العلاج النفسى »[1] الى عهود سابقة بعيدة . غير أن ازدهاره وانتشاره كان فى بداية القرن العشرين عندما ظهرت « نظرية التحليل النفسى » باعتبارها نظرية فى النفس البشرية وطريقة فى علاج الأمراض النفسية . وقد أشـــارت نظرية التحليل النفسى الى أهميـــة الدوافع اللاشعورية ، والى أن الأمراض النفســـية ليست الا وســـائل تكيف يقوم بها الفرد لمواجهة مواقف صعبة لا يمكنه أن يواجهها صراحة بطريقة سوية . وقد تركت هـــذه النظرية ــ نظرية التحليل النفسى ــ أثرا كبيرا فى سائر فروع الخدمات النفســـية .. فهى قـــد أثرت فى مختلف فروع التوجيه والارشاد النفسى ، ســـواء فيما يتعلق بالأسس التى تقوم عليها هـــذه الخدمات أو الوســـائل التى تتبع فى تحقيـــق أهدافها . فاهتم الموجهون التربويون والمهنيـــون بالدوافع اللاشعورية التى تؤثر فى تكيف الفرد فى الدراسة والعمل وفى اختياره لمهنتـــه ، كما أدت الى الاهتمام بعملية الارشـــاد النفسى والعلاقات القائمـــة بين المرشد والعميل . وأثرت كذلك فى نظرة الأخصائى الاجتماعى لسلوك الفرد وفى طرق مواجهته للمشكلات وأساليب تفاعله مع الموقف .

ولكن الأمـــر ــ فى العـــلاج النفسى ــ لم يقتصر على المحللين النفسيين ، فسرعان ما دخل المختصون فى سيكلوجية التعلم وفى علم النفس الاجتماعى وفى سيكلوجية الشخصية فى الميدان نتيجة لأوجـــه التشابه التى لاحظوها بين نشأة الأمراض النفسية واكتســـاب أساليب السلوك المختلفة ، ونتيجة لمـــا لاحظوه من أثر الظروف الاقتصـــادية والاجتماعية فى نشأة الانحرافات النفسية . وقد كان من أثر ذلك أن

---

(1) Psychotherapy .

ظهرت أساليب من العلاج تختلف عن الأساليب المعروفة لدى مدرسة التحليل النفسي اختلافا قد يكون بسيطا في بعضها وكبيرا في البعض الآخر • وظهرت أساليب العلاج « غير الموجه » أو « المتمركز حول العميل » (Client - Centered) لـ « روجرز »[1] وأساليب العلاج التي تعتمد على « التعلم » « لميللر » و « دولارد »[2] .

وكان دخول الأخصائيين النفسيين في ميدان العلاج النفسي سببا في تنوع الأسس التي تفسر على أساس الأمراض النفسية ، كما كانت أيضا سببا في اخضاع كثير من الظواهر المرضية والعلاجية لأساليب التجريب والبحث الاحصائي ولتفسير نتائجها في اطار نظريات علم النفس • وبعد أن كانت نظرية التحليل النفسي منعزلة عن علم النفس أصبحت جزءا منه وداخلة في اطاره ومنطلقا للنظريات المتطورة للعلاج النفسي •

ويقوم بالعلاج النفسي مؤسسات متنوعة ، قد يكون بعضها قاصرا عليه ، وبعضها يقوم به على أساس أنه احدى وظائفها الأساسية أو الفرعية • وقد تكون هذه المؤسسات طبية في أساسها ، أو تربوية أو اجتماعية أو نفسية • فنجد أن العلاج النفسي يتم أحيانا في مؤسسات خاصة به ، وأحيانا يتم في المستشفيات العامة أو الخاصة ، وفي أحيان أخرى يجرى في مؤسسات تربوية كالعيادات النفسية الملحقة بكليات التربية وبأقسام علم النفس بالجامعات ، أو في مؤسسات اجتماعية كمؤسسات تأهيل المعوقين أو مؤسسات رعاية الأحداث ومكاتب الخدمة الاجتماعية المدرسية • ويقوم بالعلاج النفسي أخصائيون نفسانيون

---

(١) **Rogers**, C; Client - Centered Therapy. Boston : Houghton - Mifflin , 1951 .

(٢) Dollard , J.; and Miller . N; Personality and Psychotherapy. New York : McGraw - Hill, 1950.

متخصصون فى علم النفس الاكلينيكى ، أو أطباء نفسانيون متخصصون فى الطب النفسى[1] .

« والعلاج النفسى » ــ كما يعرفه البعض ــ عبارة عن نوع من علاج المشكلات ذات الطبيعة الانفعالية الحادة ، وفيه يقوم شخص مؤهل ومدرب بايجاد علاقة مهنية مع المريض بقصد معاونته لازالة الأعراض النفسية الموجودة لديه أو تعديلها أو منع ظهورها ، وذلك لتغيير أساليب السلوك المضطربة التى يعبر بها عن مشكلاته الانفعالية والعمل على نمو شخصيته وتطورها . ويذهب البعض الآخر الى أن العلاج النفسى يتضمن جميع الأساليب التى تؤثر على المريض فتجعله يغير من تفكيره ومشاعره وسلوكه بما يتفق مع أساليب التفكير والشعور والسلوك السليمة السوية . ويرى آخرون ان العلاج النفسى هو تلك العملية التى يساعد بها المعالج النفسى مريضه على أن يتحرر من قلقه ومشاعره التى تقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق أقصا تكيف شخصى له ، ويؤثر هذا التحرر فى سلوكه فى أهم مجالات الحياة البشرية مثل العلاقات الانسانية والاجتماعية والمهنية .

واذا رجعنا الى تعريف « الارشاد النفسى » نجده يشترك مع العلاج النفسى فى الشىء الكثير ، الى الدرجة التى جعلت بعض الباحثين النفسيين يذهبون الى أنهما ليسا سوى عملية واحدة ، الا أن البعض الآخر يذهب الى التفرقة بينهما . ويمكن أن تتصور أنهما طرفان لامتداد واحد ، وأن الفرق بينهما هو فى درجة المشكلة الانفعالية التى يعانيها الفرد ، وفى التحليل الذى يقوم به المعالج النفسى ، ومدى التغير الذى يتناول الشخصية بأكملها . ومما سبق يمكن أن نضع ثلاث عمليات على امتداد واحد هى :

التوجيه ــ الارشاد النفسى ــ العلاج النفسى .

وعلى ذلك فالتوجيه والارشاد والعلاج النفسى ليست سوى درجات فى عملية واحدة تستهدف مساعدة الفرد كى يتغلب على مشكلاته

---

(١) سيد عبد الحميد مرسى : الارشاد النفسى والتوجيه التربوى والمهنى . مرجع سابق ، ص ٧٨ ــ ٧٩

ويحقق التوافق فى حيــاته • وتتميز هذه العملية فى « التوجيــه » بالاتساع وبمعالجة المشكلات على مستوى سطحى نسبيا بحكم طبيعة هذه المشكلات • ويتميز « الارشاد النفسى » بأنه يتناول مشــكلات أقل تنوعا — وهى مشــكلات ســوء التوافق — بشىء من التعمق • أما « العلاج النفسى » فانه يتناول مشكلات الانحراف النفسى العميقة بطريقة أكثر تعمقا ، اذ يتناول التكوين الأســاسى للشخصية بالتعديل والتغيير[1] •

* * *

● أهداف العلاج النفسى :

الهدف الأسمى للعلاج — مهما تعددت واختلفت المدارس الفكرية التى ينتمى اليها المعالجون النفســيون — هو تحقيق الصحة النفســية والتوافق النفسى ، أى مساعدة الفرد على تحقيق السعادة مع نفسه ومع الآخرين ، والتوافق مع نفسه ومع بيئته واستغلال قدراته حتى يستطيع مواجهة مطالب الحياة والواقع فى سلام •

وعلى العموم فان العلاج النفسى يسعى الى تحقيــق الأهــداف التالية :

— ازالة العــوامل والأســباب التى أدت الى المرض ، وعــلاج الأعراض •

— مواجهة المشكلات وتحويلها من مشكلات مسيطرة الى مشكلات مسيطر عليها ، وحلها •

— تعديل السلوك غير السوى ، وتعلم السلوك السوى الناضج •

— تعديل الدوافع التى تكمن وراء السلوك غير السوى •

— التخلص من المشكلات السلوكية ، وزيادة البصيرة بالنســبة لها ، وتعلم أساليب مواجهتها مستقبلا •

— التخلص من نواحى الضعف والعجز ، وتعزيز نواحى القــوة وتدعيمها ، وتنمية القدرات بعد التعرف عليها •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٢

ـ تغيير المفهوم السالب للذات ، والقضاء على عدم التطابق بين مستويات مفهوم الذات من مختلف جوانبها ، وتحقيق التطابق بين مستويات مفهوم الذات •

ـ تحقيق تقبل الذات وتقبل الآخرين ، واقامة علاقات اجتماعية سليمة •

ـ تدعيم بناء الشخصية وتحقيق تكاملها •

ـ تحقيق التوافق الشخصى والاجتماعى والمهنى •

ـ تعلم أساليب أكثر فعالية لمواجهة البيئة بمطالبها المتعددة ، بصورة واقعية •

ـ زيادة القدرة على حل الصراع النفسى والتغلب على التوتر والاحباط والقلق •

ـ زيادة تقبل المسئولية الشخصية وتحملها لتقدم العلاج نحو أهدافه •

ـ العمل على اتمام الشفاء والحيلولة دون حدوث النكسة[1] •

* * *

العلاج النفسى فى القرآن

نزل القرآن الكريم أساسا هداية للناس ، ولدعوتهم الى عقيدة التوحيد ، ولتعليمهم قيما وأساليب جديدة من التفكير والحياة ، ولارشادهم الى السلوك السوى السليم الذى فيه صلاح الانسان وخير المجتمع ، ولتوجيههم الى الطرق الصحيحة لتربية النفس وتنشئتها تنشئة سليمة تؤدى بها الى بلوغ الكمال الانسانى الذى تتحقق به سعادة الانسان فى الحياة الدنيا وفى الآخرة • قال تعالى :

﴿ ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾ • (الاسراء : ٩)

﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ • (يونس : ٥٧)

---

(١) خالد عبد السلام زهران : الصحة النفسية والعلاج النفسى . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٧٤ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦

﴿ وننزل من القرآن ما هـو شـفاء ورحمـة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خسارا ﴾ .
(الاسراء : ٨٢)

﴿ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾ .
(الجاثية : ٢٠)

ولا شك أن فى القرآن طاقة روحية هائلة ذات تأثير بالغ الشأن فى نفس الانسان . فهو يهز وجدانه ، ويرهف أحاسيسه ومشـاعره . ويصقل روحه ، ويوقظ ادراكه وتفكيره ، ويجلى بصيرته . فاذا بالانسان بعد أن يتعرض لتأثير القرآن يصبح انسانا جديدا . كأنه خلق خلقـا جديدا[1] .

***

● الايمان والشعور بالأمن :

تتفق جميع مدارس العلاج النفسى على أن « القلق » هو السبب الرئيسى فى نشوء أعراض الأمراض النفسية ، ولكنها تختلف فيما بينها فى تحديد العوامل التى تسبب القلق . وتتفق هذه المدارس أيضا على أن الهدف الرئيسى للعلاج النفسى هو التخلص من القلق وبث الشعور بالأمن فى نفس الانسـان . وهى تتبع لتحقيق هـذا الهدف أساليب علاجية مختلفة ، ولكن هذه الأساليب لا تنجح دائما فى تحقيق الشفاء التام من الأمراض النفسية .

وتمدنا دراستنا لتاريخ الأديان ، وبخاصة الدين الاسلامى ، بأدلة عن نجاح الايمان بالله فى شفاء النفس من أمراضها ، وتحقيق الشعور بالأمن والطمأنينة ، والوقاية من الشعور بالقلق وما قد ينشـأ عنه من أمراض نفسية . ومما يجدر ملاحظته أن العلاج يبدأ عادة بعد حدوث المرض النفسى ، أما الايمان بالله اذا ما بث فى النفس منذ الصـغر ، فانه يكسب الانسان مناعة ووقاية من الأمراض النفسية . وقد وصف

---

(١) محمد عثمان نجاتى : القرآن وعلم النفس . القاهـرة : دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧

القرآن الكريم ما يحـدثه الايمان من أمن وطمـأنينة فى نفس المؤمن بقوله :

﴿ الذين آمنـوا ولم يلبسـوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ . (الأنعام : ٨٢)

﴿ الذين آمنـوا وتطمئن قلوبهـم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . (الرعد : ٢٨)

﴿ ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم ﴾ . (التغابن : ١١)

ان المؤمن بالله ايمانا صادقا لا يخاف شيئا فى هذه الحياة الدنيا فهو يعلم أنه لن يصيبه شر أو أذى الا بمشيئة الله تعالى ، ولا يمكن لأى انسان أو لأية قوة فى هذه الحياة أن تلحق به ضررا أو تمنع عنه خيرا الا بمشيئة الله تعالى . ولذلك فالمؤمن الصادق الايمان انسـان لا يمكن أن يتملكه الخوف أو القلق[1] . قال تعالى :

﴿ بلى ، من أسـلم وجهـه لله وهـو محسن فله أجره عنـد ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . (البقرة : ١١٢)

﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم اسـتقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . (الاحقاف : ١٣)

﴿ ان الذين قالوا ربنـا الله ثم اسـتقاموا تتنزل عليهـم الملائكـة الا تخافـوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنـة التى كنتم توعـدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ . (فصلت : ٣٠ — ٣١)

* * *

● **أسلوب القرآن فى علاج النفس(٢) :**

لكى نستطيع أن نحدث تعديلا أو تغييرا فى شخصية فرد ما وفى

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٤١ — ٢٤٣

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٥١ — ٢٧٦

سلوكه ، علينا أن نقوم بتعديل أفكاره واتجاهاته أو تغييرها ، حيث ان سلوك الانسان يتأثر ـ بدرجة كبيرة ـ بأفكاره واتجاهاته • ولذلك فان العلاج النفسي يستهدف أساسا تغيير أفكار المرضى النفسيين عن أنفسهم ، وعن الآخرين ، والحياة ، والمشكلات التي تواجههم • وحينما تتغير أفكار المريض النفسي نتيجة للعلاج فانه يصبح أقدر على مواجهة مشكلاته وأقدر على حلها ، بل انه غالبا ما يرى أن مشكلاته التي كانت تقلقه في الماضي والتي أدت الى مرضه لم تكن في الحقيقة بالضخامة التي كان يتوهمها ، ولم يكن هناك في الحقيقة مبرر يدعو الى قلقه الشديد بسببها •

وعملية التعلم هي في أساسها عملية يتم فيها تعديل الأفكار والاتجاهات والعادات والسلوك وتغييرها • والعلاج النفسي هو في أساسه عملية تصحيح تعلم سابق غير سليم اكتسب فيه المريض أفكارا خاطئة أو وهمية عن نفسه وعن غيره من الناس ، وعن مشكلات الحياة التي تجابهه وتسبب له القلق ، وتعلم أساليب معينة من السلوك الدفاعي التي يهرب بها من مواجهة مشكلاته ، ويخفف بها من حدة قلقه • ويحاول المعالج النفسي أن يصحح أفكار المريض ، ويجعله ينظر الى نفسه ، والى الناس ، والى مشكلاته نظرة واقعية صحيحة ، وأن يواجه مشكلاته بدلا من الهرب منها ، ويحاول حلها بدلا من الاستمرار في حالة الصراع النفسي الناشيء عن العجز عن حل هذه المشكلات • ان هذا التغير في نظرة المريض النفسي الى ذاته ، والى الناس ، والى الحياة ، يمده بالقدرة على مواجهة مشكلاته وحلها ، فيتخلص بذلك من الصراع النفسي وما يسببه له من قلق • وينتج عن ذلك عادة شعور المريض بالنشاط والحيوية ينبعثان فيه من جديد ، ويبدأ يمارس حياته الطبيعية بفاعلية ، مما يجعله يشعر بمتعة الحياة ، وبالرضا النفسي ، وراحة البال ، والسعادة • قال تعالى :

﴿ .. ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. ﴾ •

(الرعد : ١١)

ولقد نزل القرآن الكريم لتغيير أفكار الناس واتجاهاتهم وسلوكهم، ولهدايتهم وتغيير ما هم فيه من ضلالة وجهل ، وتوجيههم الى ما فيه صلاحهم وخيرهم ، ومدهم بأفكار جديدة عن طبيعة الانسان ورسالته فى الحياة . وبقيم وأخلاق جديدة ، ومثل عليا للحياة . وقد نجح القرآن نجاحا عظيما فى التأثير فى شخصيات الناس . وفى تغييرها تغييرا كبيرا كانت له نتائج بعيدة الأثر فى وضع أسس جديدة لنظام حياة الانسان الشخصية ، ولنظام العلاقات الانسانية سواء فى داخل الأسرة أو فى المجتمع عامة . وباختصار ، نجح القرآن نجاحا لا نظير له بين جميع الدعوات الدينية فى جميع عصور التاريخ فى احداث تغييرات عظيمة الأثر فى شخصيات المسلمين ، وفى المجتمع الاسلامى . فقد نجح القرآن الكريم فى فترة وجيزة من الزمن فى تكوين الشخصية الانسانية المتكاملة المتزنة الآمنة المطمئنة ، التى استطاعت بطاقتها الجبارة التى تولدت عن هذا التغيير الذى حدث فيها ، أن تهز العالم وتغير مجرى التاريخ . واذا ما تساءلنا : كيف استطاع القرآن معالجة نفوس العرب وأن يغير شخصياتهم ؟ هذا ما سنناقشه فيما يلى :

أولا ـ الايمان بعقيدة التوحيد :

ان أول شيء أراد القرآن أن يغيره فى نفوس العرب هو العقيدة ، ولذلك فان آيات القرآن الكريم التى نزلت بمكة المكرمة فى المرحلة الأولى من الدعوة الاسلامية كانت تستهدف أساسا تأكيد عقيدة التوحيد . وكان أسلوب القرآن الفائق فى بلاغته ، واستدلالاته العقلية المقنعة فيما يعرضه من القضايا والأحكام ، وما جاء فيه من قصص وأمثال توضح المعانى وتبسطها وتقربها الى الأذهان ، وما استخدمه القرآن من أساليب الترغيب والترهيب لاثارة الدافع الى التعلم ، وتكرار بعض المعانى لتأكيدها فى الأذهان .. كل ذلك كان له أكبر الأثر فى تقبل الناس للدين الجديد ، وفى ايمانهم بعقيدة التوحيد . ولقد كان الايمان بعقيدة التوحيد هو الخطوة الأولى فى احداث تغيير كبير فى الشخصية . فهو يولد فى الانسان طاقة روحية هائلة تغير مفهومه

عن ذاته ، وعن الناس ، والحياة ، والكون بأكمله • انه يمده بمعنى جديد للحياة ولرسالته فيها ، ويملأ قلبه بالحب لله وللرسول وللناس من حوله وللانسانية عامة ، ويبعث الشعور بالأمن والطمأنينة •• وقد عبر القرآن عن العقيدة « بالايمان » ، قال تعالى :

﴿ **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** ﴾ • (الذاريات : ٥٦)

﴿ **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا • خالدين فيها لا يبغون عنها حولا** ﴾ • (الكهف : ١٠٧ – ١٠٨)

﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ • (النحل : ٩٧)

﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ • (البقرة : ٢١)

﴿ **وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه ••** ﴾ • (الاسراء : ٢٣)

﴿ **وأن اعبدونى ، هذا صراط مستقيم** ﴾ • (يس : ٦١)

* * *

ثانيا – التقوى :

تصاحب الايمان بالله وتتبعه تقوى الله • والتقوى هى أن يقى الانسان نفسه من غضب الله وعذابه بالابتعاد عن ارتكاب المعاصى ، والالتزام بمنهج الله تعالى الذى رسمه لنا القرآن الكريم ، وأوضحه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنفعل ما أمرنا الله تعالى به ، ونبتعد عما نهانا عنه •

ويتضمن مفهوم التقوى تحكم الانسان فى دوافعه وانفعالاته ، وسيطرته على ميوله وأهوائه ، فيقوم باشباع دوافعه فى الحدود التى سمح بها الشرع فقط • ويتضمن مفهوم التقوى أيضا أن يتوخى الانسان دائما فى أفعاله الحق والعدل والأمانة والصدق ، وأن يعامل الناس بالحسنى ، ويتجنب العدوان والظلم • ويتضمن مفهوم التقوى

كذلك أن يؤدى الانسان كل ما يوكل اليه من أعمال على أحسن وجه ، لأنه دائم التوجـه الى الله تعالى فى كل ما يقوم به من أعمال ابتغاء مرضاته وثوابه . وهذا ما يدفع الانســان دائما الى تحسـين ذاته ، وتنمية قدراته ومعلوماته ، ليؤدى عمله دائما على أحسن وجه . ان التقوى بهذا المعنى تصبح طاقة موجهة للانسان نحو السلوك الأفضل ، ونحو نمو الذات ورقيها ، وتجنب السلوك السيء والمنحرف . وهـذا يتطلب من الانسان مجاهدة نفسه والتحكم فى أهوائه وشهواته ، فيصبح هو المسيطر عليها والموجه لها . فالتقوى ، اذن ، من العوامل الرئيسية التى تؤدى الى تضوج الشخصية وتكاملها ، وتدفع الانسان الى الارتقاء بذاته متطلعا الى بلوغ الكمال الانسانى . قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنـوا اتقـوا الله وآمنـوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم ، والله غفور رحيم ﴾ .
(الحديد : ٢٨)

﴿ يا أيهـا الذين آمنـوا ان تتقوا الله يجعـل لكم فرقانا ويكفـر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ (الأنفال : ٢٩)

﴿ يا أيها الذين آمنــوا اتقوا الله وقولوا قولا سـديدا . يصـلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسـوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ . (الأحزاب : ٧٠ ـ ٧١)

﴿ .. ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ .
(الطلاق : ٤)

* * *

ثالثا ـ العبـادات :

فى العـلاج النفسى لا يكفى لشـفاء المريض أن يعرف حقيقـة مشكلاته ، وأن تتغير أفكاره عنها وتتغير نظرته للحياة ، بل من الضرورى أيضا أن يمر المريض النفسى بخبرات جديدة فى الحياة يطبق فيها أفكاره الجديدة عن نفسه وعن الناس ، وأن يرى بنفسه كيف أن سلوكه الجديد

قد حقق نجاحا فى علاقاته الانسانية ، وأحدث تغييرا واضحا فى سلوك الآخرين نحوه . وبهذه الممارسة الفعلية فى الحياة للسلوك الجديد المنبعث من أفكاره الجديدة وما تؤدى اليه من أفكار مرضية[1] ، يحدث التغيير الكبير فى شخصية المريض ويسير بخطى سريعة نحو الشفاء .

وقد اتبع القرآن الكريم فى منهجه وتربيته لشخصيات الناس وفى تغيير سلوكهم ، أسلوب الممارسة الفعلية للأفكار والعادات السلوكية الجديدة التى يريد أن يغرسها فى نفوسهم . ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى العبادات المختلفة : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج . ان القيام بهذه العبادات فى أوقات معينة باتنظام يعلم المؤمن الطاعة لله تعالى ، والامتثال لأوامره ، والتوجه الدائم اليه فى عبودية تامة . كما يعلمه الصبر ، وتحمل المشاق ، ومجاهدة النفس والتحكم فى أهوائها ، كما يعلمه حب الناس ، والاحسان اليهم ، وينمى فى نفسه روح التعاون والتكافل الاجتماعى . ولا شك أن قيام المؤمن بهذه العبادات باخلاص وباتنظام انما يؤدى الى اكتسابه هذه الخصال الحميدة التى تتميز بها الشخصية السوية الناضجة المتكاملة ، وتوفر له مقومات الصحة النفسية السليمة ، كما يمده بوقاية من الأمراض النفسية ، كما سيتضح لنا من مناقشتنا التالية لتأثير العبادات فى شخصية المسلم .

١ ـ الصلاة :

يشير اسم « الصلاة » أن فيها صلة بين الانسان وربه .. ففى الصلاة يقف الانسان فى خشوع وتضرع بين يدى الله سبحانه وتعالى خالقه وخالق الكون كله ، الذى بيده الحياة والموت ، والموزع الأرزاق بين الناس ، مما يمد الانسان بطاقة روحية تبعث فيه الشعور بالصفاء الروحى ، والاطمئنان والأمن النفسى . ففى الصلاة ، اذا ما أداها الانسان كما ينبغى أن تؤدى ، يتوجه الفرد بكل حواسه وجوارحه الى

---

(١) مرضية : بضم الميم وتسكين الراء .

الله تعالى ، وينصرف عن التفكير فى مشكلات الحياة وهمومها . وهذا من شأنه أن يبعث فى الانسان حالة من الاسترخاء التام ، وهدوء النفس وراحة العقل .

ان « الاسترخاء » من الوسائل التى يستخدمها بعض المعالجين النفسيين المحدثين فى علاج الأمراض النفسية ، خاصة القلق ، ويسمون هذا الأسلوب « بالكف المتبادل »[1] أو « العلاج الاسترخائى » ، أو « العلاج بالتقليل من الحساسية الانفعالية » ، وهذا الاسترخاء عادة يمكن أن يتعلمه الانسان بالتدريب ، وتمدنا الصلاة خمس مرات فى اليوم بأحسن نظام للتدريب على الاسترخاء وتعلمه . واذا تعلم الانسان الاسترخاء فانه يستطيع أن يتخلص من التوتر العصبى الذى تسببه ضغوط الحياة . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لبلال رضى الله عنه حينما تحين أوقات الصلاة : « أرحنا بالصلاة يا بلال » . وفى الحديث : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر صلى »[2] .

وتساعد حالة الاسترخاء والهدوء النفسى التى تحدثها الصلاة على التخلص أيضا من القلق الذى يشكو منه المرضى النفسيون . فان حالة الاسترخاء والهدوء النفسى التى تحدثها الصلاة تستمر عادة فترة ما بعد الانتهاء من الصلاة . وقد يواجه الانسان وهو فى هذه الحالة من الاسترخاء بعض الأمور أو المواقف المثيرة للقلق ، أو قد يتذكرها . وتكرار تعرض الفرد لهذه المواقف المثيرة للقلق أو تذكره لها ، أثناء وجوده فى حالة الاسترخاء والهدوء النفسى عقب الصلوات ، انما تؤدى الى « الانطفاء » التدريجى للقلق ، والى ارتباط هذه المواقف المثيرة للقلق بحالة الاسترخاء والهدوء النفسى ، وبذلك يتخلص الفرد من القلق الذى كانت تثيره هذه المواقف .

ويقوم الانسان عقب الصلاة مباشرة بالتسبيح والدعاء الى الله

---

(١) Reciprocal Inhibition

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، جـ ١ ، ص ١٤٢

تعالى ، وهذا يساعد على استمرار حالة الاسترخاء والهدوء النفسى لفترة ما عقب الصلاة . وفى الدعاء يقوم الانسان بمناجاة ربه . ويبث اليه ما يعانيه فى حياته من مشكلات تزعجه وتقلقه ، ويطلب من الخالق سبحانه أن يعينه على حل مشكلاته وقضاء حاجاته .. ان مجرد تعبير الانسان عن المشكلات التى تقلقه وهو فى هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسى يؤدى أيضا الى التخلص من القلق . وهو تكوين شرطى جديد بين هذه المشكلات وحالة الاسترخاء والهدوء النفسى ، فتفقد هذه المشكلات قدرتها على اثارة القلق تدريجيا ، وترتبط ارتباطا شرطيا بحالة الاسترخاء والهدوء النفسى ، وهى حالة معارضة للقلق .

وفضلا عن ذلك ، فان مجرد افضاء الانسان بمشكلاته وهمومه والتعبير عنها الى شخص آخر يسبب له راحة نفسية . ومن المعروف بين المعالجين النفسيين أن تذكر المريض النفسى لمشكلاته وتحدثه عنها يؤدى الى تخفيف حدة قلقه . واذا كانت حالة الانسان النفسية تتحسن اذا أفضى الانسان بمشكلاته لصديق يرتاح اليه ، أو لمعالج نفسى ، فما بالك بمقدار التحسن الذى يمكن أن يطرأ على الانسان اذا أفضى بمشكلاته لله سبحانه وتعالى ، وقام عقب كل صلاة بمناجاة ربه ودعائه والاستعانة به وطلب العون منه .. أضف الى ذلك أن مجرد الدعاء الى الله تعالى والتضرع اليه يؤدى الى تخفيف حدة القلق من ناحية أخرى ، وذلك لأن المؤمن يعلم أن الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه الكريم :

﴿ وقال ربكم أدعونى أستجب لكم ﴾ . (غافر : ٦٠)

﴿ واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ﴾ . (البقرة : ١٨٦)

وبالاضافة الى كل ذلك ، فان لصلاة الجماعة أثرا علاجيا هاما . فتردد الفرد على المسجد لصلاة الجماعة يتيح له فرصة التعرف بجيرانه وبكثير من الأفراد الآخرين ممن يسكنون نفس الحى الذى يسكنه ، مما يساعد على تفاعله مع الناس الآخرين ، وعلى تكوين علاقات

اجتماعية سليمة • ان مثل هذه العلاقات الاجتماعية يساعد على نمو شخصية الفرد ، وعلى نضجه الانفعالى ، كما يشبع حاجته الى الانتماء الاجتماعى والتقبل الاجتماعى ، مما يؤدى الى الوقاية من القلق الذى يعانيه بعض الناس نتيجة لشعورهم بالوحدة والعزلة وعدم الانتماء الى الجماعة ، أو شعورهم بعدم تقبل الجماعة لهم •• وتؤدى صلاة الجمعة ، بصفة خاصة ، دورا علاجيا هاما ، حيث يستمع فيها المصلون الى خطبة الجمعة التى يناقش فيها الامام عادة بعض المشكلات الاجتماعية التى يعانيها الناس ، ويقوم بشرح أسبابها وطرق علاجها • وقد يتناول بعض أنواع السلوك الشاذ والمنحرف ، ويشرح أسبابها ، ويبين وسائل التغلب عليها • وتقوم صلاة الجمعة بدور وقائى ودور علاجى •• أما دورها الوقائى فيرجع الى أنها تمد الفرد ، اذا ما داوم على صلاة الجمعة منذ صغره ، بمعلومات دينية ، وارشادات عملية توجه سلوكه فى الحياة توجيها سليما ، وتزيد من قدرته على مواجهة مشكلاته والتغلب عليها • أما دورها العلاجى فيرجع الى التأثير الذى تحدثه خطب صلاة الجمعة فى زيادة استبصار الفرد لذاته وما يعانيه من مشكلات ، وفى تقوية ارادته فى مواجهة مشكلاته والتغلب عليها • ان الدور الذى تقوم به صلاة الجماعة بعامة ، وصلاة الجمعة بخاصة ، فى تقويم شخصيات الأفراد وعلاجها انما يشبه الى حد ما الدور الذى تقوم به العلاج النفسى الجماعى •

هذا علاوة على أن « الوضوء » استعدادا للصلاة ليس تطهيرا للجسم فقط مما علق به من أوساخ وأدران ، وانما هو أيضا تطهير للنفس من أدرانها • فالوضوء ، اذ ما تم كما ينبغى ، يشعر المؤمن بالنظافة البدنية والنفسية معا ، ويشعره أنه تطهر من أدران أخطائه وذنوبه • ان هذا الشعور بالطهارة البدنية والنفسية يهيىء الانسان للاتصال الروحى بالله سبحانه وتعالى ، والدخول فى حالة الاسترخاء الجسمى والنفسى أثناء الصلاة • وفضلا عن هذا التأثير النفسى للوضوء ، فان له أيضا تأثيرا فسيولوجيا ، اذ تبين أن الاغتسال بالماء خمس مرات

يوميا على فترات انما يساعد على استرخاء العضلات ، وتخفيف حدة التوتر البدنى والنفسى .

ونستشهد فيما يلى ببعض آيات القرآن الكريم وأحاديث نبوية شريفة :

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، ان الله بما تعملون بصير ﴾ . (البقرة : ١١٠)

﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها .. ﴾ . (طه : ١٣٢)

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ .
(البقرة : ٤٣)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ، ان كنتم تعلمون ﴾ .
(الجمعة : ٩)

﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ .
(المؤمنون : ١ ــ ٢)

﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، ان الله مع الصابرين ﴾ . (البقرة : ١٥٣)

﴿ اتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون ﴾ .
(العنكبوت : ٤٥)

ومن الحديث النبوى الشريف :

ــ عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » . (متفق عليه)

ــ عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطهور شطر الايمان » . (رواه مسلم)

ـ عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « من توضأ فأحسن الوضوء ، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره » . (رواه مسلم)

ـ عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة الجماعة أفضل من صـلاة الفذ (أى الواحد) بسبع وعشرين درجة » . (متفق عليه)

ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة : فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » . (رواه مسلم)

ـ « اذا قلت لصـاحبك يوم الجمعة أنصت والامام يخطب فقد لغوت » . (رواه البخارى ومسلم)

٢ ـ الصيام :

للصيام فوائد نفسـية كثيرة ، ففيه تربية وتهذيب للنفس وعلاج لكثير من أمراض الجسم والنفس ، فالامساك عن الطعام والشراب من قبل الفجر الى غروب الشمس فى جميع أيام شـهر رمضان انما هـو تدريب للانسان على مقاومة شـهواته والسيطرة عليها ، بما يؤدى الى بث روح التقوى فى نفسه .

وفى الصـيام أيضا تدريب للانسـان على الصبر على الجـوع والعطش وكبح جماح الشهوات . ويقوم الانسـان بعـد ذلك بتعميم خصلة الصبر التى تعلمها من صيامه على جميع نواحى حيـاته الأخرى .. فيتعلم الصبر على تحمل مشـاق السعى فى طلب الرزق ، وآلام المرض ، ومتاعب الحياة . والصبر من الخصال الانسانية الحميدة التى أوصى الله تعالى الانسـان بالتحلى بها ، فهى خير معين له على تحمل مشاق الكفاح فى الحياة ، ومجاهدة النفس ومقاومة أهوائها .

ومن الفوائد النفسية للصيام أيضا أنه يشعر الغنى بآلام الجوع ، فيبعث فى نفسه عواطف الرحمة والشـفقة على الفقراء والمسـاكين ،

فيدفعه ذلك الى البر بهم والاحسان اليهم ، مما يدعم روح التعاون والتضامن والتكامل الاجتماعى فى المجتمع . وفضلا عن ذلك ، فان للصيام فوائد طبية وعلاجا من الأمراض البدنية . ومن المعروف أن لصحة الانسان البدنية تأثيرا على صحته النفسية ، فالعقل السليم فى الجسم السليم .

ومن الآيات والأحاديث فى مجال الصيام ما يأتى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ . (البقرة : ١٨٣)

﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ .
(البقرة : ١٨٥)

ومن الأحاديث النبوية الشريفة :

ـ عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا جاء رمضان ، فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين » . (متفق عليه)

ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من صام رمضان ايمانا واحتسابا ، غفر له ما تقدم من ذنبه » .
(متفق عليه)

ـ « ان الله عز وجل فرض صيام رمضان وسننت قيامه . فمن صامه وقامه احتسابا خرج من الذنوب كيوم ولدته أمه »
(رواه أحمد)

ـ « من أفطر يوما من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقض عنه صوم الدهر كله وان صامه » . (رواه البخارى ومسلم)

٢ ــ الزكاة :

ان فريضة « الزكاة » التى تفرض على المسلم ، باخراج نصيب معلوم من ماله كل عام لانفاقه على الفقراء ، هى تدريب للمسلم على العطف على المحتاجين من الناس ، ومد يد العون لهم ، ومساعدتهم على سد حاجاتهم . انها تقوى فى المسلم الشعور بالمشاركة الوجدانية مع الفقراء والمساكين ، وتبث فيه الشعور بالمسئولية نحوهم ، وتدفعه الى العمل على اسعادهم والترفيه عنهم . انها تعلم المسلم حب الآخرين ، وتخلصه من الأنانية وحب الذات والبخل والطمع . وقد سبق أن أشرنا الى أن قدرة الفرد على حب الناس واسداء الخير لهم والعمل على اسعادهم يقوى فيه الشعور بالانتماء الاجتماعى ويشعره بدوره الفعال المفيد فى المجتمع ، مما يجعله يشعر بالرضا عن نفسه ، وهو أمر له أهمية كبيرة فى صحة الانسان النفسية . وقد قال القرآن الكريم عن « الصدقة » سواء أكانت زكاة مفروضة أو تطوعا أنها تطهر النفس وتزكيها :

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها .. ﴾ .

(التوبة : ١٠٣)

فالزكاة تطهر النفس من دنس البخل والطمع والأثرة وحب الذات والقسوة . وهى تزكى النفس ، أى تنميها وترفعها بالخيرات والبركات العملية والخلقية ، حتى تكون بها أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية . وروى أحمد عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل من تميم سأله كيف ينفق ماله : « تخرج الزكاة من مالك فانها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين والجار والسائل ». ومن الآيات والأحاديث فى هذا المجال :

﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

(البقرة : ٢٧٧)

﴿ .. ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ .
(الاعراف : ١٥٦)

﴿ .. وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ .
(فصلت : ٦ – ٧)

﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ .
(المؤمنون : ١ – ٤)

﴿ .. لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم .. ﴾ .
(المائدة : ١٢)

ومن الحديث النبوى الشريف :

– عن أبى أيوب رضى الله عنه ، أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ، قال : « تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم » .
(متفق عليه)

– « من استفاد مالا فلا زكاة عليه حتى يحول عليه الحول عند ربه » .
(رواه أحمد والترمذى)

– « ما أدى زكاته فليس بكنز » .
(رواه أحمد)

– عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » .
(متفق عليه)

– « الصدقة تسد سبعين بابا من السوء » .
(رواه الطبرانى)

– « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، وأعدوا للبلاء الدعاء » .
(رواه الطبرانى)

ـ « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر » . (رواه أحمد)

ـ « استنزلوا الرزق بالصدقة » . (رواه البيهقى)

٤ ـ الحج :

وللحج أيضا فوائد نفسية عظيمة الشأن . فزيارة المسلم لبيت الله الحرام فى مكة المكرمة ، ولمسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام فى المدينة المنورة ، ولمنازل الوحى ، تمد المسلم بطاقة روحية عظيمة تزيل عنه كروب الحياة وهمومها ، وتغمره بشعور عظيم من الأمن والطمأنينة والسعادة .

وفضلا عن ذلك ، فان فى الحج تدريبا للانسان على تحمل المشاق والتعب ، وعلى التواضع حيث يخلع الانسان ملابسه الفاخرة ويرتدى ملابس الحج البسيطة التى يتساوى فيها جميع الناس ، الغنى والفقير ، والسيد والمسود ، والحاكم والمحكوم . وهو يقوى روابط الأخوة بين جميع المسلمين من مختلف الأجناس والأمم والطبقات الاجتماعية ، حيث يجتمعون جميعا فى مكان واحد يعبدون الله تعالى ويبتهلون اليه ويتضرعون . ويهيىء هذا التجمع الهائل للمسلمين من مختلف الشعوب الاسلامية فرص التآلف والتعارف وتكوين العلاقات والصداقات بينهم .

وفى الحج أيضا تدريب للانسان على ضبط النفس والتحكم فى شهواتها واندفاعاتها ، اذ يتنزه الحاج وهو محرم عن مباشرة النساء ، وعن الجدل والخصام والشحناء والسباب ، وعن المعاصى وكل ما نهى الله تعالى عنه . وفى ذلك تدريب للانسان على ضبط النفس ، وعلى السلوك المهذب ، وعلى معاملة الناس بالحسنى ، وعلى فعل الخير . فالحج هو جهاد للنفس ، يجتهد فيه الانسان أن يهذب نفسه ، ويقاوم أهواءه ، ويدرب نفسه على تحمل المشاق ، وعلى فعل الخير وحب الناس .

ويعلم المسلم أن الحج المبرور يغفر الذنوب ، ويرجع المسلم من الحج كيوم ولدته أمه ، ولا شك أن معرفة المسلم أن الحج المبرور يغفر الذنوب يجعل الانسان يعود من حجه منشرح الصدر سعيدا ، يغمره الشعور بالأمن والطمأنينة وراحة البال . ويمده هذا الشعور الغامر بالسعادة والأمن بطاقة روحية هائلة تنسيه هموم الحياة ومتاعبها . قال الله تعالى :

﴿ ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين ﴾ . (آل عمران : ٩٦ — ٩٧)

﴿ الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب ﴾ . (البقرة : ١٩٧)

﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .
(الحج : ٢٧ — ٢٩)

ومن الحديث النبوى الشريف :

— « من ملك زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله الحرام فلم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا . ذلك أن الله يقول : **﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ﴾(١)** .
(رواه الترمذى وأحمد)

— عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى

---

(١) آل عمران : ٩٧

الله عليه وسلم يقول : « من حج ، فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه » . (متفق عليه)

ــ وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة » .
(متفق عليه)

ــ عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة » . (رواه مسلم)

***

رابعا ــ الصبر :

يدعو القرآن المؤمنين الى التحلى بالصبر لما فيه من فائدة عظيمه فى تربية النفس ، وتقوية الشخصية ، وزيادة قدرة الانسان على تحمل المشاق ، وتجديد طاقته لمواجهة مشكلات الحياة وأعبائها ، ونكبات الدهر ومصائبه ، ولتعبئة قدراته لمواصلة الجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الله تعالى ..

﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين** ﴾ .
(البقرة : ٤٥)

﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، ان الله مع الصابرين** ﴾ . (البقرة : ١٥٣)

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ . (آل عمران : ٢٠٠)

والمؤمن الصابر لا يجزع لما يلحق به من أذى ، ولا يضعف أو ينهار اذا ألمت به مصائب الدهر وكوارثه ، فلقد أوصاه الله تعالى بالصبر ، وعلمه أن ما يصيبه فى الحياة الدنيا انما هو ابتلاء من الله تعالى ليعلم الصابرين منا ..

﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون ﴾ . (البقرة : ١٥٥ ــ ١٥٧)

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا اخباركم ﴾ . (محمد : ٣١)

﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور ﴾ . (آل عمران : ١٨٦)

والصبر من صفات المؤمنين الحميدة التى أشاد بها القرآن فى أكثر من موضع .

﴿ والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ . (سورة العصر)

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴾ . (البقرة : ١٧٧)

والصبر يعلم الانسان المثابرة وبذل الجهد لتحقيق أهدافه . والصبر والمثابرة مرتبطان بقوة الارادة .. فالشخص الصابر قوى الارادة ، لا تضعف عزيمته مهما لقى من مصاعب وعقبات . وبقوة الارادة يتمكن الانسان من انجاز الأعمال العظيمة ، وتحقيق الأهداف الكبيرة .

﴿ .. ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون ﴾ .

(الأنفال : ٦٥)

واذا تعلم الانسان الصبر على تحمل مشاق الحياة ، ومصائب الدهر ، والصبر على أذى الناس وعداوتهم ، والمثابرة على عبادة الله وطاعته ، وعلى مقاومة شهواته وانفعالاته ، والصبر والمثابرة على العمل والانتاج .. فانه يصبح انسانا ذا شخصية ناضجة متزنة متكاملة منتجة فعالة ، ويصبح فى مأمن من القلق ومن الاضطرابات النفسية .

ومن الحديث النبوى الشريف :

— « الصبر نصف الايمان ، واليقين الايمان كله » .

(رواه الطبرانى والبيهقى)

— عن أبى يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن : ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » . (رواه مسلم)

— عن أنس رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وان الله تعالى اذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .

(رواه الترمذى)

— عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة » .

(رواه الترمذى)

— وقال عليه الصلاة والسلام : « الصبر ضياء » .

(رواه مسلم)

* * *

خامسا ـ الذكر :

ان مواظبة المؤمن على ذكر الله تعالى بالتسبيح والتكبير والاستغفار والدعاء وتلاوة القرآن ، تؤدى الى تزكية نفسه وصفائها وشعورها بالأمن والطمأنينة .

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . (الرعد : ٢٨)

﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ .
(طه : ١٣٠)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ذكر الله شفاء القلوب » .
(رواه الديلمى)

ـ وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يجتمع قوم يذكرون الله تعالى الا حفتهم الملائكة وغشيتهم رحمته ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله تعالى » . (رواه ابن ماجه)

وحينما يداوم المسلم على ذكر الله تعالى فانه يشعر بأنه قريب من الخالق سبحانه ، وأنه فى حمايته ورعايته ، ويبعث ذلك فى نفسه الشعور بالثقة والقوة والأمن والطمأنينة والسعادة . قال تعالى :

﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ . (البقرة : ١٥٢)

وذكر الله ، اذ يبعث فى النفس الطمأنينة والأمن ، فهو بلا شك علاج للقلق الذى يشعر به الانسان حينما يجد نفسه ضعيفا عاجزا أمام ضغوط الحياة وأخطارها ، دون سند أو معين .

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ﴾ .
(طه : ١٢٤)

ان الذكر من أفضل العبادات ، قال تعالى :

﴿ .. ان الصـــلاة تنهى عن الفحشـــاء والمنـكر ، ولذكر الله أكبر .. ﴾ . (العنكبوت : ٤٥)

والواقع ان جميع العبادات ذكر أو تســاعد على الذكر .. ففى الصلاة يقوم المصلى بتكبير الله ، وتلاوة القرآن ، وتسبيح الله راكعا وساجدا ، وحمد الله والثناء عليه ، والصـــلاة على النبى ، ثم يعقب الصلاة الاستغفار وتسبيح الله وحمده وتكبيره ، والدعاء له .. وكل ذلك ذكر . وفى الصـــوم طاعة لله تعـــالى ، وابتعاد عن المعاصى التى تغضبه ، وتعظيم له ، وشكر له على هدايته .. وكل هذا ذكر . وفى الحج يتفرغ المسلم للصلاة والابتهال والدعاء لله ، والقيام بمناسك الحج .. وكل ذلك ذكر . قال تعالى :

﴿ اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى .. ﴾ . (طه : ١٤)

﴿ .. ولتكملوا العـــدة ولتكبروا الله على ما هــــداكم ولعـلكم تشكرون ﴾ . (البقرة : ١٨٥)

﴿ وأذن فى النـــاس بالحج يأتوك رجـــالا وعلى كل ضـــامر يأتين من كل فج عميـــق . ليشـــهدوا منافع لهم ويذكروا اســـم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ . (الحج : ٢٧ ــ ٢٨)

* * *

سادسا ــ التوبة :

ان الشـــعور بالذنب يسبب للانسان الشـــعور بالنقص والقلق ، مما يؤدى الى نشوء أعراض الأمراض النفسية . ويهتم العلاج النفسى ، فى مثل هـــذه الحالات ، بتغيير وجهة نظر الشخص المريض عن خبراته السابقة التى سببت له الشعور بالذنب ، فيراها فى ضوء جديد بحيث لا يرى فيها ما يبرر شعوره بالذنب والنقص ، فيخف تأنيبه لنفســـه ، ويصبح أكثر تقبلا لذاته ، فيزول قلقه وأعراض مرضه النفسى .

ويمدنا القرآن بأسلوب فريد وناجع فى علاج الشعور بالذنب ، الا وهو التوبة . فالتوبة الى الله سبحانه وتعالى تغفر الذنوب ، وتقوى فى الانسان الأمل فى رضوان الله ، فتخف حدة قلقه . والتوبة تدفع الانسان عادة الى اصلاح الذات وتقويمها حتى لا يقع المرء مرة أخرى فى الأخطاء والمعاصى ، وهذا يساعد على زيادة تقدير الانسان لذاته وازدياد ثقته بها ورضائه عنها ، وبالتالى بث الشعور بالأمن والطمأنينة فى نفسه .

ان ايمان المسلم بأن الله جل شأنه يقبل التوبة ويغفر الذنوب ، انما يدفعه الى الاستغفار والتوبة ، والابتعاد عن ارتكاب المعاصى أملا فى مغفرة الله ورضوانه . واذا ما تاب المسلم توبة نصوحا ، والتزم بطاعة الله وبالعمل الصالح ، ارتاح باله ، واطمأنت نفسه ، وزالت عنه الغمة والشعور بالذنب الذى يسبب له القلق واضطراب الشخصية وسوء التوافق . قال تعالى :

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم ﴾ .
(الزمر : ٥٣)

﴿ انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما ﴾ .
(النساء : ١٧)

﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .. ﴾ .
(النساء : ٤٨)

﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ .
(النساء : ١١٠)

﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ، ان الله غفور رحيم ﴾ .
(المائدة : ٣٩)

﴿ واذا جاءك الذين يؤمنـون بآياتنـا فقل سـلام عليكم ، كتب ربكم على نفسـه الرحمـة أنه من عمل منكم سـوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم ﴾ . (الأنعام : ٥٤)

﴿ وأنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ .
(طه : ٨٢)

وهكذا نجد أن أسلوب القرآن الكريم فى علاج الشخصية المنحرفة أو القويمة هو العلاج الأمثل من حيث بث الايمان بالعقيدة فى النفوس ، وفرض العبادات المختلفة التى تساعد فى التخلى عن العادات السيئة ، وحث المسلم على تعلم الصبر لتحمل مشاق الحيـاة بنفس راضـية . والحث على المواظبـة على ذكر الله حتى يشـعر الانسـان بقربه من الخالق عز وجل ، والاسـتغفار والتوبة مما يسـاعد على التخلص من القلق الناشىء عن الشعور بالذنب .

* * *

الفصل الخامس

خاتمة

العلم والايمان

خيل لبعض الناس فى وقت من الأوقات ــ ولا يزال يخيل الى اليوم ــ أن الانسان يمكنه أن يستغنى عن الدين ، وأن يعيش « متحررا » من تكاليف الايمان ، وخاصة فى هذا العصر ، عصر العلم ، الذى استطاع به الانسان أن « يقهر » الطبيعة وينتصر عليها ، ويسخرها لمنافعه .. فيفجر الصخر ، ويحول مسير الأنهار ، ويغوص فى أعماق البحار ، ويحلق فى أعالى الجو ، حتى راح يزاحم الكواكب فى فضائها ، والأقمار فى مداراتها ، حتى قال بعضهم فى غرور : ان الانسان غدا سيصنع نفسه .

● **المكاسب المزعومة من وراء الاكتفاء بالعلم :**

قالوا : فهو بواسطة هذا العلم يستطيع أن يكيف حياته ، وينظم شئونه بعيدا عن الايمان بالله ، وبمعزل عن رسالاته . وهو يظن أنه بهذا يكسب عدة أشياء نجملها فيما يأتى :

أولا ــ الصحة العقلية والنفسية : فان عقائد الدين والايمان بالغيب تسبب للمثقف العصرى قلقا ذهنيا ، ناتجا عن ايمانه بشىء لا تقوم عليه الأدلة العلمية ، ولا تشهد له التجارب الحسية .

ثانيا ــ الحرية الشخصية : فان للايمان بالله ورسالاته قيودا والتزامات تحد من انطلاق الانسان وتقيد من حريته ، وتضعه فى قفص محكم وفقا لنظرية « الحلال والحرام » ، التى لا يخلو منها دين ، وبهذه الحرية يستمتع الانسان بطيبات الحياة كلها دون تدخل من سلطة دينية.

ثالثا ـ العمل للحياة الدنيا وترقيتها : فان الدين بما فيه من زهد واقبال على الآخرة ، يدير ظهره للدنيا ، ويحقر من شأنها ، ويتهم العاملين لها بأنهم معرضـون عن الله وعن الآخـرة • الدنيـا والآخرة عنـده متضادتان ، اذا أرضيت احداهما أسخطت الأخرى •

نقض هذه الدعوى : وهذا الزعم الذى سـاد فى الغرب زمنا ، ثم صدره علماء الغرب من الهواة والمحترفين ، ليس له أساس من منطق سليم ، ولا من واقع مجرب • وسنتناول فى الصفحات التالية نقض هذه الدعوى ، وابطال هذا الزعم ، مستندين الى المنطق والعلم والواقع •

● مجال العلم ومجال الايمان :

١ ـ ان للعلم اختصـاصا لا يتعداه ، ومجالا لا يتجاوزه ، ذلك هو مجال المـاديات والمحسوسـات التى تدخلها الملاحظة والتجربة ، وهى وحـدها التى يمكن التحكم فيهـا واجراء التجـارب عليهـا ، واستخلاص النتائج منها • ففى هذه الحدود وما يماثلها يعمل العلم • أما ماعـدا ذلك مما وراء الحس وما وراء المـادة ، فليس من وظيفة العلم ، ولا من اختصاصه • انما هو وظيفة الفلسـفة أو الوحى • فاذا وجد من رجال العلم من يقول : اننى لم أجد دليلا علميا على وجود الله أو صدق الرسل أو وجود الملائكة ، قلنا له : لقد عدوت قدرك ، وخنت علمك ، حيث ورطته فيما ليس من شأنه ، وهل وجدت من مختبرك أن الله غير موجود ؟!

ان العلم منهج صحيح لمعرفة المـادة ، ولكنه ليس منهجا صحيحا لمعرفة ما وراء المـادة • انه يستطيع أن يعرف كيف تسير الأشـياء ، ولكنه لا يعرف شيئا عن مسيرها ولا لمـاذا سيرها ؟!

ان العلمـاء قد اتجهـوا بمنهجهم العلمى اتجاها صـحيحا نحو « عجلة » العـالم يفحصـونها ويجربونها ، ولكنهم لم يتجهوا نحـو « محرك » العجلة ، وليس فى مقدور علمهم وحده ـ وهو مبنى على

الحس والتجربة — أن يضع أيديهم على محرك العجلة ، لأنه لا يرى ولا يدرك بالحس ، ولا يدخل المعمل ، ولا يجرى فى أنابيب الاختبار .

لقد تقدم العلم وازدهر ، حتى ملأه الغرور . ومع هـذا كله لم يستطع أن يفسر الا السطح والمظاهر ، أما العلة الأولى للخلق ، أى من الذى بعث الحياة فى الخلية الأولى للعالم ؟ كيف تفسر ملايين الحقائق فى عجائب الطبيعة ؟ وفى عجائب أنفسنا ؟

ان أقصى ما يصبو اليه العلم أن يعرف نصف الحقائق ، وهو الظاهر والاجابة عن « كيف » . أما النصف الآخر ، وهو أقوم النصفين ، وهو باطن الحقائق والاجابة عن « ما هى » لا « كيف هى » ، فعاجز كل العجز عنه .

ان من يؤمن بالعلم وحده وينكر ما وراءه ، ومن يؤمن بالقوانين العلمية وينكر ما عـداها ، لا يأبه بكلامه حتى يقول : انى أسـتطيع أن أفسر العالم من ألفـه الى يائه .. فأما أن يفسر الآلة ، ولا يفسر محركها ، ويفسر تطور الحياة وتدرجهـا ، ولا يفسر كيف وجـدت لأول عهدها بالوجـود ، فضرب من السخف ، أو هو — على أحسن تفسير — كقول الطفل : لا أعلم ، لأنه يريد أن يتعلم .

ان انكار العلة الأولى للعالم ، وعقل العالم الذى يدبره ، يلقى على عاتقنا عبئا لا نستطيع حمله .

ان نتائج العلم ليست — كما يظن بعض الناس — قطعية يقينيـة مائة فى المـائة (١٠٠٪) وبصورة دائمة . فان قابلية الشك والاحتمال قائمة فى كثير من نتائج العلم .. ذلك أن أساس العلم هو التجربة ، والتجربة مبنية على الحس ، والحواس كثيرا ما تخدع ، وهذا ما أقر به المحققون من العلماء .

وتاريخ العـلم يبين لنا أن كثيرا من الآراء التى كانت فى بعض العصـور حقائق علمية ، لا تقبل الجدل ، ولا تحتمل الشك ، دار عليها الفلك دورته فاذا هى فى عصـور تالية أباطيل لا يقـوم عليهـا برهان

ولا شبه برهان .. بل ان بعض العلوم الأساسية التى تغيرت أسسها ، وتبدلت موازينها ، كما رأينا فى قرننا العشرين .

● **الرسوخ فى العلم يهدى الى الايمان :**

ان العلم ليس خصما للايمان ، ولا ضدا له ، بل هو دليل يهدى اليه . وقد رأينا كثيرا من العلماء الراسخين المنصفين ، هداهم علمهم الى أن وراء هذا الكون قوة عليا تدبره وتنظمه وترعى كل شىء فيه بميزان وحساب ومقدار . ذلك أن العالم أقدر من غيره على استبانة ما فى هذا الكون من ترابط وتناسق واحكام ، يتجلى فى كل خلية من خلايا أحيائه ، وفى كل ذرة من ذرات جماداته .. فى خلق السموات والأرض . فى اختلاف الليل والنهار . فى الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس . فيما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . فيما بث الله فى الأرض من الدواب والأحياء . فى تصريف الرياح . فى السحاب المسخر بين السماء والأرض .

ولا عجب أن قرأنا لكثير من علماء الكون — فى الفيزياء والفلك والرياضيات والكيمياء والأحياء وغيرها — شهادات ناصعة اعترفوا فيها بوجود الله ، وصحة الدين ، وهى شهادات تقطع ألسنة الذين يريدون أن يتخذوا من العلم سلاحا يحاربون به الدين .

فالعلم يناقض الخرافات ، ولكنه لا يناقض الدين نفسه . ويوجد فى كثير من العلم الطبيعى الشائع روح الزندقة ، ولكن العلم الصحيح الذى فات المعلومات السطحية ، وغاص فى أعماق الحقائق ، براء من هذه الروح . فالعلم الطبيعى لا ينافى الدين ، والتوجه الى العلم الطبيعى عبادة صامتة ، واعتراف صامت بقيمة الأشياء التى نعانيها وندرسها ، ثم بقدرة خالقها . فليس ذلك التوجه تسبيحا شفهيا ، بل هو تسبيح عملى ، واحترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل . وهذا العلم لا يملك طريق الاستبداد فى تفهيم الانسان استحالة ادراكه كنه السبب الأول وهو « الله » ، ولكنه ينهج بنا المنهج الأوضح

فى تفهيمنا الاستحالة بابلاغنا جميع الحدود التى لا يستطاع اجتيازها ، ثم يقف بنا فى رفق وهوادة عند هذه النهاية . وهو بذلك يرينـا .. بكيفية لا تعادل .. صـغر العقل الانسـانى ازاء ذلك الذى يفوت العقـل ...

● **دعوى الصـحة النفسـية والعقلية :**

أما ما يقال من أن الانخلاع من الدين يؤدى الى صحة النفس والعقل ، فهو أمر يكذبه الواقع وينفيه ما نشاهده فى دنيا الحضـارة الغربية المـادية ، التى أخذت زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، بما أوتوا من العلم التجريبى والتقدم التقنى .. فهـذا العالم الغربى « العلمى » الحديث ، يعانى من أمراض النفس والعقل ما يسهد عليه ليله ، ويكدر عليه نهاره .

وهذا أمر لاحظه وحذر منه الفلاسفة المفكرون ، وشاهده وشهد به العلماء المجربون ، وأحس به وعبر عنه الأدباء والفنـانون ، وانتبه اليه وسجله الكتاب والاعلاميون .

ويقول الفيلسوف الشاعر المسلم محمد اقبال ما يأتى :

« الرجل العصرى بما له من فلسـفات نقدية ، وتخصص علمى ، يجد نفسه فى ورطة . فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسـبق اليه ، لكنه قد سـلبه ايمانه فى مصـيره هو . الانسـان العصرى ، وقد أغشـاه نشـاطه العقلى ، كف عن توجيـه روحه الى الحياة الروحانية الكاملة ، أى الى حياة روحية تتغلغل فى أعماق النفس ، وهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسـه ، وهو فى مضمار الحياة الاقتصـادية والسـياسية فى كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة وحبه للمال حبا طاغيا ، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئا فشيئا ، ولا يعود عليـه الا تعب الحياة »[1] .

---

(١) محمد اقبال : تجديد الفكر الدينى فى الاسلام . ص ٢١٤

« ومن العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عددا من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة . ولذا فان مستشفيات ومصحات الأمراض النفسية والعقلية تعج بنزلائها وتعجز عن استقبال جميع من يحتاجون الى خدماتها »[1] .

ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطير الذى تعانى منه المدنية الحديثة وعلى أن عادات الحياة الحديثة لم تؤد الى تحسين صحتنا العقلية .

● **الحرية الشخصية وآثارها :**

أما الحرية الشخصية التى يدعى أنصار الفكر المادى أنهم ربحوها من وراء « التحرر » من الدين والايمان بعقائده الغيبية ، وأخلاقه القسرية ، فاننا نقول : ان الحرية اذا كان معناها العب من الشهوات بلا حساب ، والانطلاق وراء المتع الحسية بلا حياء ، والتحلل من عرى الفضائل والأخلاق والقيم العليا التى هى أغلى ما ورثته الانسانية من تاريخها الطويل ، فهذه الحرية ليست حينئذ كسبا يسعى اليه ، ولا غنما يحرص عليه ، بل هى خسارة جسيمة على البشرية ، وهزيمة منكرة للمعانى الانسانية التى بها صار الانسان انسانا .. ان القيود التى يفرضها الدين على الانسان لا يريد بها عذابه ولا حرمانه ، انما يريد بها أن يرتفع به من الحيوانية الهابطة الى الانسانية الصاعدة ، وبذلك ينتصر الجزء السماوى فى الانسان على الجزء الأرضى ، ينتصر العقل على الشهوة البهيمية .

ان هذا الانتصار على النفس ــ فضلا عما له من قيمة ذاتية وخلقية ــ ليمنح النفس لذة أعمق وأبقى من لذة الانطلاق وراء المتع الحسية التى لا يدوم التلذذ بها أكثر من لحظات قصار ، ثم ينطفىء أوارها فاذا هى رماد .

على أن للقيود التى يفرضها الدين على المرء معنى آخر لا تصلح

---

(١) المرجع السابق . ص ١٨٧ ، ١٨٨

الحياة الاجتماعية الا به • ذلك أن الحياة لا تخلو من قيـــود توجبها ضرورة التشابك والزحام ، وليس فى الامكان أن يعيش الانسان حرا طليقا من كل قيد ، الا اذا تصـــورنا ــ جدلا ــ أنه يعيش وحـــده فى اقليم فسيح •

● **العلم ظهير الايمان :**

لم تخل الحياة فى المــاضى ــ ولن تخلو فى الحاضر والمستقبل ــ من أناس ينكرون الألوهية ويرفضـــون الدين ، ويريدون أن يعيشـــوا مبتورين عن الأصل الذى انبثقوا منه ، مخلدين الى الأرض التى درجوا عليها ، غير مفكرين فى آخرة أو ثواب أو عقاب !•

انما الحياة فى نظرهم احســـاس عارض يبقى فى كتلة من اللحم والعظم لبضع سنين ، ثم يتلاشى الى الأبد •

وفى القرآن الكريم تعجيب من كنـــود هؤلاء المعطلين الحيـــارى ينضح على نفسك عندما تقرأ قوله تعالى :

﴿ خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين ﴾ •

(النحل : ٤)

وقد حرصت أن أطـــل على نفوس هـــؤلاء ، لأطلع على ما فى داخلها ، وأن أتابع سير أفكارهم لأعرف مبلغ عوجها وزيفها •

وذلك لأن جمهرة هؤلاء المــاديين أصحاب دعاوى عريضـــة ، عن فقههم فى الكون ، واحاطتهم بأسراره ، كأنهم يريدون الايهـــام بأنهم كفروا عن علم وذكاء !

والواقع أن كفرهم مجموعة من الأوهام والتخبطات لا تمســـكها الا الجراءة على الحق •

وأن هـــذه المجمـــوعة من الخيـــالات لا تثبت على التمحيص ، ولا تتماسك أمام سطوة العقل عندما يسلط عليها فكره الناقد ، ونقده العميق !

ان علماء الدين يجمعون على استبعاد حكاية « الصدفة » فى بروز هذا التكوين الى الحياة ، لأن التأليف المنسق المحكم الرائع الذى يتم به هذا التكوين قاطع فى أنه وليد اشراف أعلى وارادة مختارة[1] !

أود أن أنفى بشدة وبقوة ما يدور على أفواه البعض من أن البيئة العلمية تربة خصبة للالحاد . ان هذه شائعة مفتراة لا تليق أن نستمع اليها . وهدف الذين روجوها الايهام بأن الايمان ينبت فى الأوساط الجاهلة ، ويستخفى فى الأوساط العاقلة .. هذه فرية مفضوحة ، فان الالحاد آفة نفسية ، وليس شبهة علمية .

والذين كفروا بالله الحق لم ينشأ كفرهم عن استقامة فى التفكير ، انما نشأ كفرهم عن عوج فى الفطرة ، وخطل فى الرأى ، وضلال فى الخطوات .

وجمهرة العلماء معافون من هذا البلاء ، وهم مؤمنون بالله الحق ايمانا يتخلل شعاب القلب ، ويورث مشاعرهم اعزازا للخالق ، واكبارا لشأنه[2] .

● **هذه السلسلة من الدراسات :**

فى القرآن الكريم اعجاز لا يتنبه اليه العقل الا بعد أن ينشط ويبدأ فى الكشف عن حقائق الكون وأسراره . ان القرآن الكريم عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق .. ذلك أن القرآن للعالمين ، أى للدنيا بأسرها ، فلا يقتصر على أمة بعينها ، وانما هو الدين الكامل لكل البشر . والقرآن متجدد لا يجمد أبدا ، سخى يعطى دائما ، قادر على العطاء لكل جيل بما يختلف عن الجيل الذى قبله .

أين يضع القرآن الكريم « الانسان » فى هذا القرن الذى تعددت فيه النظريات والآراء والمذاهب وتتصارع كلها وتدعى السعى الى تأمين الرفاهية والسعادة للمجتمع ؟

---

(١) محمد الغزالى : ركائز الايمان بين العقل والقلب . القاهرة : مكتبة وهبة (ط ٣) ، ١٩٩٤ ، ص ٤١

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٥

ما مكان الانسان من الكون كله ؟ ما مكانه من أبناء نوعه من الجنس البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من النوع الواحد ؟ أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان واحد هو « الانسان » ؟

هذه الأسئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » ، تجمع للانسان عرفانه بدنياه وصفوة ايمانه بغيبها المجهول .. تجمع له خلاصة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة .. حياته وحياة سائر الأحياء ..

هذه العقيدة توجد كما ينبغى أن توجد ، وهى بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق ..

فمكان الانسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة ، وفى ميزان الفكر ، وفى ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات .. هو « الكائن المكلف » ، الذى يفكر ويعقل ، ويبصر ، ويتدبر ..

ويتميز القرن العشرون بلون خاص من المعرفة ، هى « المعرفة السيكولوجية » (النفسية) . وقد يقال ان العلوم الطبيعية قد أحرزت أروع أنواع التقدم ، ولكن هذا التقدم لا يخرج عن كونه تطبيقا لأساليب البحث والمعرفة . أما الاتجاه الذى ظهر فى عصرنا الحديث نحو دراسة الطبيعة البشرية والخبرة الانسانية فهو اتجاه جديد .

ولم يكن من الممكن أن يظهر هذا الاتجاه قبل الأوان ، فلم يكن ثمة بد من أن يسبقه اعداد طويل المدى مع التهيئة له . فهناك ميقات لكل علم ، ولابد لكل علم من أن ينتظر حتى تحين ساعة ظهوره . واليوم تدق الساعة ايذانا ببزوغ « علم النفس » ، وظهور لون جديد من ألوان الاستنارة والمعرفة ، وقد انتشر وعمت دراساته وتطبيقاته شتى مجالات الحياة .

وعلينا أن نؤكد هنا أن مجالات الاهتمام التى يبحثها هذا العلم

الحديث ميادين معروفة منـذ القدم ، غير أن دقة البحث فيها ظاهرة جديدة .. فقد بدأت تخضع لقواعد المنطق وأسلوب البحث العلمى .

وقد ساعدنا الاتجاه الجديد نحو الدقة العلمية فى مجال البحث السيكولوجى على أن نزداد بصيرة بشـئوننا ، ونسـتعين بذلك على النهوض بمستوى حيـاتنا . كما ترتب على هذه الدقة ظهـور أفكار جـديدة لها سـلطانها وقوتهـا بما يسـاعدنا على اعـادة تشـكيل حياتنا وتنظيمها .

لقد قام الانسان ـ ارضاء لكبريائه وتحقيقا لذاته ـ ببناء عالم مادى يفوق حقيقته وواقعه الأحلام التى وردت فى الأسـاطير . فقـد استجمع تحت سيطرته طاقات طبيعية وسخرها لخدمة الجنس البشرى ، بحيث توفر له الظروف المـادية الضرورية لاستمرار الانتاج والارتفاع بمستواه . وعلى الرغم من أن الكثير من أهدافه لم يتحقق بعد ، فيمكن القول بأنها فى متناول يده ، وأنه فى طريقه المؤدى الى حل مشـكلاته المـادية الانتاجية . والآن يشـعر الانسـان لأول مرة فى التاريخ بأن موضوع غزو الطبيعة من حيث استغلال طاقاتها لصالح الانسان لم تعد حلما بل حقيقة واقعة .

وعلى الرغم من ذلك يشعر الانسان بالقلق والحيرة .. فهو يكد ويعمل ويكافح ، ولكنه يدرك عدم جدوى ما يقوم به من نشـاط .. ففى ذات الوقت الذى تزداد فيه سيطرته على القوى والطاقات الطبيعية ، فانه يشعر بأنه لا حول له ولا قوة ازاء حياته كفرد وكعضو فى مجتمع . فبينما يستنبط وسائل جيـدة للسيطرة على القوى الطبيعية ، فقـد أصبح أسير هذه الوسائل التى استحدثها ، وفقد الرؤيا التى لها دلالتها بالنسبة لنتيجة هذه الأعمال ـ ألا وهى « الانسان ذاته » . ففى الوقت الذى أصبح فيـه مسيطرا على القوى الطبيعية ، نراه قد أصبح عبـدا للآلة التى صـممها بنفسـه . وعلى قـدر علمـه ومعرفتـه بالمـادة وخصائصها ، فانه جاهل أشـد الجهل فيما يختص بالسـؤال المتعلق

بالوجود الانســانى ، ألا وهو : ما هو الانســان ، وكيف ينبغى أن يعيش ، وكيف يمكن الاستفادة من الطاقات الهائلة الكامنة فيه من أن تستخدم بكفاءة وفعالية .

فما هو طريق الخلاص اذن ؟ ليس هناك من طريق سوى الرجوع للحق الكامن فى القيم والمبــادىء الأخلاقيــة المســتمدة من الشريعة الاسلامية .. فهذه الشريعة الاسلامية السمحة قد أرست قواعد القيم الأخلاقية ، وحثت على اتباعها . وأن تتبع الحــق والعــدالة والأمانة والرحمة والبر والتعاون فى تعاملنا بعضنا مع البعض الآخر . ويكفى التدليــل على ذلك ، أن الخالق ــ ســبحانه ــ خاطب نبيه الكريم محمدا ــ عليه الصلاة والسلام ــ وهو رسول الانسانيه والمثل الذى يحتذى فى الأخلاق الكريمة والذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، قائلا :

﴿ .. ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك .. ﴾ .
(آل عمران : ١٥٩)

وبعــــد ..

فى اطار ما ســبق ذكره ، وتأثرا بمبــادىء الدين الاســلامى الحنيف ، ومن خلال الاندماج فى النظريات والبحــوث والدراســات النفسية لأكثر من ثلاثين عاما .. قام الكاتب باســتخلاص مجموعة من الآيات القرآنيــة التى اختصت « بالنفس البشرية » بوجــه خاص ، والمبادىء الانسانية بوجه عام . وقد استخرج هذه الآيات من المصحف المفهرس ، ثم ردها الى أصلها فى المصحف الشريف وكتب التفســير ، فاستخلص معانيها ، وصنفها فى أنماط مختلفة من الناحية النفسية .. كالنفس المطمئنة ، والنفس البارة ، والنفس اللوامة ، والنفس الكادحة ، الى غير ذلك من أنماط النفوس ، لتصــدر فى سلسلة يقــوم الكاتب باعدادها بعنوان « دراسات نفسية اسلامية » ، بحيث يفرد كتاب مستقل لكل موضوع . ورأى الكاتب أن يبدأ السلسلة « بالنفس البشرية » مســتهدفا فى كل السلسلة أن يبرز الدور الرائد للشريعة الاســلامية فى جميع الموضوعات النفسية والاسلامية ، وكان رأى الشريعة الاسلامية

فى هذه الموضوعات هو النبراس الذى اهتدى به العلم فى بحوثه ودراساته ونظرياته النفسية والانسانية .

وقد استغرق اصدار السلسلة حوالى خمسة عشر عاما بدأت فى ربيع الأول عام ١٤٠٢ هـ ـ الموافق يناير ١٩٨٢ م . وقد بدأت كتابتها فى جـدة ـ بالمملكة العربية السعودية ، حيث كان الكاتب عضو هيئة تدريس بجامعة الملك عبد العزيز من ١٣٩٣/٥/٢٩ الى ١٤٠٧/٥/١٤ هـ . (حوالى ١٤ عاما) واستكملها بعد عودته للقاهرة . وفيما يلى محتويات كل كتاب فى السلسلة :

١ ـ « النفس البشرية » : الانسان .. خلقه وتطوره ، خصائص النفس البشرية ، ونفس وما سواها ، السلوك الانسانى ، خاتمة .

٢ ـ « النفس المطمئنة » : ملامح النفس المطمئنة ، المفاهيم الأساسية للصحة النفسية ، النفس اللوامة ، القيم والأخلاق ، خاتمة .

٣ ـ « الشخصية المنتجة » : مفهوم العمل ، العمل والانتاج . الدافعية للعمل ، انسانية العمل ، خاتمة .

٤ ـ « الشخصية السوية » : مدخل الى الشخصية السوية ، اطار نظرى لدراسة الشخصية ، ملامح الشخصية السوية ، توافق الشخصية ، التوجيه والارشاد والعلاج النفسى لتحقيق التوافق ، خاتمة .

٥ ـ « الدين للحياة » الدين وشئون الحياة ، الدين المعاملة ، دين الانسانية ، دين الواقع والعمل ، دين الوسطية والعدل ، دين التشريع للفرد والأسرة والمجتمع ، خاتمة .

٦ ـ « العلاقات الانسانية » : المفاهيم الأساسية للعلاقات الانسانية ، العلاقات الانسانية فى مجال العمل ، الدافعية والسلوك ، القيادة ، الاتصال ، خاتمة .

٧ ــ « الفرد والمجتمع فى الاسلام » : نحو علم اجتماع اسلامى ، رواد الفكر الاجتماعى الاسلامى ، الفرد المسلم ، الجماعة المسلمة ، المجتمع المسلم ، العمليات الاجتماعية ، خاتمة •

٨ ــ « ونفس وما سواها » : مدخل الى النفس البشرية ، النفس البشرية فى سوايها وانحرافها ، مفهوم النفس السوية ، مفهوم النفس المنحرفة ، خاتمة •

٩ ــ « كلكم راع » : مفهوم القيادة ، السلوك القيادى ، القيادة الادارية فى الاسلام ، اختيار القادة واعدادهم ، القيادة العسكرية ، نماذج قيادية اسلامية (محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، الفاروق عمر بن الخطاب ، ذو النورين : عثمان بن عفان ، على بن أبى طالب ، عمر بن عبد العزيز) •

١٠ ــ « الايمان والصحة النفسية » : مفهوم الايمان ، مزايا العقيدة الاسلامية أثر الايمان فى حياة الفرد ، المفاهيم الأساسية للصحة النفسية ، توافق الشخصية ، التوجيه والارشاد والعلاج النفسى لتحقيق التوافق ، خاتمة •• العلم والايمان ، وهذه السلسلة من الدراسات •

* * *

المراجـــع

أولا ــ المراجع العربيـــة :

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ ابن القيم : مدارج الســالكين القــاهرة : مطبعة الســنة المحمدية .

٣ ــ أبو حامــد الغزالى : احيــاء علوم الدين . القــاهرة : الحلبى ، ١٩٥٦

٤ ــ جوررارد وترجمة حسن الفقى وسيد خير الله : الشخصية بين الصحة والمرض . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٢

٥ ــ حامد عبد السلام زهران : الصــحة النفســية والعــلاج النفسى . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٧٤

٦ ــ سيد عبد الحميد مرسى : دور المعلم فى التوجيه والارشاد بالمدرسة الثانوية . مكة المكرمة : المؤتمر الأول لاعداد المعلمين ، ١٩٧٤

٧ ــ سيد عبد الحميد مرسى : علم النفس والكفاية الانتاجية . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨١

٨ ــ سيد عبد الحميد مرسى : الشــخصية الســوية (سلســلة دراسات نفسية اسلامية «٤») . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٥

٩ ــ سيد عبد الحميد مرسى : الارشاد النفسى والتوجيه التربوى والمهنى (ط ٢) القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٧

١٠ ـ مصطفى زيور : « فصول فى الطب السيكوسوماتى » • مجلة علم النفس ، ١٩٤٥

١١ ـ فرج أحمد فرج ، وآخرون (ترجمة نظريات الشخصية وتأليف لندزى) • القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١

١٢ ـ فرج عبد القادر طه : علم النفس الصناعى والتنظيمى • القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٣

١٣ ـ محمد الغزالى : ركائز الايمان بين العقل والقلب (ط ٣) • القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٩٤

١٤ ـ محمد اقبال : تجديد الفكر الدينى فى الاسلام •

١٥ ـ مصطفى فهمى : علم النفس الاكلينيكى • القاهرة : مكتبه مصر ، ١٩٦٧

١٦ ـ مصطفى فهمى : الانسان وصحته النفسية • القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٥

١٧ ـ محمد عثمان نجاتى : القرآن وعلم النفس • القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٢

١٨ ـ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية • (ط ٤) القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٨

١٩ ـ يوسف القرضاوى : الايمان والحياة • (ط ٧) القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٠

٢٠ ـ يوسف القرضاوى : ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٩٣

٢١ ـ يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام • (ط ٣) القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٧

ثانيا ـ المراجع الأجنبيـــة :

1 — Adler A.; **The Practical theory of Individual Psychology.** N. Y. : Harcourt, 1927.

2 — Allport, G.; **Pattern & Growth of Personality** N . Y ; Holt **1961.**

3 — Benedict, R.; **Patterns of culture.** N . Y . : Amer library, 1956 .

4 — Fromm, E.; **Man for Himself** N . Y . : Rinehart, 1947.

5 — Fromm. E.; The SaneSociety - N Y ; Rinehart, 1955.

6 — Honingman, G.; «Toward a Distinction Between Psychiatry & Social Abnormality » **Social Forces** ., 31, 1935, 274 — 277 .

7 — Horney, K.; **Self - Analysis. N . Y .** Norton, 1942.

8 — Jahoda , M. (ed.) ; **Current concepts of Positive Mental Health.** N. Y. : Besic Books , 1958 .

9 — Maslow , A.; **Motivation and Personality.** N. Y. : Harper, 1954 .

10 — Miller, C.; White Collar . N . Y . : Oxford Univ . Press, 1951.

11 — Mullahy , P.; « Non - Freudian Analytic Theories », in Wolman, B. (ed.) , **Handbook of clinical Psychology** . N . Y . : Mc Craw — Hill, 1965 .

12 — National Assn . for Mental Health ; **Facts about Mental Illness** . N. Y. National Assn. for Mental Health, 1966.

13 — Rank , 0. ; Wil **Therapy, Truth, & Reality .N.** Y. : Knopf, 1945.

14 — Rogers. C.; **Client - Centered Therapy** Boston : Houghton — Mifflin, 1951.

15 — Scott, T. , et. al .; **A definition of Work Adjustment .** Minnesota : Industrial Relations Center, Univ. of Minn., 1958 .

16 — Shaffer, L., and Shoben , E. Jr. ; The Psychology of Adjustment (2nd ed .) Boston : Houghton - Mifflin, 1956.

17 — Smith, M.; « Research Strategies toward a Conception of Positive Mental Health ». **Amer.**Psychologist, 14, 1959, 673 - 681.

* * *

محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة

الفصل الثالث : المفاهيم الأساسية للصحة النفسية

(١٣٤ – ١٥٠)

الفصل الرابع : توافق الشخصية

(١٥١ – ٢١٧)

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس : خاتمة

(٢١٨ ـ ٢٣٠)

المراجع

(٢٣١ ـ ٢٣٤)

رقم الايداع بدار الكتب : ٩٤/٧٥٨٧
T - S - B - W
977 — 225 — 058 — 6

دار التوفيق النموذجية للطباعة
أوفست.. تيبو
الأزهر : ٣ حيضان الموصلى بجوار جامع السادات
ت : ٥١١٥٣٠٤